

جامعة النجاح الوطنية
كلية الدراسات العليا

الاستقصاء والتحليل في شيمة الشجاعة في الشعر العباسي - دراسة نماذج مختارة

إعداد

يزيد مصطفى كامل زين الدين

إشراف

د. عبد الخالق عيسى

قُدِّمت هذه الأطروحة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها بكلية الدراسات العليا في جامعة النجاح الوطنية في نابلس، فلسطين.

2017م

الاستقصاء والتحليل في شيمة الشجاعة في الشعر العباسي - دراسة نماذج مختارة

إعداد

يزيد مصطفى كامل زين الدين

نوقشت هذه الأطروحة بتاريخ 2017/01/18، وأجيزت.

التوقيع

أعضاء لجنة المناقشة

.....

1. د. عبد الخالق عيسى / مشرفاً ورئيساً

.....

2. أ. د. علي عمرو / ممتحناً خارجياً

.....

3. أ. د. إحسان الديك / ممتحناً داخلياً

الإهداء

إلى من يعانون برد الشتاء، وينامون في العراق
إلى من أنهكتهم ظلمات الحرب القاسية
إلى أطفال سوريا والعراق واليمن وليبيا وفلسطين
إلى كل أطفال العالم المتعبين.
إلى هؤلاء جميعاً أهدي هذا العمل

الشكر والتقدير

أتقدم بخالص الشكر، وعظيم الامتنان مع الدكتور عبد الخالق عيسى؛ لقبوله الإشراف على رسالتي، فكان لي خير ناصح، فشجعني وأعانني ونصحني وأشدني وتابعني في كل خطوة من خطوات بحثي، فجزاه الله خير الجزاء، وأسأله تعالى أن يجعل هذا العمل في ميزان حسناته.

كما وأتقدم بالشكر مع الدكتور إحسان الديك، والدكتور علي عمرو اللذين تفضلا بقبول قراءة أطروحتي، وتكثرا بمناقشتها والتعليق عليها.

وأوجه بجزيل الشكر إلى كل من ساندني ومدد لي يد العون لإنجاز هذا العمل، واستكمال مادة البحث.

جزى الله الجميع خير الجزاء.

الباحث يزيد زيه الديك

الإقرار

أنا الموقع أدناه، مقدم الرسالة التي تحمل العنوان:

الاستقصاء والتحليل في شيمة الشجاعة في الشعر العباسي - دراسة نماذج مختارة

أقر بأن ما اشتملت عليه هذه الرسالة إنما هو نتاج جهدي الخاص، باستثناء ما تمت الإشارة إليه حيث ما أن هذه الرسالة كاملة، أو أي جزء منها لم يقدم من قبل لنيل أي درجة أو لقب علمي أو بحث لدى أي مؤسسة تعليمية أو بحثية أخرى.

Declaration

The work provided in this thesis, unless otherwise referenced, is the researcher's own work, and has not been submitted elsewhere for any other degree or qualification.

Student's name:

اسم الطالب:

Signature:

التوقيع:

Date:

التاريخ:

فهرس المحتويات

الصفحة	الموضوع
ج	الإهداء
د	الشكر والتقدير
هـ	الإقرار
و	فهرس المحتويات
ح	الملخص
1	المقدمة
4	التمهيد
17	الفصل الأول: مظاهر الشجاعة وصور الشجاع في الشعر العباسي
18	مظاهر الشجاعة في الشعر العباسي
19	- الرأي والمكيدة
28	- الهيبة
42	- الصبر في الشدائد
45	- رباطة الجأش
53	- بذل النفس
58	- مواجهة الموت
68	- العفة
69	- التميز والتفرد
72	- مواجهة الأقران
75	صور الشجاع
75	- صورة الأسد
87	- صورة السيف
92	- صور بعض مظاهر الطبيعة
95	الفصل الثاني: الحرب وأدواتها في الشعر العباسي
96	- علاقة الشجعان بالحرب
106	- وصف المعركة
106	جوّ المعركة

الصفحة	الموضوع
116	هول المعركة
116	وصف الجيش
122	وصف حال العدو في المعركة
147	- أدوات الحرب
150	السيف
158	الرماح والسهام
163	الخاتمة
167	قائمة المصادر والمراجع
b	Abstract

الاستقصاء والتحليل في شيمة الشجاعة
في الشعر العباسي - دراسة نماذج مختارة

إعداد

يزيد مصطفى كامل زين الدين

إشراف

د. عبد الخالق عيسى

الملخص

سَعَتْ هذه الدراسة إلى تتبع شيمة الشجاعة في الشعر العباسي، للوقوف على كيفية تناول الشعراء العباسيين لها، وأبرز المؤثرات التي أدت دورًا بارزًا في هذا التناول، لتشكيل صورة الشجاعة والشجعان في الشعر العباسي.

وتناولت الدراسة مظاهر الشجاعة كما رسمها الشعراء العباسيون، فتحدّثت عن الرأي والمكيدة، والهيبة، والصبر في الشدائد، وبذل النفس، والعفة، والتفرد، ومواجهة الأقران، وعرضت صور الشجاع كما رسمها الشعراء العباسيون، وهي صورة الأسد، والسيف، وصور بعض مظاهر الطبيعة: السماء، والسحاب، والسيل، والجبل.

ووقفت الدراسة عند الحرب وأدواتها، فعرضت ما قاله الشعراء في الإقدام، ووصف المعركة، والجيش، وإظهار حال العدو قبل المعركة وبعدها، وكثرة القتلى منهم، ووقفت عند أدوات الحرب، فأظهرت وصف الشعراء العباسيين للسيوف والرماح، والسهام.

وانتهت بخاتمة تضمّنت أهمّ النتائج

المقدمة

الشجاعة خلق كريم، يحمل النفس على التحلي بفضائل الأخلاق، ويبعدها عن الرذائل، وهي خلق لا يتصف به إلا أصحاب النفوس الفاضلة والهمم العالية، ومن تحلوا بالصبر، وتسَلَّحوا بالعزيمة، وثبات القلب.

والعرب قديما على مرّ التاريخ مجّدوا خلق الشجاعة، وعدّوه من الخصال الأساسية في حياتهم، فكانت الشجاعة مفخرتهم في الجاهلية، يتفاخرون بها ويتمادحون، فامتألت بطون دواوينهم بأشعار تصف شجاعتهم في الحرب، و دفاعهم عن القبيلة وحماية الأعراض. وبعد ظهور الإسلام أسهم النور القرآني والتوجيه النبوي في رفع هذا الخلق، فقد أمر الله سبحانه وتعالى المسلمين بالقتال في سبيله، والإقدام في الحرب، ونهاهم عن الجبن، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحًّا فَاثْبُتُوا﴾¹ وقال أيضا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا﴾². وقد حثنا رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم على الشجاعة وحببها إلينا بإقدامه في القتال، يقول عليّ بن أبي طالب - رضي الله عنه -: " لقد رأيتنا يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو أقربنا إلى العدو، وكان من أشدّ الناس يومئذ بأساً"³. ولذلك نجد الشاعر الإسلامي جعل بواعث الشجاعة مرتبطة بالدين والجهاد في سبيل الله، بعد أن كانت تتبع من منابع قبلية.

وعلى الرغم من كثرة الإنتاج الشعري الذي تناول شيمة الشجاعة في العصر العباسي، إلا أنّ الدارس لا يجد دراسة علمية شاملة متخصصة تناولت شيمة الشجاعة في ذلك العصر، ولهذا جاءت هذه الدراسة؛ لتلقي الضوء على مظاهر الشجاعة في الشعر العباسي، متناولة نماذج من الشعر الذي عرض للشجاعة، وقد جعلت بناءها مؤلّفاً من مقدمة وتمهيد، ومن فصلين وخاتمة، ومن ثبت يضم المصادر والمراجع التي اعتمدت عليها.

¹ سورة الأنفال، الآية (16)

² سورة الأنفال الآية (45)

³ ابن حنبل، أحمد بن محمد: مسند أحمد، شرح أحمد شاكر، ط1، القاهرة، دار الحديث، 1995، ص449، رقم الحديث

فتناولت في الفصل الأول مظاهر الشجاعة كما رسمها الشعراء العباسيون، فتحدّثت عن الرأي والمكيدة، والهيبة، والصبر في الشدائد، وبذل النفس، والعفة، والتميز والتفرد، ومواجهة الأقران، وعرضت صور الشجاع كما رسمها الشعراء العباسيون، كصورة الأسد، والسيف، وبعض مظاهر الطبيعة، كالسما، والسحاب، والسي، والجبل.

وخصّصت الفصل الثاني للحديث عن الحرب وأدواتها، فعرضت ما قاله الشعراء في الإقدام، ووصف المعركة، والجيش، وإظهار حال العدو قبل المعركة وبعدها، وكثرة القتلى منهم، ووقفت عند أدوات الحرب، فأظهرت وصف الشعراء العباسيين للسيوف والرماح، والسهام. وأمّا خاتمة البحث فقد تضمّنت ما تمّ التوصل إليه من نتائج.

وقد بنيت الدراسة معتمدة على المنهج التكاملي، فقامت على جمع نماذج من الأشعار التي تناولت شيمة الشجاعة في العصر العباسي من مصادرها المتنوعة، ثم وصفها وتحليلها، ودراستها دراسة موضوعية، تتكئ على التاريخ وأحداثه ذات الصلة بالحركة الشعرية في العصر العباسي.

وأمّا مصادر الدراسة، فقد تعدّدت بتعدّد الموضوعات التي ضمّتها، فاعتمدت على الدواوين الشعرية وبعض المجموعات الأدبية في الحصول على النماذج، ومن هذه المجموعات كتاب الأغاني للأصفهاني، وأخذت من أمهات كتب الأدب والتاريخ، ومنها على سبيل المثال: بيتيمة الدهر للثعالبي، والموازنة للأمدي، وعيون الأخبار لابن قتيبة، والتشبيهات لابن أبي عون، وزهر الآداب للحصري، والعمدة لابن رشيق، وأسرار البلاغة للجرجاني، والمثل السائر لابن الأثير، ووفيات الأعيان لابن خلكان.

وأخذت من كتب المحدثين، ومنها على سبيل المثال: العصر العباسي الأول، والعصر العباسي الثاني لشوقي ضيف، والشعر العربي بين الجمود والتطور للكفراوي، والشعراء المحدثون في العصر العباسي للعربي حسن درويش، وشعر المتنبي قراءة أخرى لمحمد أحمد فتوح.

وأخيراً، أسأل الله العليّ القدير أنْ أكون قد وفّقت في إتمام هذه الدراسة، وأنْ تكون خالصة لوجهه تعالى، فينتفع بها كلّ قارئ، فإنْ أصبت فالفضل لله، وإنْ أخطأت فحسبي أنني حاولت.

التمهيد

واجه الشعراء في العصر العباسي محنة فاقت مَنْ كان قبلهم؛ "لأنهم قد سبقوا إلى كلِّ معنَى بديع، ولفظ فصيح، وحيلة لطيفة وخلاصة وساحرة. فإنْ أتوا بما يَقْصُر عن معاني أولئك، ولم يربى عليها، لم يَنْتَلِجْ بالقبول، وكان بالمطرح المملول"¹ ولذلك نجد أنَّ المعاني تكثر كلما تقدَّم العصر؛ لأنَّ المعاني لا تقف عند حدٍّ، بل "تتردَّد وتتولَّد، والكلام يفتح بعضه بعضاً"² وهذا ما جعل الشاعر بحاجة إلى توليد المعاني واختراعها، أو التصرف في معاني السابقين، واستخدامها في وجوه عدَّة، ليستحقَّ أنْ يُطلَقَ عليه اسم الشاعر حقيقة لا مجازاً³، فهو يستخدم كلَّ طاقات اللِّغة وألوان البديع من تشبيهات، واستعارات، ومجازات، ويستخدم ما في مخيلته من المعاني القديمة والحديثة؛ ليجرِّد منها ما يريد من الصُّور والمعاني.

وقد تحدَّث ابن طباطبا عن كيفية استحضار الشاعر معانيه، ونظَّمها في قصيدة، فقال: "فإذا أراد الشاعر بناء قصيدته محض المعنى الذي يريد بناء شعره عليه نثرًا، وأعدَّ له ما يُلبسه من الألفاظ التي تُطابقه، والقوافي التي توافقه، والوزن الذي يَسْلُسُّ له القول عليه"⁴، ثم تأتي مرحلة التأمل بعد الفراغ من الكتابه لكلِّ ما أنتجه فكره "يستقصي انتقاده ويرمِّ ما وهى منه"⁵.

وللشاعر - كما يقول حازم القرطاجني - أربعة مواطن للبحث: الأول قبل الشروع في النظم، وهذا يعتمد على قوَّة التخيل، والثاني في حالة الشروع، وهو يعتمد على القوَّة الناظمة واللغة وحسن التصرف، والثالث عند الفراغ، والاعتماد فيه على قوة الملاحظة، وهذا يحتاج إلى حفظ اللغة وحسن التصرف والبصيرة، والرابع بعد فترة من الزمن، ويتم فيه البحث عن معانٍ

¹ ابن طباطبا، محمد بن أحمد العلوي: عيار الشعر، تحقيق عباس عبد الساتر، ط1، دار الكتب العلمية، 1982، ص15.

² ابن رشيق، أبو علي الحسن القيرواني: العمدة في محاسن الشعر، وآدابه ونقده، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، ط5، دار الجليل، 1981، ص 238.

³ نفسه، ص116.

⁴ ابن طباطبا العلوي: عيار الشعر، ص11.

⁵ نفسه، ص11.

جديدة لتكتمل فيه المعاني الموجودة في القصيدة، وهذا يعتمد على القوة المستقصية التي تحتاج حفظ المعاني وضروب المعارف¹.

وكلام ابن طباطبا، وحازم القرطاجني السابق يقودنا إلى خصيصة فنية من الخصائص التي انماز بها الشعر في العصر العباسي، وهي ظاهرة استقصاء المعاني.

والاستقصاء كما يعرفه ابن الأثير "هو أن يتناول الشاعر المعنى، فلا يترك فيه شيئاً يُقال إنه يحتاج إليه². وهو تقلاب المعنى وتصريفه إلى كل وجه وناحية، فلا يبقى فيه مطمع لأحد³ "ولا يُترك لأخذه مجالاً لاستحقاقه"⁴. يقول بشار بن برد عندما سُئل عن سبب تفوقه على أبناء عصره في حسن معاني الشعر، وتهذيب ألفاظه: "لم أقبل كل ما تورده عليّ قريحتي، ويناجيني به طبعي، ويبعثه فكري، ونظرت إلى مفارس الفطن، ومعادن الحقائق، ولطائف التشبيهات، فسرتُ إليها بفكر جيد، وغريزة قوية، فأحكمت سبرها، وانقبتُ حرّها، وكشفتُ عن حقائقها، واحترزت عن متكفّفها"⁵.

فقول بشار يشير إلى أن الشعراء في عصره لم يعتمدوا الطبع وحده في شعرهم، وإنما يُعملون فكرهم في اختيار المعاني وإحكامها، بحيث تخرج المعاني بجهاتها وجزئياتها جميعها. ولكنهم يتفاوتون في مقدار البسط والتفصيل في المعاني، ولهذا نجد حازم القرطاجني يصنف الشعراء في مقدرتهم على الاستقصاء ثلاث طبقات "منهم من يستقصي معاني الجهة إذا شاء، ومنهم من لا يبلغ إلى الاستقصاء، ويأتي من ذلك بمقدار كافٍ، ومنهم من يُقصر عن هذا المقدار

¹ القرطاجني، أبو الحسن حازم: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجا، ط3، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1986، ص214.

² ابن الأثير، نجم الدين أحمد بن إسماعيل: جوهر الكنز، تحقيق محمد زغول سلام، منشأة المعارف، الإسكندرية، د.ت، ص223. ابن أبي الإصبع المصري: تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، تحقيق حفي محمد شرف، لجنة إحياء التراث الإسلامي، د.ت، ص540.

³ ابن رشيق: العمدة في محاسن الشعر، ص238.

⁴ ابن أبي الإصبع: تحرير التحبير، ص453.

⁵ نفسه، ص239.

الكافي¹. فأبو تمام مثلاً لا يطيل في المعنى، بل يعرضه عرضاً متوسطاً، ولا يسرف في ذلك؛ لأنه يحترم القارئ، ويرى أنه يملك عقلاً يمكنه من إتمام ما لم يُتمّه هو تماماً حسناً. وأما ابن الرومي فهو يغوص في المعنى ويجد في طلبه، حتى يبلغ المعنى الجيد، فإذا ظفر به ساء ظنه بالناس في الأدب، كما يسوء ظنه بهم في الحياة، فهو يرى أنّ الناس لا يملكون ذكاء يجعله يطمئن إليهم في فهم المعنى.² انظر إلى ابن الرومي وهو يعاتب صديقه أبا القاسم، كيف يستقصي المعاني ولا يوجز، ويسرف في التفصيل، فيقول³:

يا أخي هَبْكَ لم تَهَبْ لي من سَعَا — يَكْ حَظًّا كَسَائِرِ البُخْلَاءِ
أَفْلا كان مِنْكَ رَدًّا جَمِيلٌ — فِيهِ لِلنَّفْسِ راحَةً مِنْ عِنا
أَجْزاء الصَّدِيقِ إبْطاؤُهُ العَشْءُ — وَوَةَ حَتَّى يَظَلَّ كالعَشْءِواءِ
تارِكًا سَعِيَهُ اتِّكالا على سَعَا — يَكْ دون الصَّحابِ الشُّفَعاءِ
كالَّذي غَرَّهُ السَّرابُ بِما خِيَّ — لَ حَتَّى هِراقُ ما في السَّقاءِ

فابن الرومي في هذه الأبيات يقول لصاحبه: إذا لم تُردِ السَّعيَ في حاجتي، فليكن ردُّكَ جميلاً لأطمئنَّ إلى هذا الجواب. وهذا المعنى قد استوفاه ابن الرومي في البيتين الأول والثاني، وأما بقية الأبيات فهي زيادة في التفصيل والاستقصاء.

ولكنَّ الشاعر مهما بلغ في استقصائه المعنى، فإنَّه قد يأتي شاعر بعده، لا يصل إلى مرتبته ومكانته، فيأخذ المعنى نفسه ويأتي فيه بزيادة، أو يوجِّهه وجهة حسنة، وهذا لأنَّ الإنسان مبنيٌّ على النقصان.⁴

ومن الأمثلة على الاستقصاء قول بشر بن برد في معاتبته الصديق⁵:

إذا كُنْتَ في كلِّ الذُّنوبِ مُعَاتِبًا — صَدِيقَكَ لَمْ تَلَقَ الَّذِي لا تُعَاتِبُهُ

¹ حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص 218.

² الفاخوري، حنا: الفخر والحماسة، ط5، القاهرة، دار المعارف، 1992، ص137.

³ ابن الرومي: الديوان، شرح أحمد حسن بسج، ط3، بيروت، دار الكتب العلمية، 2002، ج1، ص23.

⁴ ابن رشيق: العمدة في محاسن الشعر، ص 238.

⁵ ابن برد، بشر: الديوان، تحقيق وشرح محمد الطاهر بن عاشور، وزارة الثقافة الجزائرية، 2007، ج3، ص326.

فَعِشْ وَاحِدًا أَوْ صِلْ أَخَاكَ فَإِنَّهُ مُفَارِقُ ذَنْبٍ مَرَّةً وَمُجَانِبُهُ
إِذَا أَنْتَ لَمْ تَشْرَبْ مِرَارًا عَلَى الْقَذَى¹ ظَمِئْتَ وَأَيُّ النَّاسِ تَصْفُو مَشَارِبُهُ

إنَّ معاتبتك الصديق في الأمور كلها - كما يقول بشار - لن تترك لك صديقاً لا يستحق العتاب، وهذا يجعلك مضطراً إلى مواجهة أمرين، فإمّا أن تعيش وحيداً وترضى بالوحدة، وإمّا أن تصل صديقك الذي يخطئ ويصيب، وليثبت المعنى ويقنع به السامع، ويزيل عنه الشك، قدّم له دليلاً منطقياً من واقع الحياة، فالماء لا يصفو دائماً، وشربه على ما فيه من القذى ضرورة لا غناء عنها، وهذا حال الصديق، فهو لا يخلو من الهفوات، ولا بدّ أن تغفر له هذه الزلات؛ لتحتفظ به. وهنا نرى أنّ بشاراً قد فصل في المعنى وتعمّق فيه، وهذا يجعل السامع يقتنع برأيه وحقته. ويعلق الكفراوي على البيت الأخير قائلاً: "والبيت الأخير من أبيات بشار يجعل الإخوان كالماء، يصفو تارة ويكدر أخرى، فإذا كنا نتقبل هذا الوضع في مشاربنا، ونسامح فيه إبقاء على حياتنا، فلماذا لا نفعل مثل ذلك بالإخوان أيضاً فنقبلهم على علاتهم"²، ويرى الكفراوي أن هذا التعليل فيه الكثير من المغالطة؛ لأنّ الصلة بين الماء والأصدقاء غير موجودة³. وهذا القول يحتاج إلى إعادة النظر فيه؛ لأنّ ابن الرومي قصد من وراء هذا التعليل توضيح أهميّة الصحبة للإنسان، فهي موازية لأهميّة الماء، ولم يقصد تشبيه الصديق بالماء.

ويقول ابن الرومي في وصفه حديث المحبوبة:⁴

وَحَدِيثُهَا السَّحْرُ الْحَالُّ لَوْ أَنَّهُ لَمْ يَجِنِ قَتْلَ الْمُسْلِمِ الْمُتَحَرِّرِ
إِنْ طَالَ لَمْ يُمَلِّمْ وَإِنْ أَوْجَزَتْ وَدَّ الْمُحَدَّثُ أَنَّهُ لَمْ تُوَجِّزْ
شَرَكُ الْعُقُولِ وَنَزْهَةٌ مَا مِثْلُهَا لِلْمُطْمَئِنِّ وَعُقَاةُ الْمُسْتَوْفِرِ⁵

يصف ابن الرومي في الأبيات السابقة حديث المحبوبة، فهو سحر، ولكنه السحر الحلال؛ لأنه يسحر العقول، وهذا ما جعل وصفه صادقاً، فهو في هذا المعنى يُضَمَّن حديث

¹ القذى: ما علا الشراب من شيء يسقط فيه. ينظر لسان العرب مادة (قذي).

² الكفراوي، محمد عبد العزيز: الشعر العربي بين الجمود والتطور، نهضة مصر للطباعة والنشر، د.ت، ص 175.

³ نفسه، ص 175

⁴ ابن الرومي: الديوان، ج 2، ص 183.

⁵ المستوفز: المتعجل الذي يجلس جلسة غير مطمئنة. لسان العرب مادة (وفز)

الرَّسُولَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لِسِحْرًا"¹. فجعل ابن الرومي حديث المحبوبة سِحْرًا سِحْرًا حلالاً لو أنه لم يجن قتل المسلم الذي لم يفعل ما يوجب عليه القتل. ثم فكَّر في المثل الذي يحصل بسبب طول الحديث فقال: (إِنْ طَالَ لَمْ يُمَلِّ)، ولم يُغْفَل حُسْنُهُ فِي حَالَةِ الْإِجَازِ؛ خَوْفًا مِنَ التَّقْصِيرِ فَقَالَ: (وَإِنْ هِيَ أَوْجَزَتْ وَدَّ الْمُحَدِّثُ أَنَّهَا لَمْ تُوجَزْ)، ثم بيَّن أَنَّ مِيلَ النُّفُوسِ إِلَى هَذَا الْحَدِيثِ قَدْ يَكُونُ اضْطِرَارًا أَوْ اخْتِيَارًا، فَقَالَ فِي الْمِيلِ الْاضْطِرَارِيِّ (شَرَكُ الْعُقُولِ)، وَأَمَّا الْمِيلُ الْاخْتِيَارِيُّ فِي حَالَتِي الرَّيِّثِ وَالْعَجَلِ فَقَالَ: (وَنَزْهَةٌ مَا مِثْلُهَا لِلْمَطْمَئِنِّ وَعُقْلَةٌ الْمُسْتَوْفِزِ) وَهَذَا حَالٌ مِنْ يَخْتَارُ، فِيمَا أَنْ يَكُونُ مَطْمَئِنًّا أَوْ عَلَى عَجَلَةٍ مِنْ أَمْرِهِ. وَيُمْكِنُ الْقَوْلُ إِنَّ ابْنَ الرَّومِيِّ لَمْ يَتْرَكَ فِي هَذَا الْمَعْنَى مَقَالًا لِمَنْ بَعْدَهُ، فَقَدْ أَحْسَنَ فِي تَفْصِيلِهِ وَاسْتِقْصَائِهِ؛ لِأَنَّهُ اسْتَوْعَبَ كُلَّ مَا تَقَعُ عَلَيْهِ الْخَوَاطِرُ².

وَمِنَ الْاسْتِقْصَاءِ قَوْلُ أَبِي نَوَاسٍ يَصِفُ الْبَازِيَّ:³

كَأَنَّ عَيْنَهُ إِذَا مَا أَتَارَا فَصَانَ قِيضًا مِنْ عَقِيْقٍ أَحْمَرَا
فِي هَامَةٍ غَلْبَاءَ تَهْدِي مَنْسِرَا كَعَطْفَةِ الْجِيمِ بِكَفٍّ أَعْسِرَا
يَقُولُ مَنْ فِيهَا بِعَقْلٍ فَكَّرَا لَوْ زَادَهَا عَيْنًا إِلَى فَاءِ وِرَا
فَاتَّصَلَتْ بِالْجِيمِ صَارَتْ جَعْفَرَا

إِنَّ أَبَا نَوَاسٍ فِي هَذِهِ الْأَبْيَاتِ يَشْبَهُهُ الْمِنْقَارُ بِالْجِيمِ، وَلِأَنَّ الْجِيمَ مَكُونَةٌ مِنْ خَطِّينِ: الْأَعْلَى وَالْأَسْفَلَ، وَالْمِنْقَارُ يُشْبَهُهُ الْخَطُّ الْأَعْلَى، فَقَدْ ذَكَرَ عَطْفَةَ الْجِيمِ وَلَمْ يَقُلِ الْجِيمِ، وَأَضَافَ: أَنَّهَا بِكَفٍّ أَعْسِرَ؛ لِأَنَّ جِيمَ الْأَعْسِرِ أَشْبَهُهُ بِالْمِنْقَارِ مِنْ جِيمِ الْأَيْمَنِ، ثُمَّ عَرَضَ مَا يُثَبِّتُ أَنََّّهُ يَقْصِدُ الْخَطَّ الْأَعْلَى لِلْجِيمِ وَلَيْسَ الْأَسْفَلَ فَقَالَ: (لَوْ زَادَهَا عَيْنًا إِلَى فَاءِ وِرَا فَاتَّصَلَتْ الْجِيمُ) وَالْوَصْلُ لِلْجِيمِ يَزِيلُ التَّعْرِيقَ، وَهَذَا مِنْ فِرْطِ الْاسْتِقْصَاءِ⁴.

¹ العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر: فتح الباري في شرح صحيح البخاري، تحقيق قصي محب الدين الخطيب، دار الريان للتراث، 1986، ج3، ص5767.

² ابن أبي الاصبغ: تحرير التحبير، ص541/540.

³ أبو نواس، الحسن بن هانئ الحكمي: الديوان، تحقيق ايفالد فاغنر، برلين، دار الكتاب العربي، 1972، ج2، ص207.

⁴ الجرجاني، عبد القاهر: أسرار البلاغة، ص179.

ومن أبلغ الاستقصاء وعجيبه – كما يقول الجرجاني –¹ قول ابن المعتز:²

كَأَنَّ وَضَوْءَ الصُّبْحِ يَسْتَعْجِلُ الدُّجَى يُطَيِّرُ غُرَابًا ذَا قَوَائِمٍ³ جُونٍ⁴

يصف ابن المعتز في هذا البيت الليل عندما يظهر فيه ضوء الصبح، فاختار لذلك صورة غراب قوادمه بيض، ثم جعل الصبح لقوة دفعه ظلام الليل وكأنه يريد من الدجى الاستعجال، ولا يرضي التمهّل ولذلك قال (يُطَيِّرُ غُرَابًا) ولم يقل (غراب يطير) لأنّ الطائر إذا أُزْعِجَ كان أسرع في الطيران وأعجل، فيستمرّ في الطيران إلى أن يغيب عن الأنظار، ولكنه إذا طار عن اختيار قد يقف في مكان قريب ولا يسرع في طيرانه.⁵

ولعلّ شيوع ظاهرة الاستقصاء عند الشعراء العباسيين كانت نتيجة لأمر جديدة طرأت على ذلك العصر، ومن هذه الظواهر دخول الموالي من الفرس وغيرهم في الحياة العربية، إضافة إلى تحضر العرب، وهذا أدّى إلى النهوض بحياة عقلية وأدبية خصبة، كانت ثمرة امتزاج الثقافات الفارسية، واليونانية، والهندية بالثقافة العربية. ونتيجة لذلك تغيّر النقد وتطور في ظلّ هذه الحياة الجديدة، وبذلك لم يُحْكَمَ على الشعر بالطبيعة العربية وحدها، وإنما انضمت إليها الثقافات الأخرى التي أثّرت على عقليتهم.⁶ وهذا يعني أنّ تذوق الشعر اختلف عن العصور العصور السابقة، فلم تعد المعاني القديمة صالحة لهذا العصر، فصار الشعراء يحاولون إرضاء ذوق النقد الجديد، أضف إلى ذلك أنّ الخلفاء ومن يحيط بهم صاروا يملكون حسّاً نقدياً، ممّا دفع

¹ الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن: أسرار البلاغة، قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر، جدة، دار المدني، د.ت، ص177.

² ابن المعتز، عبدالله بن محمد: الديوان، تحقيق محمد بدیع شریف، القاهرة، دار المعارف، د.ت، ج2، ص314. الجرجاني، عبد القاهر: اسرار البلاغة، ص177. وفيه (نُطَيِّرُ).

³ قوادم الطير: عشر ريشات في مقدمة الجناح. لسان العرب مادة (جون).

⁴ الجون اللون الأسود المائل إلى الحمرة أو اللون الأبيض وهو من الأضداد. لسان العرب مادة (جون) والشاعر قصد اللون الأبيض.

⁵ الجرجاني، عبد القاهر: أسرار البلاغة، ص177، 178.

⁶ ضيف، شوقي: النقد، ط5، القاهرة، دار المعرفة، د.ت، ص40.

الشعراء لتحسين معانيهم لتفادي هذه الألسن. وما يؤكد ذلك قول أبي تمام في مدح أحمد بن المعتصم:¹

إِقْدَامُ عَمْرٍو فِي سَمَاحَةِ حَاتِمٍ فِي حِلْمٍ أَحْتَفَ فِي نِكَاءِ إِيَّاسِ

فاعترض أبو يوسف يعقوب بن اسحاق الكندي على قول أبي تمام قائلاً: "ما صنعت شيئاً، شبّهت ابن أمير المؤمنين بصعاليك العرب، وَمَنْ هُوَ لَاءَ الَّذِينَ ذَكَرْتَ؟"² وهذا القول دفع أبا تمام إلى التفكير قليلاً؛ ليأتي بما يسكت الكندي فيقول:³

لَا تُتَكَبَّرُوا ضَرْبِي لَهُ مَنْ دُونَهُ مَثَلًا شَرُودًا فِي النَّدى وَالْبَاسِ
فَاللَّهُ قَدْ ضَرَبَ الْأَقْلَّ لِنُورِهِ مَثَلًا مِنَ الْمَشْكَاةِ وَالنَّبْرَاسِ

وهذان البيتان دفعا الكندي إلى القول: "هذا الفتى قليل العمر لأنه ينحت من قلبه".⁴

وأمر آخر كان له دور في شيوع ظاهرة الاستقصاء، وهو إكثار الشعراء من شعر المدح، واحتشادهم حول الملوك والأمراء، لإرضاء نزعة العظمة والكبرياء لديهم، فصار الشعراء مغالين في المعاني، مسرفين في ذلك الغلو، فكانت المدائح تتميز بمقدرة الشاعر على إصابة المعنى و الإلمام به، والتهويل في الوصف ليصل حد المبالغة. فصار الشعراء كما يقول المعري: "كأفراس تتابعن في مدى، ما قصر منها سبق، وما وقف ليم ولحق".⁵ وما يؤكد ذلك أن مروان بن أبي حفصة، حاول مدح الملوك العباسيين بعد وفاة معن بن زائدة، فلم يفلح أول الأمر؛ لإفراطه في مدح معن بن زائدة والبكاء عليه، فظنّ العباسيون أنه لم يعد عنده جديد لمدحهم بما يتناسب مع مكانتهم التي علو عاملهم ابن زائدة، فلما دخل على المهدي بعد وفاة معن بن زائدة مع جماعة من الشعراء ليمدحه، قال له المهدي "ألست القائل:

¹ أبو تمام: الديوان، ج 1، ص 23.

² ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد: وفيات الأعيان وأنباء أبناء أهل الزمان، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار صادر، د.ت، ج 2، ص 15.

³ أبو تمام: الديوان، شرح الخطيب التبريزي، تحقيق، محمد عبده عزام، ط 4، القاهرة، دار المعارف، ج 1، ص 23.

⁴ ابن رشيق: العمدة في محاسن الشعر، ص 192.

⁵ المعري، أبو العلاء: سقط الزند، بيروت، دار صادر، 1986، ص 10.

أَفَمَّا بِالْإِمَامَةِ بَعْدَ مَعْنٍ مَقَامًا لَا نُرِيدُ بِهِ زَوَالًا
وَقُلْنَا أَيْنَ نَرْحَلُ بَعْدَ مَعْنٍ وَقَدْ ذَهَبَ النَّوَالُ فَلَا نَوَالًا

فقد ذهب النّوال فيما زعمت فلم جئت تطلب نوالنا؟ لا شيء لك عندنا".¹ فاجتهد مروان، وحاول أن يأتي بما يُرضي العباسيين، فوصل إلى قلوبهم وعقولهم من باب أحقيتهم بالخلافه، فقال:²

هَلْ تَطْمِسُونَ مِنَ السَّمَاءِ نُجُومَهَا بِأَكْفُكُمُ أَوْ تَسْتُرُونَ هِلَالَهَا
أَوْ تَجْحَدُونَ مَقَالََةَ عَن رِبِّكُمْ جَبْرِيْلُ بَلَّغَهَا النَّبِيَّ فَقَالَهَا
شَهِدَتْ مِنَ الْأَنْفَالِ آخِرُ آيَةٍ بِتُرَاتِهِمْ فَأَرَدْتُمْ إِبْطَالَهَا

وقد اعتمد في البيت الأخير على قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾³. وقد أعجب المهدي بما سمع، حتى زحف من صدر مُصلّاه حتى صار على البساط⁴. ونرى أن علي بن الجهم أيضا استخدم هذا المعنى في مدحه العباسيين فقال:⁵

لَأَنْتُمْ يَا بَنِي الْعَبَّاسِ أَوْلَى بِمِيرَاثِ النَّبِيِّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ
تُجَادِلُ سُورَةَ الْأَنْفَالِ عَنْكُمْ وَفِيهَا مَقْنَعٌ لِذَوِي الْخِصَامِ

ومن أهم الأسباب التي أثرت في ظهور الاستقصاء عند الشعراء في العصر العباسي التأثير بالفلسفة والمنطق اليونانيين، وقد تحدّث كثير من الأدباء عن أثر الفلسفة والمنطق اليونانيين على عقول الشعراء، وانعكاس ذلك على أشعارهم، فشوقي ضيف يرى أن الفلسفة والمنطق جعلوا الشعراء يحاولون استكشاف دفائن المعاني، واستخراج دقائقها باستخدام الفكر الفلسفي، وأبواب المنطق ومقاييسه وأدلّته⁶. فالفلسفة نظمت عقول الشعراء نظماً دقيقاً، وجعلتهم

¹ الأصفهاني، أبو الفرج: الأغاني، تحقيق سمير جابر، ط2، بيروت دار الفكر، د.ت، ج10، ص87.

² نفسه ص87.

³ سورة الأنفال، الآية (75).

⁴ الأصفهاني: الأغاني، ج10، ص88.

⁵ ابن الجهم، علي: الديوان، تحقيق خليل مردم بك، ط2، بيروت، دار الآفاق الجديدة، 1980، ص11.

⁶ ضيف، شوقي: العصر العباسي الأول، ط1، القاهرة، دار المعارف، د.ت، ص150.

يحسنون استنباط الآراء وخصائص الأشياء، ومكنتهم من إيراد الحجج والبراهين، والتماس العلل، وتشعيب المعاني وتفريعها¹. وفي الحديث عن تعمق الشعراء في المعاني واستيفائها واستقصائها الذي يصل إلى حدّ المبالغة يقول شوقي ضيف: "لقد أصبح العقل العربي يتعمق في المعاني حتى يصل إلى قاعها وقرارها، ويستخرج كل ما كان مستورا من لآلئ كانت خافية عن الأنظار، بل إنَّ الشاعِر يغوص في مسارب المعاني فيطَّلِع على شُعب لا تكاد تُحصَى، وهما جانبان: جانب التَّشعيب والتفريع، وجانب الكشف والاستقصاء حتى يتَّضح المعنى من جميع جوانبه"². وقد كان للنزعة العقلية أثر في إنتاج حجاج عقليٍّ منظمٍّ، معتمدا على الاستدلال والأقيسة، وفيه ميل واضح إلى التحليل والتعليل، واستقصاء المعاني واستنفاد طاقاتها³.

والشعراء المحدثون كانوا يميلون إلى استنباط كل جديد وغريب من المعاني، ولكنَّ السامعين كانوا يستنكرون ذلك، فيضطر الشعراء إلى سوق دليل على صحة قولهم؛ لإقناع السامع⁴، فيلتمسون أوهى الأسباب لتمكين ما يقولون في نفوس سامعيهم⁵. وما يؤكد ذلك قول ابن الرومي في رثاء زوجته⁶:

عَيْنِي شُحًا وَلَا تَسُحًا	جَلَّ مُصَابِي عَنِ الْبُكَاءِ
تَرَكُّمًا الدَّاءَ مُسْتَكِنًا	أَصْدَقُ عَنِ صِحَّةِ الْوَفَاءِ
إِنَّ الْأَسَى وَالْبُكَاءَ قِدْمًا	أَمْرَانِ كَالدَّاءِ وَالِدَوَاءِ
وَمُبْتَغِي الْعَيْشِ بَعْدَ خِلِّ	كَاذِبُهُ خُلَّةُ الصَّفَاءِ
وَمَا ابْتِغَاءُ الدَّوَاءِ إِلَّا	بُغْيَا سَبِيلٍ إِلَى الْبَقَاءِ

¹ ضيف، شوقي: البلاغة تطور وتاريخ، ط9، القاهرة، دار المعارف، د.ت، ص35.

² ضيف، شوقي: العصر العباسي الثاني، ط12، القاهرة، دار المعارف، 2001، ص199.

³ أبو شوارب، محمد مصطفى: شعرية التفاوت مدخل لقراءة الشعر العباسي، ط2، دار الوفاء لنديا الطباعة والنشر، د.ت، ص72.

⁴ الكفراوي، محمد عبد العزيز: الشعر العربي بين الجمود والتطور، القاهرة، نهضة مصر للطباعة والنشر، د.ت، ص172.

⁵ نفسه، ص176.

⁶ ابن الرومي: الديوان، ج1، ص37.

يبدأ ابن الرومي بِحَثِّ عَيْنَيْهِ عَلَى عَدَمِ الْبِكَاءِ، عَلَى عَكْسِ مَا فَعَلَتِ الْخَنَسَاءُ فِي رِثَاءِ
أَخِيهَا صَخْرَ بِقَوْلِهَا:¹

أَعْيَيْي جُودًا وَلَا تَجَمَّدا أَلَا تَبْكِيَانِ لِصَخْرِ النَّدَى

فقول الخنساء هو الأمر الطبيعي، والفطري في الإنسان عندما يفقد شخصا عزيزاً، ولكن ما جاء به ابن الرومي مخالف لهذه الفطرة، فأراد أن يُثَبِّتَ صِدْقَ قَوْلِهِ، وَذَلِكَ بِتَعْلِيلٍ مَنْطِقِيٍّ يُبَيِّنُ تَرْكَ الْبِكَاءِ، فابن الرومي "كان مشغولاً بهذا الجانب في فنّه، حتى إنه لا يتركه في أخرج المواقف وهو رثاء امرأته"²، وحثه في ترك البكاء هو أن ترك الحزن في النفس أصدق في الوفاء، فالبكاء دواء الحزن، و تركه يهلك النفس، فمن طلب الدواء أراد البقاء بعد خلّه، وهذا يجعله غير صادق في وفائه له. وهذا تحليل مقنع للعقل؛ لأنّ الحزن إذا اشتدّ وجاوز الحد، يمنع المحزون من البكاء. ولكنّ هذا فيه إبعاد للتأثير العاطفي الذي يتأجج في مثل هذا الموقف، الأمر الذي دفع ركان الصفدي إلى التشكيك في أن يكون زواج ابن الرومي سعيداً؛ لأنّ رثاءه لها عند موتها يفتقد العاطفة المتأججة ويطغى عليه العقل"³. وهذا لا يمكن أن يكون دليلاً على أن زواجه لم يكن سعيداً؛ لأننا نجد في قصيدة أخرى يرثي زوجته حائناً عينيه على البكاء بالدمع الغزير يقول:⁴

عَيْي جُودًا عَلَى حَبِيبِكُما بِالسَّجْلِ فَالسَّجْلِ مِنْ صَبِيبِكُما
لَا تَجَمَّدا لَاتَ حِينِ مَعْدِرَةَ مَا لَمْ تَذُوبَا لِمُسْتَذِيبِكُما

فابن الرومي نفسه يبدو غير مقتنع بتعليله السابق الذي يدعو إلى عدم البكاء، وإغفال المشاعر.

ومن استقصاء ابن الرومي، وتفصيله المعاني هجائه لعمره يقول ابن الرومي:⁵

¹ الخنساء: الديوان، تحقيق إبراهيم عوضين، ط1، القاهرة، مطبعة السعادة، 1985، ص31.
² آباد مرضية: مظاهر الفكر في شعر ابن الرومي، مجلة اللغة العربية وآدابها، عدد3، 1434-1435هـ، ص85.
³ الصفدي، ركان: ابن الرومي الشاعر المجدد، دمشق، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، 2012، ص15.
⁴ ابن الرومي: الديوان، ج3، ص233.
⁵ نفسه، ج3، ص39.

وَجْهَكَ يَا عَمْرُو فِيهِ طَوْلُ وَفِي وَجْهِهِ الْكِلَابِ طَوْلُ
 فَأَيْنَ مِنْكَ الْحَيَاءُ قُلْ لِي يَا كَلْبُ وَالْكَأْبُ لَا يَقُولُ
 وَالْكَأْبُ مِنْ شَأْنِهِ التَّعَدِّي وَالْكَأْبُ مِنْ شَأْنِهِ الْغُلُولُ
 مَقَابِحُ الْكَلْبِ فِيكَ طَرًّا يَزُولُ عَنْهَا وَلَا تَزُولُ
 وَفِيهِ أَشْيَاءٌ صَالِحَاتٌ حَمَاكُهُمَا اللَّهُ وَالرَّسُولُ
 فِيهِ هَرِيرٌ وَفِيهِ نَبْجٌ وَحَظُّهُ الْبُذْلُ وَالْخُمُولُ
 وَالْكَأْبُ وَافٍ وَفِيكَ غَدْرٌ فَفِيكَ عَنِ قَدْرِهِ سُفُولُ
 وَقَدْ يُحَامِي عَنِ الْمَوَاشِي وَمَا تُحَامِي وَلَا تَصُولُ
 وَأَنْتَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ سَوْءٍ قِصَّةُ تَهُمٌ قِصَّةٌ تَطُولُ

فوجه عمرو طويل مثل وجوه الكلاب، وهذا المطلع فكرة عامة تحتاج إلى برهان، ولكنه بعد ذلك يصرح أن عمراً كلب، فذكر الصفات القبيحة الموجودة في الكلب وأثبتها في عمرو، فالكلب قد يترك هذه الصفات ولكن عمراً لا يتركها، ولا يتخلّى عنها، ويبعد عنه الصفات الحسنة الموجودة في الكلب، وهنا يفضل ابن الرومي الكلب على عمرو؛ لأنّ الكلب يفي وعمرو يغدر، والكلب يحامي عن المواشي، وعمرو خامل كسول. ونلاحظ أنّ أبيات القصيدة تتلاحق لتبرهن وتقرّر، أو تحقق الفكرة التي أطلقها في المطلع.¹ فابن الرومي كان في هجائه تصاعدياً لأنّ كلّ بيت يسمو على البيت الذي قبله، وهذا يتّضح من خلال قراءة الأبيات، فوجه عمرو في البداية يشبه وجه الكلب، إلّا أنّ الكلب يسمو ويرتفع بفضائله، وعمرو ينحط بنقائصه، فارتفاع الأول يُمهّد لانهيار الثاني.²

إنّ سمة استقصاء المعاني لم ترُقْ لكثير من دارسي البلاغة القدماء، فالأمدي يقول: "والمطبوعون وأهل العلم لا يكون الفضل عندهم من جهة استقصاء المعاني، والإغراق في الوصف، وإنما يكون الفضل عندهم في الإمام بالمعاني، وأخذ العفو منها، كما كانت الأوائل

¹ الحاوي، إيليا سليم: ابن الرومي فنه ونفسيته من خلال شعره، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1959، ص 47.

² نفسه، ص 48.

تفعل، مع جودة السبك وقرب المآتي".¹ والآمدّي بكلامه السابق يؤكد ابتعاد قدامى الشعراء عن استقصاء المعاني واهتمامهم بالمعنى والإلمام فيه.² وقد أعابوا على ابن الرومي هذه السمة، وأكدوا أنّ فيها ضعفا. ورد في كتاب (المصون في الأدب) للعسكريّ في قول ابن الرومي:³

أَبْصَرْتُهُ وَالكَأْسُ فِي فَمِهِ مِنْهُ وَبَيْنَ أَنْامِلِ خَمْسِ
فَإِنَّهَا وَكَأَنَّ شَارِبَهَا فَمَرٌّ يُقْبَلُ عَارِضَ الشَّمْسِ

"قال أبو بكر محمد بن يحيى قد أحسن وملك، إلا أنه جاء بالمعنى في بيتين، واقتضى البيت الأول دينا على البيت الثاني، وخير الشعر ما قام بنفسه وكمل معناه في بيته".⁴

والحاتمي في رسالته الموضحة يعقد مقارنة بين قول أبي تمام:⁵

إِذَا مَا أَغَارُوا فَاحْتَوُوا مَالَ مَعْشَرٍ أَغَارَتْ عَلَيْهِمْ فَاحْتَوَتْهُمْ الصَّنَائِعُ
وقول ابن الرومي:⁶

وَمَا فِي الْأَرْضِ أَجْوَدُ مِنْ شُجَاعٍ وَإِنْ أُعْطِيَ الْقَلِيلَ مِنَ النَّوَالِ
وَذَلِكَ أَنَّهُ يُعْطِيكَ مِمَّا تَفِيءُ عَلَيْهِ أَطْرَافُ الْعَوَالِي
وَحَسْبُكَ جُودًا مَنْ أَعْطَاكَ مَالًا حَوَاهُ بِالْأَطْرَادِ وَبِالنَّزَالِ
شَرَى دَمَهُ لِيَحْوِيَهُ فَلَمَّا حَوَاهُ حَوَاهُ بِهِ حَمْدَ الرَّجَالِ

والحاتمي يرى أنّ علة الاستقصاء في أبيات ابن الرومي هي الوحدة العضوية التي تجعل أبيات القصيدة يقتضي بعضها بعضا يقول: "فتأمل اختصار أبي تمام لهذا المعنى، وحسن

¹ الأمدي، أبو القاسم الحسن بن بشر: الموازنة بين شعر أبي تمام والبحثري، تحقيق السيد أحمد صقر، ط4، القاهرة، دار المعارف، د.ت، ج1، ص525.

² بزويو، أحمد: عمود الشعر النشأة والتطور، مجلة الأثر، العدد 21، ديسمبر 2014، ص64.

³ ابن الرومي الديوان، ج2، ص192

⁴ العسكري، أبو أحمد الحسن بن عبد الله: المصون في الأب، تحقيق عبد السلام هارون، ط2، مطبعة حكومة الكويت، 1984، ص9.

⁵ أبو تمام: الديوان، ج2، ص453

⁶ ابن الرومي: الديوان، ج3، ص99.

عبارته، فتعاطى ابن الرومي أخذه، فلم يستطع استيفاءه إلا في أبيات يقتضي بعضها بعضًا".¹
وهذا مشابه لقول أبي بكر محمد بن يحيى السابق.

وأما حازم القرطاجني فيرى أنّ الاستقصاء "مستحسن في الجهات التي معانيها مع شرفها قليلة، فأما الجهات التي تكثر معانيها وليست كلها شريفة... فإنما يصوغ استقصاؤها في القصائد الطوال كقصائد ابن الرومي، وأما القصائد القصار والمتوسطة فلا يحسن إلا التخطي إلى الأشرف فالأشرف منها، كما وجب التخطي أيضا في المعاني المتناظرات إذا كثرت".²
وحازم القرطاجني يربط الاستقصاء بالقصيدة الطويلة، ولا يرى فيه شكلا من التعبير المرتبط بنمط من التفكير أو الإحساس.³

ولكنّ أدونيس فرّق بين القصيدة الشعرية التي كانت تعتمد على الطبع والبدئية، والقصيدة الكتابية ذات المناخ التأمليّ، وهو يرى أنّ الاستقصاء فرضته الكتابية⁴ لأنّ القصيدة المكتوبة تمرّ بمراحل من ضمنها – كما قال ابن طباطبا العلوي – مرحلة التأمل بعد الفراغ من الكتابة لإتمام المعنى.⁵

وبعد استعراض سمة استقصاء المعاني والأسباب التي دفعت الشعراء العباسيين إلى استخدامها في أشعارهم، وعرض بعض الآراء فيها، سيكون الحديث في الفصلين الأول والثاني حول المعاني التي قيلت في شيمة الشجاعة في العصر العباسي.

¹ الحاتمي، أبو علي محمد ابن الحسن: الرسالة الموضحة في ذكر سرقات أبي الطيب المتنبّي وساقط شعره، تحقيق محمد يوسف نجم، بيروت، دار صادر، 1965، ص 51.

² حازم القرطاجني: منهاج البلاغ وسراج الأدباء، ص 294.

³ الصفدي، ركان: ابن الرومي الشاعر المجدد، ص 128.

⁴ أدونيس: الشعرية العربية، ط1، بيروت، دار الأدب، 1985، ص 30.

⁵ ابن طباطبا: عيار الشعر، ص 11.

الفصل الأول

مظاهر الشجاعة وصور الشجاع في الشعر العباسي

الفصل الأول

مظاهر الشجاعة وصور الشجاع في الشعر العباسي

مظاهر الشجاعة في الشعر العباسي

الشجاعة كما جاء في لسان العرب "شدة القلب في البأس"¹ وهي "الإقدام في موضع الفرصة من جميع الأمور"²، وهي لا تكون "إلا في كل أمر لا يُدرى ما عاقبته، يُخاطَرُ فيه بالأنفس والأموال"³، وحدثها "سعة الصدر بالإقدام على الأمور المتلفة"⁴، ولا تكتمل الفضائل إلا بها؛ لأنها عماد الفضائل كلها، ولا تكون إلا بالصبر وقوة النفس.⁵ روي عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: "الجبن والشجاعة غرائز يضعها الله عزَّ وجلَّ حيث يشاء، فالجبان يفرُّ عن أبيه وولده، والشجاع يقاتل عمَّن لا يبالى أن لا يثوب إلى أهله".⁶

وقد مجَّد الشعراء الشجاعة وأهلها؛ لأنها — كما يقول ابن رشيق — "أفضل ما مُدِحَ به القائد"⁷، وهي أيضا من أفضل ما يرثى به الميت. وفي العصر العباسي أصبحت الشجاعة من المعاني المضخمة التي تعود الشعراء أن ينعثوا بها الممدوحين؛ طمعا في عطاياهم، فاتسع المديح بالشجاعة، والكرم، وشرف الأصل، وأصالة الرأي.⁸

¹ لسان العرب، مادة (شجع).

² التوحيدي، أبو حيان علي بن محمد: الإمتاع والمؤانسة، صححه وطبعه أحمد أمين وأحمد الزين، بيروت، دار مكتبة الحياة، د.ت، ج 3، ص 171.

³ الجاحظ: الرسائل، ص 26.

⁴ النويري، شهاب الدين، أحمد بن عبد الوهاب: نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق مفيد قميحة، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية، 2004، ج3، ص208.

⁵ الأبيشي، أبو الفتح شهاب الدين محمد بن أحمد: المستطرف في كل فنٍّ مستظرف، تحقيق مفيد قميحة، ط2، بيروت، دار الكتب العلمية، 1986، ج 1، ص 462.

⁶ البستي، محمد بن حيان: المجروحين من المحدثين، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي، ط1، دار الصمبغ، 1420هـ — ج2، ص 381. والحديث ضعيف وقد نسبه الحافظ بن أبي الدنيا في كتاب مكارم الأخلاق لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، ينظر ص 731.

⁷ ابن رشيق: العمدة في محاسن الشعر، ص 135.

⁸ فروخ، عمر: تاريخ الأدب العربي الأعصر العباسية، ط1، دار العلم للملايين، 1968، ص 44.

وذكرت الشجاعة في أغراض الشعر الأخرى، ومن ذلك الفخر، سواء أكان فخرا ذاتيا أم فخرا بالقبيلة، كقول بشار:¹

إِذَا مَا غَضِبْنَا غَضِبَةً مُضَرِيَّةً هَتَكْنَا حِجَابَ الشَّمْسِ أَوْ تُمْطِرُ الدَّمَ
وهذا البيت كما يصفه ابن الرشيق "أفخر بيت صنعه محدث"² وهو شعر يثير النقع ويخلع القلوب كما وصفه جلال بن مهراويه³

ونجد أن الشعراء الفرسان الذين شاركوا في المعارك والحروب إلى جانب ممدوحهم قد حثوا على الشجاعة، ونهوا عن الجبن، كما يقول المتنبي:⁴

يَرَى الْجُبْنَاءُ أَنَّ الْعَجْزَ عَقْلٌ وَتِلْكَ خَدِيعَةُ الطَّبَعِ اللَّئِيمِ
وَكُلُّ شَجَاعَةٍ فِي الْمَرءِ تُغْنِي وَلَا مِثْلَ الشَّجَاعَةِ فِي الْكَرِيمِ
فَمَنْ يَرْضَى حَيَاةَ الذَّلِّ وَالْهَوَانَ لَا حَاجَةَ لَهُ بِالشَّجَاعَةِ؛ لِأَنَّ الشُّجَاعَ يَأْبَى حَيَاةَ الذَّلِّ، يَقُولُ
المتنبي:⁵

إِذَا كُنْتَ تَرْضَى أَنْ تَعِيشَ بِذِلَّةٍ فَلَا تَسْتَعِدِّنِ الحُسَامَ الْيَمَانِيَا
وَلَا تَسْتَطِيلَنَّ الرَّمَّاحَ لَغَارَةٍ وَلَا تَسْتَجِيدَنَّ الْعِتَاقَ الْمَذَاكِيَا

والشجاعة تظهر عند الإنسان بمظاهر عدة، أهمها:

- الرأي والمكيدة

إنَّ الشَّجَاعَةَ لَا تَكْتَمِلُ إِلَّا بِإِرْشَادِ الْعَقْلِ، وَوُجُودِ الرَّأْيِ السَّدِيدِ، فَإِنَّ صَدْرَ الرَّأْيِ مِنْ قَائِدِ شَجَاعٍ، مَعَ وُجُودِ الْحِيلَةِ وَالْحَذَرِ وَالتَّيَقُّظِ، تَحَقِّقُ النِّصْرَ، وَإِذَا غَابَتْ صَارَ ذَلِكَ انْتِحَارًا أَوْ تَهْوَرًا؛ لِأَنَّ الرَّأْيَ كَمَا يَقُولُ ابْنُ الْقَيْمِ الْجُوزِي "لِقَاحِ الشَّجَاعَةِ، فَإِذَا اجْتَمَعَا كَانَ النِّصْرَ وَالظَّفَرَ، وَإِنْ فُقِدَا

¹ بشار بن برد: الديوان، ج4، ص163.

² ابن رشيق: العمدة في محاسن الشعر، ج2، ص144.

³ الأصفهاني، أبو الفرج: الأغاني، ج3، ص156.

⁴ المتنبي، أبو الطيب أحمد بن الحسين: الديوان، بيروت، دار بيروت للطباعة والنشر، 1983، ص232.

⁵ نفسه، ص441.

فالحذلان والخيبة، وإنْ وُجِدَ الرَّأْيُ بلا شجاعة فالجبن والعجز، وإذا حصلت الشجاعة بلا رأي فالتهور والعطب¹ ويُعدُّ حضور الذَّهْن عند الشدائد من أكبر مظاهر الشجاعة؛ لأنَّ من ينزل به خَطْب ولم يُذهب رشده، وواجهه بثبات، وحضور ذهن، يعدُّ من الشَّجاعان في وقت الشدائد.²

وقد أظهر الشعراء العباسيون أهمية الرأي في وقت الشدائد، فأبو نواس يمدح الأمين مبيِّناً أهميَّة رأيه وقت العسر، قائلاً:³

مَلِكٌ إِذَا عَتَسَرَ الْأُمُورَ مَضَى بِهِ رَأْيِي يَفْلُ السَّيْفَ وَهُوَ حُسَامُ
دَاوَى بِهِ الْقُلُوبَ مِنَ الْعَمَى حَتَّى أَفْقَنَ وَمَا بِهِنَّ سِقَامُ

ف رأي الممدوح في وقت العسر يفلُّ حد السيف، وليزيد من قوة الرأي وصلابته جاء قوله (وهو حسام). ومثل هذا الرأي لا يصدر إلا من رجل شجاع متمرس، ويظهر أبو نواس أثر هذا الرأي في القلوب التي أصابها العمى من شدَّة الموقف، فجعل رأي ممدوحه دواء القلوب، فهي تستفيق من غفلتها وحيرتها بعد أن فرَّج عنها العسر. وفي مدح هارون الرشيد يوضح أبو نواس أثر رأي الممدوح على عدوه، فهو يأخذ سمعهم ونطقهم فيتركهم صمًا بكما؛ لأنهم لا يقدرّون على مواجهة هذه العزيمة، يقول:⁴

حَتَّى إِذَا أَمْضَى عَزِيمَةَ رَأْيِهِ أَخَذَتْ بِسَمْعِ عَدُوِّهِ وَالْمَنْطِقِ

وأما دعبل الخزاعي، فيصف سدادة رأي ممدوحه، فيجعل لمكائد الدهر أقدامًا لا تثبت عليها أمام الممدوح⁵، فيقول:⁶

مُسَدَّدُ الرَّأْيِ إِنْ تَلَحَّظَ مَكَايِدَهُ مَكَايِدُ الدَّهْرِ لَمْ تَثْبُتْ لَهَا قَدَمُ

¹ الجوزي، ابن القيم شمس الدين: الفوائد، ط2، بيروت، دار الكتب العلمية، بيروت، 1973، ص 200.

² نصار، جمال: الاخلاق الإسلامية، ط1، السعودية، مكتبة المتنبّي، 2009، ص 206.

³ أبو نواس: الديوان، ج2، ص64.

⁴ نفسه، ج2، ص62.

⁵ أبو زيد، علي إبراهيم: الصورة الفنية في شعر دعبل بن علي الخزاعي، ط2، القاهرة، دار المعارف، 1983، ص 217.

⁶ الخزاعي، دعبل بن علي: الديوان، شرحه حسن حمد، ط1، بيروت، دار الكتاب العربي، 1994، ص125.

ويُظهِرُ أَبُو تَمَامٍ أَهْمِيَةَ الرَّأْيِ وَالتَّدْبِيرِ فِي المَعْرَكَةِ، فَهِيَ لَا تَقْلُ عَنْ أَهْمِيَةِ السَّيْفِ، يَقُولُ

فِي مَدْحِ أَبِي سَعِيدِ مُحَمَّدِ يَوْسُفِ الثَّغْرِيِّ:¹

أَطْعَمَ السَّيْفَ نِصْفَهُمْ وَرَمَى النِّصْفَ فَبِرَأْيِي صَافِي النَّجَارِ عَرِيقَ
وَأَصَاخُوا كَأَمَّا كَانَ يَرْمِي هُمْ بِذَلِكَ التَّدْبِيرِ مِنْ مَنَجْنِيقِ

فَنَرَاهُ هُنَا يَقَسِّمُ الأَدْوَارَ بَيْنَ السَّيْفِ وَالرَأْيِ بِالتَّسَاوِي، فَالسَّيْفُ يَأْكُلُ نِصْفَهُمْ، وَالرَأْيُ يَتَدَبَّرُ النِّصْفَ الأَخْرَ إِذَا رَمَاهُمْ بِهِ، وَهَذَا الرَّأْيُ مِثْلُ المَنَجْنِيقِ، وَهُنَا نَلَاظُ التَّنَاسُبَ فِي رَسْمِ الصُّورَةِ؛ لِأَنَّهُ جَعَلَ أَثْرَ الرَّأْيِ وَالتَّدْبِيرِ مِثْلَ أَثْرِ المَنَجْنِيقِ الَّذِي يَخْتَرِقُ الحِصُونَ. وَاقْتِحَامِ الحِصُونَ لَا يَتَحَقَّقُ إِلاَّ بِالرَأْيِ السَّدِيدِ وَالتَّدْبِيرِ. وَلَكِنِ الرَّأْيُ وَحْدَهُ لَا يَكْفِي، إِذْ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ الإِقْدَامُ وَالدَّقَّةُ فِي إِصَابَةِ الهَدَفِ مُتَلَازِمِينَ مَعَ الرَّأْيِ السَّدِيدِ، وَهَذَا مَا يُوَكِّدُهُ أَبُو تَمَامٍ فِي مَدْحِ أَبِي سَعِيدِ مُحَمَّدِ بْنِ يَوْسُفِ الثَّغْرِيِّ، فَيَقُولُ:²

رَأَيْكَ سَدِيدَ الرَّأْيِ وَالرُّمْحَ فِي الوَعْيِ تَأَزَّرُ بِالإِقْدَامِ فِيهِ وَتَرْتَدِي
وَلَيْسَ يُجَلِّي الكَرْبَ رَأْيِي مُسَدِّدٌ إِذَا هُوَ لَمْ يُؤْنَسْ بِرُمْحِ مُسَدِّدٍ

يَعْرُضُ أَبُو تَمَامٍ الفِكْرَةَ، وَهِيَ اجْتِمَاعُ الرَّأْيِ مَعَ الإِقْدَامِ، ثُمَّ يَأْتِي بِمَا يُوَكِّدُ أَهْمِيَةَ هَذَا الاجْتِمَاعِ، فَلَا فَائِدَةَ مِنَ الرَّأْيِ إِذَا لَمْ يَقْتَرَنَّ مَعَ الإِقْدَامِ وَخَوْضِ الحَرْبِ وَالضَّرْبِ بِالرَّمَاحِ وَالسِّيُوفِ.

وَيُكْرِّرُ أَبُو تَمَامٍ تَشْبِيهَ رَأْيِ المَمْدُوحِ بِحَدِّ السَّيْفِ، فَيَقُولُ فِي مَدْحِ الأَفْشِينِ:³

وَجَرَّدَ مِنْ آرَائِهِ حِينَ أَضْرَمَتْ بِهِ الحَرْبُ حَدًّا مِثْلَ حَدِّ المَنَاصِلِ
رَأْيَ بَابِكَ مِنْهُ التِّي لَا شَوَى لَهَا فَتَرَجَّى سِوَى نَزْعِ الشَّوَى⁴ وَالمَفَاصِلِ

¹ أبو تمام: الديوان، ج 1، ص 458.

² نفسه، ج 1، ص 247.

³ نفسه، ج 1، ص 40.

⁴ الشوى: اليدان والرجلان وأطراف الأصابع وقحف الرأس، وجلدة الرأس يقال لها شواة، لسان العرب مادة (شوى).

فيجعل أبو تمام أراء ممدوحه في المعركة حادة كحدّ السيف، ولم يكتف بذكر هذا التشابه، بل أوضح أثر الآراء على أعدائه، ويبدو أبو تمام متأثراً بقوله تعالى في وصف نار جهنّم ﴿كَلَّا إِنَّهَا لَأَطَىٰ نَزَاعَةٌ لِلشَّوَىٰ﴾¹ فأراء الممدوح تجعل من أرض المعركة جحيماً على العدو.

ويستحضر أبو تمام في وصف الرأي صورة الشهب والضياء وما في ذلك من معاني التوهج والإصابة لآراء الممدوحين، فيقول:²

يَعْشَوُ إِلَيْكَ وَضَوْءُ الرَّأْيِ قَائِدُهُ خَلِيفَةٌ إِنَّمَا آرَأُوهُ شُهُبٌ

وفي مدح أبي ذُلف القاسم بن عيسى، يقول أبو تمام:³

فِي يَوْمِ أَرْشَقَ وَالهِيَجَاءُ قَدْ رَشَقَتْ مِنْ الْمَنِيَّةِ رَشَقًا وَابِلًا قَصَافًا
فَكَانَ شَخْصُكَ فِي أَغْفَالِهَا عِلْمًا وَكَانَ رَأْيُكَ فِي ظَلْمَائِهَا سَدْفًا⁴

يبدأ أبو تمام بوصف المعركة، لينتقل بعد ذلك إلى الحديث عن ممدوحه الذي كان علماً بارزاً فيها، ورأيه ضوء يتخلل ظلمتها. وقد اعترض الأمدى على استخدام أبي تمام لفظة (السدف)، فقال: "والسدف اختلاط الضوء بالظلمة، ولهذا يُذكر في الأضداد، فيُجعل مرة الضوء، ومرّة الظلمة، ولو جعل رأيه كالنهار كان أجود على مذهبه... والسدف هو وقت الفجر وبعده أيضاً، ولكن لفظة الفجر في هذا أجود من السدف"⁵. والمدقق في الأبيات السابقة يرى أنّ أبا تمام تمّام قد استخدم لفظة (ظلمائها) قبل أن يذكر لفظة (السدف)، وهذا يشير إلى أنّ المقصود بالسدف هو الضوء، وليس الظلمة، وأمر آخر هو أنّ هذا موضع مدح، إذ من غير المعقول أن يكون رأيه ظلمة في ظلمة، وهناك أمر يمكن أن يجعل استخدام لفظة (السدف) أفضل؛ لأنّ من معانيها كما جاء في لسان العرب "اختلاط الضوء والظلمة جميعاً، كوقت ما بين صلاة الفجر إلى

¹ سورة الواقعة، الآيتان (15،16) .

² أبو تمام: الديوان، ج 1، ص 137.

³ نفسه، ج 1، ص 242.

⁴ السدف في لغة قيس الضوء ، وفي لغة تميم الظلمة . لسان العرب مادة (سدف).

⁵ الأمدى: الموازنة، ج 3، ص 287.

أول الإسفار، والسدفة ظلّمة فيها ضوء من أول الليل وآخره، ما بين الظلّمة إلى الشفق، وما بين الفجر إلى الصلاة".¹ فإذا ذهبنا إلى أنّ هذا المعنى هو المقصود من السدف، فإنّ استخدام هذا اللفظ أنسب من استخدام لفظ الفجر أو النهار أو الضوء؛ لأنّه أدقّ في وصف الحالة التي أَرادها أبو تمام، وهي أنّ رأي ممدوحه هو ضوء بدأ يتخلل الظلّمة ليمحوها. وهذا القول يتّضح أكثر من خلال مدح أبي تمام المأمون، يقول:²

وَأرى الأُمُورَ المُشْكَلاتِ تَمَزَّقَتْ ظُلُماتُها عَن رَأْيِكَ المُتَوَقِّدِ

فنرى في هذا البيت كيف جعل أبو تمام رأي ممدوحه شعله متوقّدة، تتخلل الظلّمة فتمزّقها، تمهيداً لإزالتها، وهذا ما قصده أبو تمام في الأبيات السابقة، والذي يؤكد أنّ المقصود من (السدف) الضوء الذي يتخلل الظلّمة، وصف أبي تمام رأي ممدوحه بالنجم الثاقب، يقول في مدح أبي دلف:³

نَصَلتَ لَهُ سَيْفَيْنِ رَأياً وَمَنْصِلاً وَكُلُّ كَنَجْمٍ فِي الدُّجْنَةِ ثاقِبٌ

فالممدوح يحمل معه سيفين، السيف الحقيقي والرأي، وكلُّ منهما نجمٌ ثاقبٌ يتخلل ظلام الليل. وهذا من أجود ما وُصِفَ به الرأي كما يقول الأمدى.⁴

ولعلّ البحرّي قد أبدع في تناوله موضوع الرأي؛ لأننا نجدّه قد وصف الرأي بعدة أوصاف، مُبرِّزا من خلالها شجاعة ممدوحه. ومن ذلك قوله في مدح أبي سعيد محمد بن يوسف الثغري:⁵

يَوْمَ فَرَّقتَ مِنْ كَتائِبِ آرائِ كَ جُنُداً لا يَأْخُذونَ عَطَاءَ
بَيْنَ ضَرْبِ يَفْلِقِ الهامِ أَنْصافاً وَطَعْنِ يَفْرَجِ الغَمِّاءِ

¹ لسان العرب، مادة (سدف).

² أبو تمام: الديوان، ج 3، ص 260.

³ نفسه، ج 1، ص 117. الأمدى: الموازنة، ج 3، ص 293.

⁴ الأمدى: الموازنة، ج 3، ص 293.

⁵ البحرّي: الديوان، تحقيق وشرح حسن كامل الصيرفي، ط3، القاهرة، دار المعارف، د.ت، ص 19/18. الأمدى: الموازنة، ج 3، ص 292.

وَيَوَدُّ الْعَدُوُّ لَوْ تَضَعُفُ الْجَيْشَ عَلَيْهِمْ وَتَصْرِفُ الْأَرَاءَ

جعل البحترى آراء ممدوحه جنودًا يقاتلون في أرض المعركة، وقد تفوقت على الجيش في شدتها على العدو، الأمر الذي جعل العدو يتمنى لو أنّ الممدوح ضاعف أعداد جنده وصرّفها عنهم. وقد كرّر البحترى هذا المعنى في مدح الخضر بن أحمد الثعلبي، فجعل آراء ممدوحه جنودًا يقاتلون في المعركة، فقال:¹

وَمُصِيبٌ مَفَاصِلَ الرَّأْيِ إِنْ حَا رَبَّ كَانَتْ آرَاؤُهُ مِنْ جُنُودِهِ

فالآراء لا تقل أهمية عن الجند في المعركة كما يفهم من قول البحترى، فإذا اجتمعت مع العزم كانت كالصواعق، يقول البحترى في مدح محمد بن يوسف الثغري:²

فِي عَارِضٍ يَدِيقُ³ الرَّدَى أَلْهَبَتْهُ بِصَوَاعِقِ الْعَزَمَاتِ وَالْأَرَاءِ

وفي موضع آخر يصف البحترى آراء ممدوحه بالصواعق التي تهدم الجبال، وتذيب صخورها، فيقول في مدح أبي نهشل بن حميد:⁴

لَهُ فِكْرٌ بَيْنَ الْغَيْبِ إِذَا انْتَهَى إِلَى مَقْقَلٍ مِنْهَا فَهَنْ مَقَالِدُهُ
صَوَاعِقُ آرَاءٍ لَوْ انْقَضَ بَعْضُهَا عَلَى يَذْبَلٍ⁵ لَانْقَضَ أَوْ ذَابَ جَامِدُهُ

ولزيادة أثر الآراء وقوتها، جعل البحترى أثر بعضها كبير على جبل يذبل، الذي يتميز بصخوره الصلبة، فكيف يكون أثرها مجتمعة؟

ويصف البحترى آراء ممدوحة بالسيوف المهنددة، ويتّضح هذا في مدحه علي بن عامر،

يقول:⁶

¹ الأمدي: الموازنة، ج 3، ص 293.
² البحترى: الديوان، ص 12. الأمدي: الموازنة، ج 3، ص 292.
³ يدق: يمطر من الودق وهو المطر كله شديده وهينه. ينظر لسان العرب مادة (ودق).
⁴ البحترى: الديوان، ص 585. الأمدي الموازنة، ج 3، ص 294.
⁵ يذبل: اسم جبل في بلاد نجد. ينظر لسان العرب مادة (ذبل). وهو جبل لباهلة مشهور الذكر بنجد. ينظر ياقوت الحموي: معجم البلدان، بيروت، دار صادر، د.ت، ج 5، ص 433.
⁶ البحترى: الديوان، ص 957.

مُجَرَّبٌ طَالَمَا أَشْجَتْ عَزَائِمُهُ نَوِي الْحَجَا وَهُوَ غِرٌّ بَيْنَهُمْ غُمُرُ
آرَاؤُهُ الْيَوْمَ أَسْيَافٌ مَهْنَدَةٌ وَكَانَ كَالسَّيْفِ إِذْ آرَاؤُهُ زَيْرُ

إنَّ آراءَ ممدوحه أسيافٌ ماضيه، فهو يُمضي الأمورَ بآرائه بحنكةٍ وتجربةٍ، وكان قبل الحنكة والتجربة يمضيها بمباشرته إيَّاها بنفسه بشجاعته وإقدامه¹ فهي لم تصدُر إلَّا بعد تجربة وخبرة، ومن فارس شجاع ومقدام منذ صغره، وهذا يجعل الآراء ماضية وحاسمة، ولها أثرٌ واضح.

ويظهر ابن الرومي أهمية الرأي في الحرب، وإن كان صاحبه لا يشارك بسيفه، فيقول مفتخراً:²

وَلَسْتُ مُقَارِعًا جَيْشًا وَلَكِنْ بِرَأْيِي يَسْتَضِيءُ ذُو الْقِرَاعِ

ونلاحظ هنا لغة تختلف عن لغة الشعراء الفرسان كأبي تمام والمنتبي؛ لأنَّ ابن الرومي لم يشارك في المعارك، وهذا ما دفعه إلى وصف الرأي بهذه الصورة، التي تجعل له فضلاً كبيراً على المحاربين في أرض المعركة، إذ جعل من رأيه نوراً يهتدي به الشجعان، فهو لا يستطيع أن يدَّعي الفروسيَّة والشجاعة بالسيف، فركَّز على شجاعة الرأي. وفي مقام آخر يمدح ابن الرومي الَ طاهر، قائلاً:³

آرَاؤُكُمْ وَوَجْهُكُمْ وَسَيُوفُكُمْ فِي الْحَادِثَاتِ إِذَا دَجَوْنَ نَجُومَ
مِنْهَا مَعَالِمٌ لِلْهُدَى وَمَصَابِيحُ تَجَلُّو الدُّجَى وَالْأُخْرِيَّاتُ رُجُومُ

فجمع في هذه الأبيات ثلاثة أوصاف لآل طاهر، فأرائهم ووجوههم وسيوفهم في أوقات الشدَّة نجوم تسطعُ في الليل المظلم، فوضع مشبهاً به واحد في ثلاثة تشبيهات، ولأنَّ هذا بحاجة إلى تفسيرٍ وتوضيح لوجه الشبه، فقد جاء بتفسير مفصَّل، موضحاً وجه الشبه لكل تشبيه "وقد

¹ الأمدي: الموازنة، ج 3، ص 290.

² ابن الرومي: الديوان، ج 2، ص 336.

³ نفسه، ج 3، ص 319.

أحسن ما شاء في جودة التركيب واستيفاء أقسام ما ذكره الله سبحانه وتعالى في منافع النجوم¹ فهي معالم يهتدي بها الناس في البرِّ والبحر، وهذا في قوله تعالى: ﴿وعلاماتٍ وبالنجم هم يهتدون﴾² وهذا مناسب لوصف آراء الممدوحين، والنجوم زينة السماء الدنيا في الليل المظلم، وهي رجوم للشياطين وهذا مأخوذ من قوله تعالى: ﴿ولقد زيننا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين﴾³.

وقد سبق أبو تمام ابن الرومي في هذا المعنى إذ صورَّ الرأى والسيف بالنجم الثاقب بقوله:⁴

نَصَلْتَهُ لِهْ سَيْفَيْنِ رَأْيَا وَمَنْصِلًا وَكَلَّ كَنْجَمٍ فِي الدُّجْنَةِ ثَاقِبُ

ولكنَّ أبا تمام لم يجمع منافع النجوم في قوله، ولم يُقدِّم تفسيراً كتفسير ابن الرومي الذي وصفه ابن الناظم بقوله: "وهذا أفضل ما سمعته في باب التفسير في الشعر، فإنه راعى فيه الترتيب أحسن مراعاة"⁵.

وفي مدح أبي الصقر إسماعيل بن بلبل، يجعل ابن الرومي آراء بني شيبان في الأمور العصبية الشديدة شهباً تضيء، فيُهتدى بها، يقول:⁶

قَالُوا أَبُو الصَّقْرِ مِنْ شَيْبَانَ قُلْتُ لَهُمْ كَلَّا لَعَمْرِي وَلَكِنْ مِنْهُ شَيْبَانُ
قَوْمٌ سَمَّاحَتُهُمْ غِيَاثٌ وَنَجْدَتُهُمْ غَوَاثٌ وَآرَاؤُهُمْ فِي الْخَطْبِ شُهْبَانُ

ولقد رأينا كيف ساوى أبو تمام بين الرأى والسيف في المعركة بقوله:⁷

¹ ابن الناظم، بدر الدين بن مالك : المصباح في المعاني، تحقيق وشرح حسني عبد الجليل، القاهرة، مكتبة الآداب، د.ت ، ص 209.

² سورة النحل، الآية(16).

³ سورة الملك، الآية(5).

⁴ أبو تمام: الديوان، ج1، ص 117. الأمدي: الموازنة ، ج 3، ص 293.

⁵ ابن الناظم: المصباح في المعاني، ص 209.

⁶ ابن الرومي: الديوان، ج3، ص 373.

⁷ أبو تمام: الديوان، ج 1، ص 458.

أَطْعَمَ السَّيْفَ نَصْفَهُمْ وَرَمَى النَّصْفَ بِرَأْيِ صَافِي النِّجَارِ عَرِيقُ

وكيف جعل البحتري الرأي أشدَّ على الأعداء من ضرب الجيوش الجرارة بقوله:¹

يَوَدُّ الْعَدُوَّ لَوْ تَضَعُفُ الْجَيْشَ عَلَيْهِمْ وَتَصْرِفُ الْإِرَاءَ

والرأي عند المتنبى كذلك قبل الشجاعة، ولكنه لا يكون وحده إذ لا بدَّ أن يقترن معها،

ولكل مرتبته، يقول في مدح سيف الدولة:²

الرَّأْيُ قَبْلَ شَجَاعَةِ الشُّجْعَانِ هُوَ أَوَّلُ وَهْيِ الْمَحَلِّ الثَّانِي

فَإِذَا هُمَا اجْتَمَعَا لِنَفْسٍ حُرَّةٍ بَلَغَتْ مِنَ الْعُلْيَاءِ كُلَّ مَكَانٍ

وَلرَّيْمًا طَعَنَ الْفَتَى أَقْرَانَهُ بِالرَّأْيِ قَبْلَ تَطَاعَنِ الْأَقْرَانِ

لَوْلَا الْعُقُولُ لَكَانَ أَدْنَى ضَيْعَمٍ أَدْنَى إِلَى شَرَفٍ مِنَ الْإِنْسَانِ

وَمَا تَفَاضَلَتِ النُّفُوسُ وَتَدَبَّرَتْ أَيْدِي الْكُمَاةِ عَوَالِي الْمُرَانِ

ويستخدم المتنبى في هذه الأبيات الحجاج العقلي المنطقي، فيأتي بفكرة عامة وهي الرأي

أولاً والشجاعة ثانياً، وهذا من حسن الابتداء كما يقول الأمدي،³ والثعالبي،⁴ فإذا اجتمع عند

إنسان بلغ المراتب العليا، والشرف الرفيع، ثم يبدأ بسرد الأدلة التي تقنع السامع بصحة ما قاله،

فالرأي يمكن أن يكون الأداة الأولى للحرب قبل السلاح، ثم يأتي بدليل آخر وهو أنَّ العقل يميِّز

الإنسان عن الحيوان. فهذه الأبيات كما يقول الثعالبي: "غررٌ فرائد لا يصدر مثلها إلَّا عن فضل

باهر"⁵. وفي موضع آخر يتمثل المتنبى أساليب المتصوفة في مدحه، وقد وصل إلى مستوى لم

يبلغه المتصوفة أنفسهم، فهو من، فمن قرأ أقواله في هذا المجال ظنَّ أنه صوفي، وهذا جعله

يغالي ويبالغ في مدح أصحابه. ويتضح هذا في قوله في مدح محمد بن زريق الطرسوسي،

يقول:⁶

¹ البحتري: الديوان، ص 18، 19.

² المتنبى: الديوان، ص 414. الأمدي: الموازنة، ج 3، ص 139. وقد ورد فيه (لنفس مرة)

³ الأمدي، الموازنة، ج 3، ص 139.

⁴ الثعالبي: أبو الطيب المتنبى ما له وما عليه، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، القاهرة، مكتبة الحسين، د.ت، ص 94.

⁵ نفسه، ص 130.

⁶ المتنبى: الديوان، ص 59. الثعالبي: أبو الطيب المتنبى ما له وما عليه، ص 89.

لَوْ كَانَ ذُو الْقَرْنَيْنِ أَعْمَلَ رَأْيَهُ لَمَا أَتَى الظُّلْمَاتِ صِرْنَ شُمُوسًا

ويقول شوقي ضيف معلقاً على بيت المتنبي السابق "فإننا إن لم نعرف مَنْ قيلت فيه هذه الأبيات رجّمنا أنه بديلٌ من أبدال الصوفيه أو نقيب من نقباء الشيعة"¹. وقد استند المتنبي في هذا البيت على قصّة ذي القرنين عندما دخل الظُّلْمَاتِ وأراد أن يشرب من عين الحياة فلم يرها بسبب الظُّلْمَة الشديدة². وعلى رأي المتنبي لو أنّ ذا القرنين أخذ رأي ممدوحه عندما دخل الظلمات لصارت هذه الظلمات شمساً ساطعة، ولحقّق ذو القرنين هدفه، وشرب ماء الحياة، وكل ذلك تعظيماً لرأي ممدوحه، ولكنه خرج في ذلك إلى باب الإفراط والإحالة كما يقول النعالي³.

ويُشْرِكُ أسامة بن منقذ الرأي مع الجيش في مواجهة العدو كما فعل أبو تمام والبحري والمنتبي في جمعهم بين الشجاعة والرأي، يقول في مدح الملك الصالح⁴:

وتَسْرِي لَهُمْ آرَاؤُنَا وَجِيُوشُنَا بِدَاهِيَةٍ تَبْيِضُ مِنْهَا الْمَقَادِمُ

ويجعل ابن منقذ الدّور متبادلاً بين الرأي والخيل في قتال العدو فيقول⁵:

نَقْتُلُهُمْ بِالرَّأْيِ طَوْرًا وَتَارَةً تَدُوسُهُمْ مِنْهَا الْمَذَاكِي الصَّلَامُ

فالرأي عنده لا يقلّ عن دور الخيل في المعركة.

- الهيبة

الهيبة من المظاهر الدالّة على الشجاعة، فهي لا تكون إلا للشجاع المقدم، فالشعراء لم يغفلوا هذا المظهر في مدحهم و فخرهم بأنفسهم و قبائلهم. فقد ذكروا المهابة صراحةً باللفظ أو من خلال أثرها على العدو. يقول بشار بن برد في قبيلته مظهرًا هيبتهم⁶:

¹ ضيف، شوقي: الفن ومذاهبه في الشعر العربي، ص 323.

² الحافظ بن كثير: البداية والنهاية، ج 2، ص 128.

³ النعالي: أبو الطيب المتنبي ما له وما عليه، ص 89.

⁴ ابن منقذ، أسامة: الديوان، ص 272.

⁵ نفسه، ص 273.

⁶ بشار بن برد: الديوان، ج 4، ص 163.

إِذَا مَا غَضِبْنَا غَضِبَةً مُضَرِّيَةً هَتَكْنَا حِجَابَ الشَّمْسِ أَوْ قَطَرْتَ دَمًا
إِذَا مَا أَعْرَنَّا سَيِّدًا مِنْ قَبِيلَةٍ نُرًا مِنْبَرٍ صَلَّى عَلَيْنَا وَسَلَّمَ
وَإِنَّا لَقَوْمٌ مَا تَزَالُ جِيَادُنَا تَسَاوِرُ مَلَكًا أَوْ تُتَاهِبُ مَغْنَمًا

فهذه الأبيات إعلان من بشار عن هيبة قبيلته، وتحذير من محاولة إغضابها؛ لأنّ النتائج ستكون وبالاً على من يحاول ذلك. فقولُه (هتكنا حجاب الشمس أو قطرت دما) صورة مبتكرة تظهر العظمة والسطو والهيبة، الأمر الذي دفع ابن رشيق إلى وصف هذا البيت بأنه "أفخر بيت صنعه محدث"¹. وزيادة في الهيبة ينسب قبيلته مضر إلى آل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم، وهم قومٌ تعودوا على محاربة الملوك ومقارعتهم وأخذ ممتلكاتهم. إنّ أبيات بشار السابقة جاءت بألفاظ فخمة وجزلة من غير تصنع، على مذهب العرب، وهذا أقوى في موضع الافتخار، على رأي ابن رشيق². وهي من الأبيات التي أجاد فيها بشار ولكنه أفرط في معانيها، كما يرى يرى ابن المعتز³. وفي موضع آخر يفتخر بشار بمضر فيقول⁴:

رَأُونَا وَالْحِمَامُ مَعًا فَأَجَلُوا كَمَا أَجَلَتْ عَنِ الْأَسَدِ الْوِبَارُ⁵
إِذَا دَارَتْ عَلَيَّ قَوْمٌ رَحَانَا تَتَادَوًا بِالْجَلَاءِ أَوْ اسْتَدَارُوا

جمع بشار بين قومه والموت، فهما يسيران معاً، وهذا أكسبهم هيبة، تدفع العدو إلى الجلاء والرحيل عن أرضه، وقلبه يمتلئ بالرعب والخوف؛ لعلمه المسبق بعاقبة أمره، فيفر مذعوراً.

¹ ابن رشيق: العمدة في محاسن الشعر، ج 2، ص 144. وفيه الشطر الثاني من البيت الأول (هتكنا سماء الله أو مطرت دما).

² ابن رشيق: العمدة في محاسن الشعر، ج 2، ص 124. ابن السراج، أبو بكر محمد بن عبد الملك الشنتريني: جواهر الآداب وذخائر الشعراء والكتّاب، شرح وتحقيق محمد حسن قزقران، ط 1، دمشق، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، 2008، ص 338.

³ ابن المعتز، عبد الله: طبقات الشعراء، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، ط 3، القاهرة، دار المعارف، 1976، ص 30.

⁴ بشار بن برد: الديوان، ج 3، ص 255.

⁵ الوبار: جمع مفردة وبر وهي دويبة على قدر السنور غبراء و بيضاء من دواب الصحراء حسنة العينين شديدة الحياء. لسان العرب مادة (وبر).

وفي مدح الرشيد وولده يقول أبو العتاهية واصفاً الهيبة التي يتحلّى بها الرشيد في

مجلسه:¹

بَنُو المِصْطَفَى هَارُونَ حَوْلَ سَرِيرِهِ فَخَيْرُ قِيَامٍ حَوْلَهُ وَقَعُودِ
يُقَلِّبُ أَحْظَ المَهَابَةِ بَيْنَهُمْ عُوَيْنُ ظِبَاءٍ فِي قُلُوبِ أَسْوَدِ

فقد جمع أبو العتاهية في هذه الأبيات الحُسن مع الشجاعة والقوة، يقول العسكري: "هذا

أجود شيء قيل في الحسن مع الشجاعة من شعر المتقدمين ومن شعر المحدثين"².

وقد مال بعض الشعراء إلى الغلوّ في وصف الهيبة، كأبي نواس في مدحه للرشيد،

يقول:³

وَأخْفَتَ أَهْلَ الشَّرْكِ حَتَّى إِنَّهُ لَتَهَابُكَ النُّطْفُ التي لَمْ تُخْلَقِ

لقد بالغ أبو نواس في وصف هيبة ممدوحه، فهو لم يكتف بإخافة أهل الشُّرك من

المخلوقين، بل جعل ما لم يُخلَقِ يهابه "وهذا غلوٌّ كبير"⁴ كما يقول ابن الناظم. والمبالغة والغلو

في المعنى فيه آراء مختلفة، وقد لخص ابن سنان هذه الآراء في قوله: "فمنهم من يختاره ويقول:

أحسن الشعر أكذبه، ويستدلُّ بقول النابغة عندما سئل: مَنْ أشعر الناس؟ فقال: من أُسْتُنْجِدَ كَذِبُهُ

وأضحك رديئه، وهذا مذهب اليونانيين في شعرهم، ومنهم من يكره الغلو والمبالغة التي تخرج

إلى الإحالة، ويختار ما يقارب الحقيقة ويداني الصِّحَّةَ، ويعيب قول أبي نواس"⁵ وقد أوضح ابن

سنان رأيه في حمد المبالغة والغلو؛ لأنَّ الشُّعر مبنيٌّ على الجواز والتَّسْمِح، وهو يرى أن

يُسْتَعْمَلُ في ذلك كاد، وما جرى في معناها؛ ليكون الكلام أقرب إلى عين الصِّحَّةِ.⁶ ومع ميل ابن

ابن سنان إلى المبالغة والغلوِّ فإنَّه لم يَمَلْ إلى قول أبي نواس السابق؛ لأنَّه لم يستخدم (كاد أو ما

¹ أبو العتاهية: الديوان، بيروت، دار بيروت للطباعة والنشر، 1986، ص 157.

² العسكري، أبو هلال: ديوان المعاني، شرح أحمد حسن بسج، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية، 1994، ج 1، ص 23.

³ أبو نواس: الديوان، ج 1، ص 120.

⁴ ابن الناظم: المصباح في المعاني، ص 229.

⁵ الخفاجي، ابن سنان: سر الفصاحة، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية، 1982، ص 272.

⁶ نفسه، ص 272.

جرى مجراها)، بل على النقيض فقد استخدم في بيته الشعري ما يؤكد المعنى، كاستخدامه (إن)، وكأنّ أبا نواس لا يريد أن يترك أحدا من أهل الشرك إلا وقد وصل الخوف إلى قلبه، فيورثه لمن بعده، لتبقى هذه الهيبة في حياة الممدوح، وحتى بعد موته تنتقلها أجيال العدو. ويبدو أنّ أبا نواس في هذا البيت متأثر بما ورد عن ابن عباس في نداء إبراهيم عليه السلام للحج "إنّ الجبال تواضعت حتى بلغ الصوت أرجاء الأرض وأسمع من في الأرحام والأصلاب"¹ ولهذا ذكر أبو نواس النطف التي لم تخلق وهي في الأصلاب، وفي موضع آخر ذكر من في الأرحام فقال:²

حَتَّى الَّذِي فِي الرَّحْمِ لَمْ يَكُ صَوْرَةً لِفُؤَادِهِ مِنْ خَوْفِهِ خَفَقَانَ

وللهيبة أثرٌ في العدو، فهي توقع الرعب في قلوبهم، وقد لمس الشعراء هذا الأمر فذكروا الرعب وما له من أثر، فالرعب يمكن أن يحقق النصر كما يقول النبيّ صلى الله عليه وسلم: "نصرتُ بالرعب"³. يقول أشجع السلمي في مدح الرشيد:⁴

وَعَلَى عَدُوِّكَ يَا ابْنَ عَمِّ مُحَمَّدٍ رَصَدَانِ ضَوْءُ الصَّبْحِ وَالْإِظْلَامِ
فَإِذَا تَنَبَّهَ رُعْتَهُ وَإِذَا غَفَا سَلَّتْ عَلَيْهِ سَيُوفُكَ الْأَحْلَامِ

لقد أسكن أشجع الرعب في قلب العدو في الأوقات كلها، وجعل ضوء الصبح والظلام رصدين يتربصان به، ثم يفصل كيف يكون الرعب في الوقتين، ففي النهار يدخل الرعب قلب العدو إذا رأى الممدوح، وأما في الظلام فالرعب يكون بما يراه من كوابيس وهو نائم. وهذه الأبيات يصفها الثعالبي بقوله: "أحسن وأبدع وأعجب ما قال في الملك المهيب"⁵، وقد أعجب

¹ ابن كثير: تفسير ابن كثير، ص 335. تفسير قوله تعالى: ﴿ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ سورة الحج، الآية (27).

² أبو نواس: الديوان، ج 1، ص 111.

³ البخاري، محمد بن إسماعيل: صحيح البخاري، ط3، القاهرة، الدار السلفية، د.ت، رقم الحديث 335، ص 2997. مسلم، ابن الحجاج أبو الحسين: صحيح مسلم، ترتيب محمد فؤاد عبد الباقي، ط1، بيروت، دار الخير، 1994، رقم الحديث 521، ص 523.

⁴ الاصفهاني، أبو الفرج: الأغاني، ج 17، ص 251. الثعالبي: خاص الخاص، ص 162.

⁵ الثعالبي، أبو منصور عبد الملك: خاص الخاص، قدم له حسن الأمين، طبعة جديدة ومنقحة، بيروت، دار مكتبة الحياة، د.ت، ص 161.

الرشيد بهذين البيتين فلما سمعها كان متكئاً فجلس وقال: "أحسنَ والله، هكذا تُمدح الملوك"¹، فكانت هذه الأبيات تُذكر عند الخلفاء الذين جاؤوا بعد الرشيد، إذا أرادوا أن يصرفوا الشعراء عن أبوابهم، أو أرادوا تحفيزهم ليقولوا أبياتاً شبيهةً بها في جودتها، وجزالة ألفاظها وفخامة معانيها، فقد استطاع أشجع في هذين البيتين أن يُجسّم ما واجهه الروم من الرعب الهائل، فلا يفلتوا من الخوف والرعب، بل إن فرائصهم ترتعد دائماً بسبب ما يرون من هول المعركة من الدماء والرؤوس المتطايرة²، فينعكس ذلك على نفسيّاتهم، فيسكن الرعب فيهم وتداهمهم الكوابيس في الليل، فيظلّون في خوفٍ ورعبٍ دائمين. فقد جمع أشجع في مدحه شدّة البأس مع الهيبة كما يقول الرازي³.

ويصف ابن المعتز هيبة المعتضد فيقول:⁴

مَلِكٌ تَوَاضَعَتِ الْمُلُوكُ لِعِزِّهِ قَسْرًا وَقَاضَ عَلَى الْجَدَاوِلِ بَحْرُهُ
وَإِذَا بَدَأَ مَلَأَ الْعَيْونَ مَهَابَةً فَتَطَّلُ تَسْرِقُ لَحْظَهَا وَتُسِرُّهُ
فَكَأَنَّمَا رُفِعَ الْحِجَابُ لِنَاطِرِ عَن صُبْحِ لَيْلٍ قَدْ تَوَقَّدَ فَجْرُهُ

فقد جعل ابن المعتز الملوك تتواضع أمام ممدوحه، لعجزهم عن مجاراته، فهو كالبحر الذي يفيض على الجداول فيغمرها، وهيبتة تملأ العيون، فينظرون إليه خلسةً، فكأن هيبتة ضياء متوقّد، يمنع الناظر من إدامة النظر فيه.

ويُظهر ابن الرومي أثر نظرات ممدوحه على الدهر فيقول في مدح المعتضد:⁵

تَرَى الدَّهْرَ مَرْتَاعًا إِذَا مَا تَتَابَعَتْ إِلَى صَرْفِهِ مِنْ أَحْمَدٍ نَظْرَاتُ
مُحَاذِرَةً مِمَّنْ إِذَا تَحَرَّرَتْ عَوَارِفُهُ زَالَتْ بِهَا النَّكْرَاتُ

¹ الأصفهاني: الأغاني، ج 17، 251.

² ضيف، شوقي: البطولة في الشعر العربي، ط2، القاهرة، دار المعارف، د.ت، ص 63.

³ الرازي، زين الدين محمد بن أبي بكر: مغاني المعاني، تحقيق محمد زغول سلام، الإسكندرية، منشأة دار المعارف، د.ت، ص 84.

⁴ ابن المعتز، عبد الله: الديوان، تحقيق محمد بديع شريف، القاهرة، دار المعارف، د.ت، ص 481.

⁵ ابن الرومي: الديوان، ج 1، ص 273.

وفي الموضوع نفسه يقول ابن الرومي في رثاء يحيى بن عمر بن الحسين:¹

فَلَقَّلتَ جَبَّارَهُمَ عَن لَّيْنِ مَضَجِهِ رُعباً وَوَكَلَّتَهُ بِالخَوْفِ وَالْحَذَرِ

فالهيبَةُ هنا تبرز من وصف حال العدو، فهو لا ينام؛ لأنَّ الرُّعب ملاً لقلبه، وهذا ما ألزمه الحذر الدائم والسهر الطويل، ونلاحظ أنَّ ابن الرومي يعمِّق عظم الهيبة، فخصَّ جبارهم بالرُّعب والخوف، وبالتالي سيكون الرُّعب قد شَمِلَ كلَّ فردٍ من العدو. ويجري ابن الرومي موازنة بين الهيبة والعدل في مدحه آل وهب، فيقول:²

لَكُمْ هَيْبَةٌ تُشَرِّدُ بِالْأَسْ دِ وَعَدْلٌ يَسْتَنْزِلُ الْأَوْعَالَ

فالأسود تقرّ - وهي أقوى الحيوانات - من هيبة آل وهب، ولكنَّ عدلهم يستنزل الأوعال التي تلجأ إلى أعالي الجبال خوفاً على نفسها، فال وهب يجمعون بين الشدَّة واللَّين، ويتمتعون بهيبة تُخيف القويَّ الظالم وتَنْصُرُ الضَّعيف المظلوم.

وقد ركَّز كثير من الشعراء العباسيين على الرُّعب والخوف الذي ينتاب العدو، بسبب الهيبة التي يتمتع بها الممدوح، وقد أوضحوا في مدحهم أنَّ هذا الرعب والخوف سببان للنصر في كثيرٍ من المعارك، وتعمقوا في وصف الحالة النَّفسية التي يمرُّ بها العدو عندما يسمع صوت الممدوح أو يراه. ويتجلَّى ذلك في قول أبي تمام يمدح إسحاق بن إبراهيم:³

مَشَتْ قُلُوبُ أَنْاسٍ فِي صُدُورِهِمْ لَمَّا تَرَاءَوْكَ تَمْشِي نَحْوَهُمْ قُدُماً
أَمْطَرْتَهُمْ عِزَمَاتٍ لَوْ رَمَيْتَ بِهَا يَوْمَ الْكَرِيهَةِ رُكْنَ الدَّهْرِ لِأَنَّهُمَا

أدخل الممدوح وهو يمشي قدما نحو العدو، الرهبة في النفوس، فهو يحمل عزيمة قوية يجابه بها الدهر، "فإذا مشى نحو أناس خافه كلُّ ذي جُرم، وارتعدت فرائصهم وتداخلهم الذعر والفرع"⁴. وفي مدحه المعتصم يجعل أبو تمام الخوف و الرعب في صدور العدو ينوب عن

¹ ابن الرومي: الديوان، ج 2، ص 165.

² نفسه، ج 3، ص 76.

³ أبو تمام: الديوان، ج 2، ص 83.

⁴ المرامحي، فابل رشيد: صورة البطل في شعر أبي تمام، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 1435هـ، ص 148.

الممدوح في زحفه إليهم، فقد ملئت منه قلوب الأعداء رهبةً أخدمت جذوة البطولة في نفوس أبطالهم، يقول:¹

قَدْ أَتَرَعْتَ مِنْهُ الْجَوَانِحَ رَهْبَةً بَطَلْتُ لَدَيْهَا سَوْرَةَ الْأَبْطَالِ
لَوْ لَمْ يُزَاحِفْهُمْ لَزَاحِفَهُمْ لَهُ مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنَ الْأَوْجَالِ

ويجسد أبو تمام هيبته المعتصم، وما يتركه في قلوب الروم من الفزع فيقول:²

لَمْ يَغْزُ قَوْمًا وَلَمْ يَنْهَدْ إِلَى بَلَدٍ إِلَّا تَقَدَّمَهُ جَيْشٌ مِنَ الرُّعْبِ
لَوْ لَمْ يَقْدُ جَحْفَلًا يَوْمَ الْوَعَى لَغَدَا مِنْ نَفْسِهِ وَحَدَّهَا فِي جَحْفَلٍ لَجِبِ

إنَّ الحرب النفسية الناتجة عن هيبته الممدوح تسبقه إلى بلاد العدو، فتبدأ المعركة داخلهم قبل وصوله، فيظهر الصراع القائم بين القائد والعدو المتحصن داخل حصونه، وهو صراع قائم على مشاعر الخوف والرعب.³

وفي مدح أبي سعيد محمد بن يوسف نجد أبا تمام يضع ميزاناً للشجاعة ورباطة الجأش فيقول:⁴

لَا خَلْقَ أَرْبَطُ جَأْشًا مِنْكَ يَوْمَ تَرَى أَبَا سَعِيدٍ وَلَمْ يَبْطِشْ بِكَ الزُّؤُدُ⁵
أَمَا وَقَدْ عِشْتَ يَوْمًا بَعْدَ رُؤْيَيْهِ فَأَفْخَرَ فِائِكَ أَنْتَ الْفَارِسُ النَّجْدُ
لَوْ عَايَنَ الْأَسَدُ الضَّرْعَامَ رُؤْيَيْتَهُ مَا لِيَمَ أَنْ ظَنَّ رُعبًا أَنَّهُ الْأَسَدُ

فميزان الشجاعة والقوة كما يحدده أبو تمام هو أن ترى ممدوحه ولا يقضي عليك الخوف والذعر، ولكن ذلك الأمر يستحيل حتى على الأسد الضرعام. وقد وفق أبو تمام بقوله

¹ أبو تمام: الديوان، ج 2، 160 .

² نفسه، ج 1، ص 42.

³ صالح، إبراهيم نجم: جدلية الهدم والبناء في شعر أبي تمام، رسالة ماجستير، جامعة تشرين، سوريا، 2007، ص 82.

⁴ أبو تمام: الديوان، ج 1، ص 241/242.

⁵ الزؤود: الذعر والخوف. لسان العرب مادة (زأد).

(الأسد الضرغام) لأنه الضاري والشديد المقدام من الأسود¹، فإذا كان هذا هو حال الأسد الضرغام عند رؤية الممدوح فكيف هو حال البشر؟

ويأتي أبو تمام بصورة جميلة تدل على شدة هيبته ممدوحه، فلا يقف الأعداء أمامه لشدة خوفهم، وفزعهم منه، يقول في مدح أبي سعيد:²

رَأَهُ الْعُلْجُ مُقْتَحِمًا عَلَيْهِ كَمَا اقْتَحَمَ الْفَنَاءُ عَلَى الْخُلُودِ
فَمَرَّ وَلَمْ يُجَارِ الرِّيحَ خَيْلَتْ لَدَيْهِ الرِّيحُ تَرَسُفٌ فِي الْقَيْوَدِ

فهو يصور اقتحام ممدوحه على العدو فيجعله مثل اقتحام الفناء على الخلود، فكلُّ منهما يُفني، فالفناء ينهي الخلود، والممدوح يُفني العدو، وهي صورة مستمدة من قول مسلم بن الوليد (وكأنه أجلُّ يسعى إلى أمل)³، والعلج عند رؤيته الممدوح يفرُّ مسرعاً يسابق الريح، ولشدة خوفه، وبسبب الحالة النفسية التي يكون عليها يرى الريح تجري ببطء، وكأنها مكبلة بالقيود، وهذا في غاية الجودة حسب وصف الأمدى⁴؛ لأنه يصف الحالة النفسية للعدو وهو يفرُّ من أمام أمام ممدوحه، وقد أثر فيه الخوف والفرع.

وفي المعنى نفسه يقول أبو تمام في مدح أبي ذؤلف القاسم بن عيسى العجلي:⁵

حَيْرَانَ يَحْسَبُ سَجْفًا⁶ النَّقْعَ مِنْ دَهَشٍ طَوْدًا يُحَاذِرُ أَنْ يَنْقُضَ أَوْ جُرْفًا

إنَّ شدة الخوف تجعل الهارب من أرض المعركة في حالة نفسية تجعله يظنُّ أنَّ غبار المعركة جبل يوشك أن يقع عليه، أو أنه جرف في وادٍ على وشك الانهيار، وهذا يدفعه إلى الإسراع في الهرب. ويرى الأمدى⁷ أنَّ أبا تمام أخذ هذا المعنى من قول جرير:⁸

¹ لسان العرب مادة (ضرغم)

² أبو تمام: الديوان، ج 3، ص 253.

³ الأمدى: الموازنة، ج 3، ص 357.

⁴ نفسه، ج 1، ص 157.

⁵ أبو تمام: الديوان، ج 1، ص 423. الأمدى: الموازنة، ج 1، ص 60. وقد وردت فيه (سقفاً) بدل (طوداً).

⁶ السجف هو الستر، لسان العرب مادة (سجف).

⁷ الأمدى: الموازنة، ج 1، ص 67.

⁸ جرير: الديوان، بيروت، دار بيروت للطباعة والنشر، 1986، ص 864. العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله، ديوان المعاني، بيروت، دار الجيل، د.ت، ص 80. النويري، شهاب الدين، نهاية الأرب في فنون الأدب، ص 370. البكري: أخبار أبي الطيب المتنبي، ص 246. وقد ورد البيت عندهم من غير نسبة.

مَا زِلْتَ تَحْسَبُ كُلَّ شَيْءٍ بَعْدَهُمْ خَيْلًا تَكْرُ عَلَيَّكُمْ وَرِجَالًا

وقد أخذه جرير من قوله تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ﴾¹، وقد عدَّ الأخطل هذا سرقةً من كتاب الله عز وجل²، وفي الحقيقة إنَّ جريراً تأثر بالمعنى القرآني. ولكن ما الذي دفع الأمدى إلى القول إنَّ أبا تمام أخذه من جرير؟ ولماذا لا يكون أبو تمام أخذ المعنى من الآية القرآنية أيضاً، وجرير كان له السبق في أخذ المعنى من القرآن، فهذا المعنى متداولٌ عند الشعراء، فأبو نواس قد استخدمه في خمرياته، في قوله:³

فَكُلُّ كَفٍّ رَأَاهَا ظَنَّهُا قَدْحًا وَكُلُّ شَخْصٍ رَأَاهُ ظَنَّهُ السَّاقِي

فها من أثر الخمر، ولكنَّ أبا تمام جعل الحالة النفسية من أثر الخوف الذي انتاب العدو من هيبة الممدوح.

وقد أحسن المتنبي في استخدام هذا المعنى في مدح سعيد بن عبد الله، يقول:⁴

لَمَّا رَأَوْهُ وَخَيْلُ النَّصْرِ مُقْبِلَةٌ وَالْحَرْبُ غَيْرُ عَوَانٍ أَسْلَمُوا الْحِلا
وَضَاقَتْ الْأَرْضُ حَتَّى كَانَ هَارِبُهُمْ إِذَا رَأَى غَيْرَ شَيْءٍ ظَنَّهُ رَجُلًا
فَبَعْدَهُ وَإِلَى الْيَوْمِ لَوْ رَكَضَتْ بِالْخَيْلِ فِي لَهْوَةِ الطُّفْلِ مَا سَعَلَا

يفصلُ المتنبي في وصفه الحالة النفسية التي أصابت الأعداء عندما رأوا ممدوحه مقبلاً نحوهم، وقبل أن يروا فعله، ولهذا نجد أنَّ المتنبي وصف الحرب بعبارة (الحرب غير عوان)؛ لأنَّ الحرب العوان هي التي سبقتها حرب⁵، وهذا يؤكد أنَّ هربهم كان قبل المعركة، ثم ينتقل ليصف الحالة النفسية التي حلت بهم مستفيداً من قوله تعالى: ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّذْبِرِينَ﴾⁶ وحتى تتعمق صورة الخوف جاء بقوله (ضاقَت الأرض)؛ لأنَّ الخائف

¹ سورة المنافقين، الآية (4).

² البكري: أخبار أبي الطيب المتنبي، ص 246.

³ العميدي، محمد بن أحمد: الإبانة عن سرقات المتنبي لفظاً ومعنى، القاهرة، دار المعارف، 1961، ص 77.

⁴ المتنبي: الديوان، ص 17.

⁵ لسان العرب مادة (عون).

⁶ سورة التوبة، الآية (25).

تضيّقُ الدنيا بوجهه فلا يعرف مكاناً يذهب إليه، ثم يصوّرُ المتنبي حالة الهارب الخائف في قوله: (إذا رأى غيرَ شيءٍ ظنّه رجلاً)، وهذا المعنى - كما يصفه العميدي - "هو السحر الحلال الذي رزقه وحرمه غيره"¹ وهو مأخوذ من قوله تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ﴾²، فلا يبقى من العدو في الديار إلا قلة قليلة لا أثر لهم، ولو ركضوا بخيلهم في لهوة الطفل وحلقه ما سعل، وهذا فيه من الإفراط والمبالغة ما يخرج به إلى الإحالة كما يقول الثعالبي³، وهذا المعنى مستمدّ من قول البحترى:⁴

فَرَعُوا بِاسْمِكَ الصَّيْبِيَّ فَعَادَتْ حَرَكَاتُ الْبُكَاءِ مِنْهُ سُكُوتٌ

وفي المعنى نفسه يقول المتنبي:⁵

يَرُونَ مِنَ الذُّعْرِ صَوْتَ الرِّيَّاحِ صَهِيلَ الْجِيَادِ وَخَفَقَ الْبُؤُودِ

فالحالة النفسية تجعل الأعداء من شدّة خوفهم يسمعون صوت الريح، ويظنون أنه صوت صهيل الجياد تلحقهم، أو أنه صوت خفق الرايات، فيشعرون أنهم مطاردون في كل مكان. ويبدو هذا القول أقرب إلى قوله تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ﴾⁶؛ لأنّ المثال المثال السابق اعتمد على البصر، وهذا يعتمد على السمع كما جاء في الآية الكريمة، فإضافة الصوت للرياح تُظهر شدّة الخوف والذعر، فالأعداء يعيشون في رعبٍ دائم، على الرغم من فرارهم من أرض المعركة، ولكنهم لا يمنعون الرياح من صكّ آذانهم، وتذكيرهم بخزيهم وعارهم.⁷

وقد أجاد البحترى في وصفه، وهو يفخر بقومه، مظهرًا هيبتهم بين الناس، يقول:⁸

¹ العميدي، محمد بن أحمد: الإبانة عن سرقات المتنبي لفظاً ومعنى، ص 77.

² سورة المنافقين، الآية (4) .

³ الثعالبي: أبو الطيب المتنبي ما له وما عليه، ص 84.

⁴ البكري: أخبار أبي الطيب المتنبي، ص 246.

⁵ المتنبي: الديوان، ص 54 .

⁶ سورة المنافقين، الآية (4).

⁷ سلطان، منير: البديع في شعر المتنبي التشبيه والمجاز، الإسكندرية، منشأة المعارف، 1996، ص 147.

⁸ البحترى: الديوان، ص 2366.

قَوْمٌ يَحِلُّ لَدَى الْبَرِيَّةِ خَوْفُهُمْ بِمَازِلِ الْأَرْوَاحِ فِي الْأَبْدَانِ

فهذا الوصف الدقيق يُبقي الخوف ملازماً للبرية مثل ملازمة الروح للجسد، فلا يفارقهم إلا بعد موتهم.

وبيّن البحتري ما يتركه الخوف في نفوس الأعداء من أثر، فيصبح همهم الابتعاد عن الأماكن التي يتوقعون وصوله إليها، فيقول في مدح أبي عامر الخضر بن أحمد:¹

فَتَرَى الْأَعَادِي مَا لَهُمْ شُغْلٌ إِلَّا تَوَهُّمَ مَوْقِعِ يَقَعِهِ

والمتنبي يظهر أثر الخوف في نفوس الأعداء من خلال وصف حال الجبان الذي يُحرم النوم، فيقول في مدح علي بن إبراهيم:²

وَكَيْفَ يَبِيْتُ مُضْطَجِعًا جَبَانٌ فَرَشْتُ لِجَنْبِهِ شَوْكَ الْقَتَادِ³
يَرَى فِي النَّوْمِ رُمَحَكَ فِي كُلاهُ وَيَخْشَى أَنْ يَرَاهُ فِي السُّهَادِ

ويرى الجرجاني⁴ أن المتنبي أخذ هذا المعنى من قول أشجع:⁵

وَعَلَى عَدُوِّكَ يَا بَنَ عَمِّ مُحَمَّدٍ رَصَدَانِ ضَوْءِ الصُّبْحِ وَالْإِظْلَامِ
فَإِذَا تَنَبَّهَ رُعْتَهُ وَإِذَا غَفَا سَلَّتْ عَلَيْهِ سَيُوفُكَ الْأَحْلَامِ

ويرى أيضا أن المتنبي قصر في استخدامه كلمة (السهاد)؛ "لأنه أراد أن يقابل بها النوم، وليس كل يقظة سهاد، إنما السهاد امتناع الكرى في الليل، ولا يسمى المتصرف في حاجاته بالنهار ساهداً، وإن كان مستيقظاً"⁶. ولكن الواضح في بيتي المتنبي أنه أراد أن يصف حال الجبان الخائف الذي يُحرم النوم، فيبقى مستيقظاً، ولكنها يقظة لا تجلب له استقراراً؛ لأن هناك

¹ البحتري: الديوان، ص 1250 .

² المتنبي: الديوان، ص 88.

³ القتاد: جمع مفردة قتادة وهي شجرة ذات شوك . لسان العرب مادة (قتد).

⁴ الجرجاني، أبو الحسن علي عبد العزيز: الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق وشرح محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي

محمد الجاوي، ط1، بيروت، المكتبة العصرية، 2006، ص 215 .

⁵ نفسه، ص 215 .

⁶ نفسه، ص 215 .

خوفاً آخر ينتظره، وهو رؤية رُوح الممدوح في الحقيقة، فهذه الحالة النفسية تمنعه النوم. وهذا مغاير لما أراده أشجع فهو يذكر أنّ العدو خائف بالليل والنهار، وأمّا المتنبي فهو يتكلم عن قلة النوم في الليل من شدة الخوف.

ويكرّر المتنبي استخدام هذا المعنى مفتخراً بنفسه، فيقول:¹

مَنْ لَوْ رَأَى مَاءً مَاتَ مِنْ ضَمٍّ وَلَوْ عَرَضَتْ لَهُ فِي النَّوْمِ لَمْ يَنَمْ

ويبيّن المتنبي أثر هيئته على عدوه، فلو أنّ عدوه رآه ماءً لما اقترب من الماء خوفاً ورعباً ولمات من الظمّ، وإذا رآه في المنام حُرِمَ النوم فيبقى ساهداً لا يغمض له جفن.

والهبة تنوب عن صاحبها وتسدُّ مكانه إنْ غابَ عن المعركة، وقد يكون أثرها كبيراً في تحقيق النصر في المعارك، وقد جاء المتنبي بهذا المعنى في مواضع عدّة، منها قوله في مدح سيف الدولة:²

قَدْ نَابَ عَنْكَ شَدِيدُ الْخَوْفِ وَاصْطَنَعَتْ لَكَ الْمَهَابَةُ مَا لَا تَصْنَعُ الْبُهُمُ

إنّ سيف الدولة يُنصر بالرّعب؛ لأنّ هيئته تسبقه إلى الأعداء، فتنشر بينهم الرّعب، الذي يصنع في العدو ما يعجز عنه الشجعان والفرسان، فالمهابة هي مبعوث سيف الدولة الشخصي، فكيف إذا لقي العدو بنفسه؟ وهنا يظهر أثر قول الرسول صلى الله عليه وسلم: "نُصِرْتُ بِالرّعب"³. ويقول المتنبي في مدح أبي العشائر مكرّراً المعنى نفسه:⁴

بَعَثَ الرّعبَ فِي قُلُوبِ الأَعَادِي فَكَانَ القِتَالُ قَبْلَ التَّلَاقِي

¹ المتنبي: الديوان، ص 38.

² نفسه، ص 331.

³ النسائي، أحمد بن شعيب بن علي: سنن النسائي، مكتب المطبوعات الإسلامية، 1994، ج 1، ص 211.

⁴ المتنبي: الديوان، ص 237.

واللقاء الذي قصده المتنبي هنا هو الحرب النفسية التي تجري داخل نفوس الأعداء من شدة الخوف والرعب. فذكرُ اسم ممدوحه في أرض العدو أنفذُ من الشبابِ والنبل، ويظهر هذا في قول المتنبي يمدح أبا الفوارس دليير بن لشقور:¹

وَنَرْمِي أَرْضِيهَا مِنْ اسْمِكَ فِي الْوَعَى بِأَنْفَذَ مِنْ نَشَابِنَا وَمِنْ النَّبْلِ
فَإِنْ تَكُنْ بَعْدَ الْقِتَالِ أَتَيْتَنَا فَقَدْ هَزَمَ الْأَعْدَاءَ ذِكْرُكَ مِنْ قَبْلِ

فاسم الممدوح وهيبته هزمت الأعداء قبل المعركة، فالهيبه تُغيرُ نيابة عن صاحبها في المعارك، يقول المتنبي:²

تُغَيِّرُ عَنْهُ عَلَى الْغَارَاتِ هَيْبَتَهُ وَمَا لَهُ بِأَقَاصِي الْبِرِّ إِهْمَالُ

وفي ذكر الهيبه والخوف والرعب الذي يسكن في نفوس الأعداء، يقول المتنبي مدح علي بن إبراهيم التنوخي:³

بَعِيدُ الصَّيْتِ مُنْبَثُ السَّرَايَا يُشَيِّبُ ذِكْرُهُ الطَّقَلَ الرَضِيْعَا
إِذَا لَمْ تُسِرَّ جَيْشًا إِلَيْهِمْ أَسَرَّتْ إِلَى قُلُوبِهِمُ الْهُلُوعَا
فَلَا عَزْلٌ وَأَنْتَ بِسِلَاحٍ لِحَاطُوكَ مَا تَكُونُ بِهِ مَتِيْعَا

ويوازي المتنبي هيبه ممدوحه بأهوال يوم القيامة، مستفيداً من قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾⁴ فصيتُ ممدوحه يُشَيِّبُ الطفل الرضيع من شدة الخوف والهلع، والهيبه تنوب عن الجيش لأنها تشكّل حرباً نفسيةً على الأعداء فتهلكهم، ونظرات الممدوح تسدُ مكان السّلاح، فهي التي تمنعه، فيصبح في حصنٍ من مهايبته.

وشبيهة بأقوال المتنبي السابقة قول أسامة بن منقذ مفتخراً بشجاعته:⁵

¹ نفسه، 519 .

² : المتنبي: الديوان، ص 487.

³ نفسه، ص 90.

⁴ سورة المزمّل: الآية(17).

⁵ ابن منقذ، أسامة: الديوان، ص 259.

أَنزَلَ الْأَقْرَانَ يُرْدِيهِمْ مِنْ قَبْلِ ضَرْبِ هَامِهِمْ رُعْبِي

ولكنَّ أسامة وضع لفظ الأقران بدل الأعداء، وجعل الخوف يقتلهم قبل الضرب بالسيف، فاستخدامه كلمة (الأقران) بدل (الأعداء) تزيد من هيئته؛ لأنَّ الأقران هم النظراء في الشجاعة والحرب¹، وهذا وصف لقوَّة العدو، فهي مكافئة لقوَّته، ولكنَّ خوفهم منه يقضي عليهم.

ومما يتصل بالهيبه ووصفها ما جاء به المتنبي في مدح سيف الدولة، يقول:²

تَهَابُ سُيُوفُ الْهِنْدِ وَهِيَ حَدَائِدُ فَكَيْفَ إِذَا كَانَتْ نِزَارِيَّةً عُرْبًا
وَيُرْهَبُ نَابُ اللَّيْثِ وَاللَّيْثُ وَحَدَّهُ فَكَيْفَ إِذَا كَانَتْ اللَّيْثُ لَهْ صُحْبًا
وَيُخْشَى عُبَابُ الْبَحْرِ وَهُوَ مَكَانُهُ فَكَيْفَ بِمَنْ يَغْشَى الْبِلَادَ إِذَا عَبَا

ويحاول المتنبي في هذه الأبيات إقناع سامعيه بهيبة ممدوحه، وذلك بالتدرُّج في الإقناع من الكلِّ إلى الجزء، وهذا ما أسماه محمد فتوح بالترقي في تكوين الصورة، فهذا التدرج يخفف ما يمكن أن يكون في الصورة من مبالغة، فيقدِّمها في دُفعات أو جرعة جرعة بالاستعانة بالمحاجة التخيلية أو القياس الشعري³. فالأبيات الثلاثة تحمل المعنى نفسه، ولكن باختلاف الصورة والمعرض⁴، فيبدأ المتنبي بعرض ثلاث حقائق مسلَّم بها وهي: هيبه السيوف الهندية وهي مجرد حديد أصم، وناب الليث وهو بمفرده، وعباب البحر وهو مكانه، فكل من هذه الاشياء الثلاثة هيبه لا يجادل فيها أحد، ويُسلَّم الجميع برهبتها، وهذا يقود إلى التسليم برهبتها وهي أكثر خصوصية، لوجود الفرق بين الحقيقة الأولى والصورة التي يُرتقي منها. وهيبه الممدوح في قلوب أعدائه مثل الحسام كما يظهر في قول المتنبي:⁵

إِنَّمَا هَيْبَةُ الْمُؤَمَّلِ سَيْفُ الْـ دَوْلَةِ الْمَلِكِ فِي الْقُلُوبِ حُسَامُ

¹ لسان العرب، ابن منظور، مادة (قرن).

² المتنبي: الديوان، ص 326.

³ فتوح، محمد أحمد: شعر المتنبي قراءة أخرى، ط2، القاهرة، دار المعارف، 1988، ص 80.

⁴ الجرجاني: الوساطة بين المتنبي وخصومه، ص 177.

⁵ المتنبي: الديوان، ص 262.

ويأتي أبو فراس الحمداني بصورة لهيئة ممدوحه سيف الدولة، فيقول:¹

لَا تَشْغَنِي بِأَمْرِ الشَّامِ أَحْرُسُهُ إِنَّ الشَّامَ عَلَى مَنْ حَلَّهُ حَرَمٌ
فَإِنَّ لِلثَّغْرِ سُورًا مِنْ مَهَابَتِهِ صُخُورُهُ مِنْ أَعَادِي أَهْلِهِ قِمَمٌ

فنرى أبا فراس يحيط الشام بأسوارٍ من هيئة ممدوحه، فهي لا تحتاج إلى من يحرسها.

¹ الحمداني، أبو فراس: الديوان، تقديم وشرح عبد القادر محمد، ط1، حلب، دار القلم العربي، 2000، ص 289.

- الصبر في الشدائد

لا تقتصر الشجاعة على جانب الحرب والقتال، وإنما تتسع لتشمل قدرة الإنسان على الصمود في وجه الشدائد ونوائب الدهر، ولهذا لم يُغفل الشعراء العباسيون هذا الأمر فذكروه في أشعارهم باعتباره مظهراً من مظاهر الشجاعة. ويظهر ذلك في شعر أبي تمام الذي يتحدث عن صبر ممدوحه مالك بن طوق على قومه وتحمله إيّاهم، يقول:¹

لا تجعلوا البغي ظهراً إنّه جملٌ من القطيعة يرعى وادي النقم

فاستعان أبو تمام في هذا البيت بصورة الجمل وما يتصف به من معاني الصبر والتحمل، لوصف صبر ممدوحه.²

بينما يستعين أبو فراس بالجبل وما يتصف به من الثبات؛ ليصف ثبات ممدوحه أمام نوائب الدهر، يقول معزياً سيف الدولة بوفاة ابنه أبي المكارم، ويمتدح جلده وقوته في وجه الحدث:³

يا عمر الله سيف الدين معتبطاً فكل حادثه يرمى بها جملٌ
من كان من كل مفقود لنا بدلاً فليس منه على حالته بدلٌ
يبكي الرجال وسيف الدين مبتسماً حتى عن ابنك تعطى الصبر يا جبلٌ

بدأ أبو فراس بوصف عظم الحوادث والمصائب التي يتعرض لها سيف الدولة، والمصيبة في هذا الموقف هي فقدان أحد أبنائه، وهذا أمر محزن يلجأ فيه الإنسان إلى البكاء؛ لضعفه وعجزه عن الصبر، ولكن سيف الدولة في هذا الحدث الجلل يبتسم، والرجال من حوله يبكون، وهو الأولى بالبكاء منهم، فتبسّمه يدل على صبره وثبات قلبه. وفي موقف مشابه يرثي

¹ أبو تمام: الديوان، ج 2، ص 94.

² المرامحي قابل رشيد: صورة البطل في شعر أبي تمام، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، 1435هـ، ص 170.

³ أبو فراس: الديوان، ص 230.

المتنبي أبا الهيجاء عبد الله بن سيف الدولة، ويمدح سيف الدولة، ويصفه بالصبر والثبات عندما تُلَّمُّ به مصيبة، فيقول:¹

عزاءك² سيفَ الدولةِ المُقتدى به فَإِنَّكَ نَصَلٌ وَالشَّدَائِدُ لِلنَّصَلِ
مُقيمٌ مِنَ الهِجَاءِ فِي كُلِّ مَنْزِلٍ كَأَنَّكَ مِنْ كُلِّ الصَّوَارِمِ³ فِي أَهْلِ
وَلَمْ أَرَ أَعْصَى مِنْكَ لِلْحُزْنِ عِبْرَةً⁴ وَأَثَبْتُ عَقْلًا وَالْقُلُوبُ بِبِلَا عَقْلِ
تَخُونُ الْمَنَايَا عَهْدَهُ فِي سَلِيلِهِ وَتَنْصُرُهُ بَيْنَ الْفَوَارِسِ وَالرَّجْلِ
وَيَبْقَى عَلَى مَرِّ الْحَوَادِثِ صَبْرُهُ وَيَبْدُو كَمَا يَبْدُو الْفِرْنْدُ⁵ عَلَى الصَّقْلِ⁶

فيبدأ المتنبي بوصف نصل السيف الذي لا يُعدُّ إلا للشدائد، و ممدوحه مثل نصل السيف، تربطه علاقة قرابة مع السيوف، وهذا يجعله صابرا في الشدائد، وعصي الدمع عند نزول الحوادث، وأثبت الناس عقلا في المواقف التي تُذهب عقو الرجال. ويعمق المتنبي المصيبة فيجعل الموت يخون سيف الدولة، فيخطف منه ابنه، فهو الذي ينقل الموت كيف يشاء في أرض المعركة، ولكنه هذه المرة أخذ منه سليله، فالمصيبة لم تثن عزمته، فهو مثل السيف الصقيل، مهما تعاقبت عليه الحوادث يبقى في مضائه.

وفي معرض الفخر يقول أبو فراس الحمداني، يصف صبره وصلابة عوده في الشدائد، متخذا من حادثة أسرهِ دليلا على صدق قوله:⁷

فَقَاتِي عَلَى مَا تَعَاهِدَانِ صَالِيَةً وَعُودِي عَلَى مَا تَعَلَّمَانِ صَالِبُ
صَبُورٌ عَلَى طَيِّ الزَّمَانِ وَنَشْرِهِ وَإِنْ ظَهَرَتْ لِلدَّهْرِ فِي نُدُوبِ

¹ المتنبي: الديوان، ص 280.

² عزاءك مفعول مطلق لفعل محذوف، والتقدير (تعزُّ عزاءك).

³ الصوارم جمع مفردة صارم، وهو السيف القاطع الذي لا ينثني. لسان العرب مادة (صرم).

⁴ العبرة الدمعة. لسان العرب مادة (عبر)

⁵ الفرند (بكسر الفاء والراء) السيف نفسه، وفرند السيف جوهره . الزبيدي، مرتضى الحسيني: تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق عبد العزيز مطر، ط2، الكويت، مطبعة حكومة الكويت، 1994، ج3، ص493، مادة (فرند).

⁶ صقل السيف جلاه . لسان العرب مادة (صقل)

⁷ أبو فراس: الديوان، ص56، 55.

وإن فتى لم يكسر الأسر قلبه وخوض المنايا جده نتجيب

ويوضح المتنبي كيفية مواجهة المصائب والتعامل معها في معرض فخره، وهو يمدح

سيف الدولة، فيقول:¹

وإننا لنلقى الحادثات بأنفس كثير الرزايا عندهن قليل

فنفوسهم تستهون الخطوب مهما بلغت، وهذا يعينهم على مواجهتها والتخفيف من أثرها

في نفوسهم. وشبيهة بقول المتنبي قول أسامة بن منقذ في وصف مواجهته الخطوب:²

ألقى الخطوب إذا طرقت بقلب محتسب صبور

فسينقضي زمن الهموم كما انقضى زمن السُرور

فيواجه الخطوب بقلب يؤمن أن الحياة تتقلب من شدة إلى رخاء، ومن عسر إلى يسر،

وهذا من قوله تعالى: ﴿فإن مع العسر يسراً إن مع العسر يسراً﴾³ فهو بذلك "يصف جسارته

وصبره في قالب ينم عن حكمة وخبرة في الحياة"⁴. ويصف قلبه الذي يواجه به الخطوب بأنه

والصبر صديقان لا يفترقان، وقد أقسم على ذلك، فيقول:⁵

قأبي وصبري إلفان منذ خلقنا تقاسما صادقين لا افترقا

أمشي الهويئي والخطب في طلبي يوضع طوراً وتارة عنقا

ما يطمع الدهر بأن أذل ولا تملأ قأبي أهواله فرقا

أحسوا ضلوعي في كل نائبة على فؤاد لا يعرف القلقا

لا يزدهيه خوف الحمام ولا عهدته في ملامة خفقا

¹ المتنبي: الديوان، 360.

² ابن منقذ، أسامة: الديوان، ص 33.

³ سورة الشرح، الأيتان (5،6).

⁴ الرشدي، نواف الحميدي: الصورة الفنية في شعر أسامة بن منقذ، رسالة ماجستير، جامعة مؤتة، المملكة الأردنية

الهاشمية، 2011، ص 77.

⁵ أسامة بن منقذ: الديوان، ص 262، 263

فهذه الصداقة تجعله ساكن القلب؛ لأنّ هذا الصديق يعينه في وقت الشدة، وعندما تنزل الخطوب، فقلبه لا يعرف القلق ولا الخوف. فهو مثل صخرة صلبة لا تضعف ولا تلين، يقول:¹

يقول:¹

لَا تَحْسَبَنَّ الرَّزْءَ أَوْهَى جَأْدِي إِنَّ النَّسِيمَ لَا يَفْضُ الْجُمُودَا
وَهَلْ يَرُوعُ الْخَطْبُ قَلْبَ أَرْوَعِ إِنَّ كَلْبَ الدَّهْرِ عَلَيْهِ أَسِيدَا

فالخطوب مهما تكالبت عليه لا تثني عزيمته، بل تزيده قوة وصلابة، ويحتج لذلك المعنى، فيأتي بصورة توضحه، فالنسيم لا يضعف الصخرة الصلبة، ولا يترك عليها أثر.

- رباطة الجأش

مدح الشعراء العباسيون ممدوحهم بهذه الصفة، وذكروها في مواطن الشجاعة وبخاصة في الحرب، فصوّروا ممدوحهم في المعارك مبتسمين لاهيين، وكأنّ لقاء العدوّ عندهم لقاء الأهل والأحبة، وهذا من علامات ثبات القلب، ففي هذا المعنى يقول بشار بن برد في مدح سليمان بن داوود:²

بَاتَ يُغْنِي وَالْمَوْتُ يُطْلُبُهُ وَالْمَرءُ يَأْهُو وَحَيْثُ هُ³ كَثَبُ

فالموت يتهدّد الممدوح، وهو يغني ويلهو، وهذا لا يكون إلّا للشجاع ثابت القلب. وفي مثل هذا المعنى يقول دعبل الخزاعي:⁴

يُصَافِحُ الْمَوْتَ بِوَجْهِ دَامٍ حُرٌّ رَفِيقٌ وَاضِحٌ بِسَامٍ

فممدوحه يصافح الموت، والمصافحة تدلّ على الاطمئنان، وقوله: (وجه رفيق واضح بسام)، فالوجه الواضح يدل على الثقة وعدم الخوف، ويضاف إلى ذلك (البسام) للدلالة على المبالغة في الضحك، فيكون ذلك أدلّ على ثبات القلب.

¹ اسامة بن منقذ، الديوان، ص 260.

² بشار: الديوان، ص 265.

³ الحين: الهلاك، لسان العرب مادة (حين).

⁴ الخزاعي، دعبل: الديوان، ص 127.

ويُظهِرُ البحتري ممدوحه ضاحكاً في المعركة، فيقول في مدح محمد بن علي القمي:¹

ضَحُوكُ إِلَى الْأَبْطَالِ وَهُوَ يَرُوعُهُمْ وَلِلسَّيْفِ حَدٌّ حِينَ يَسْطُو وَرَوْنَقُ

والضحك في المعركة أظهر للشجاعة وثبات القلب من القطوب، ولهذا أعاب الأمدى

على البحتري قوله:²

تَبَسُّمٌ وَقُطُوبٌ فِي نَدَى وَوَعَى كَالْبَرْقِ وَالرَّعْدِ وَسَطِّ الْعَارِضِ الْبَرْدِ

وقد عدّ الأمدى هذا البيت رديئاً؛ لأنه شبه القطوب بالرعد، وإنما كان ينبغي أن يشبّهه

بالمرئيات لا بالمسموعات، والرعد إنما يوضع موضع التهديد والوعيد، والقطوب في الوعى لا

يدل على الشجاعة، لأنّ الجبان في الحرب مُقَطَّبٌ مُكَلَّحٌ، فليس القطوبة في هذا الحال مدحاً

كالتبسم في حال العطايا؛ لأنّ هذا دليل الكرم، وذلك ليس بدليل الشجاعة، بل دليل الشجاعة

التبسم في الحرب، كما قال (ضحوك إلى الأبطال)³، وقد سبق بشار البحتري في هذا المعنى إذ

إذ قال:⁴

إِذَا مَا تَرَدَّى عَابِساً فَاضَ سَيْفُهُ دِمَاءٌ وَيُعْطِي مَالَهُ إِنْ تَبَسَّما

فذكر العبوس وقت الحرب والتبسم وقت العطاء، وهذا ما قال عنه الأمدى "ليس العبوس

هنا بمدح"⁵. ولقد فضل أبو تمام ممدوحه على الأسد، فقال:⁶

كَاللَّيْثِ لَيْثِ الْغَابِ إِذَا أَنْ ذَا فِي الرَّوْعِ بَسَّامٌ وَذَاكَ شَتِيمٌ⁷

فممدوحه تفوق على الليث لأنه متبسم في أشدّ المواقف.

¹ البحتري: الديوان، ص1496.

² نفسه، ص 575.

³ الأمدى: الموازنة بين الطائيين، ج3، ص 311، 312.

⁴ نفسه، ج 3، ص 312.

⁵ الأمدى: الموازنة، ج 3، ص 312.

⁶ أبو تمام: الديوان، ج 3، ص 290، الأمدى: الموازنة، ج 3، ص 312.

⁷ الشنيم العابيس، لسان العرب مادة (شَنَم).

وقد وصف الأمدى قول البحرى (ضحوك إلى الأبطال) بقوله: "هذا لا شيء أحسن منه ولا ألطف"¹. وأورده عبد القاهر الجرجانى فى الشواهد على التمثيل الغامض المحوج الى الفكرة، وعلق عليه بقوله: "إنّ هذا الضرب فى المعانى كالجوهر فى الصدف، لا يبرز لك إلاّ إن تشقّه عنه، كالعزيز المحتجب، لا يُرىك وجهه حتى تستأذن عليه، ثم ما كلّ فكر يهتدى إلى وجهه للكشف عمّا اشتمل عليه"².

وقد سبق مسلم بن الوليد البحرى واستخدم هذا المعنى، فقال:³

يَقْتَرُّ عِنْدَ افْتِرَارِ الْحَرْبِ مُبْتَسِمًا إِذَا تَغَيَّرَ وَجْهُ الْفَارِسِ الْبَطْلِ

والمتنبى لم يُغفل ذلك المعنى، فاستخدمه فى مدح سيف الدولة، فقال:⁴

وَقَفَّتَ وَمَا فِي الْمَوْتِ شَكٌّ لَوَاقِفٍ كَأَنَّكَ فِي جَفْنِ الرَّدَى وَهُوَ نَائِمٌ
تَمُرُّ بِكَ الْأَبْطَالُ كَلْمَى هَزِيمَةً وَوَجْهُكَ وَضَّاحٌ وَتَغْرُكَ بِاسِمٌ

وقد نقد سيف الدولة هذين البيتين بقوله: "قد نقدنا عليك يا أبا الطيب ما نقدنا على امرئ

القيس فى قوله"⁵ وذكر قول امرئ القيس:⁶

كَأَنِّي لَمْ أَرْكَبْ جَوَادًا لِلدَّذَّةِ وَلَمْ أَتَبَطَّنْ كَاعِيَاءَ ذَاتِ خِلْخَالِ
وَلَمْ أَسْبَأِ الزُّقَّ الرَّوِيِّ وَكَمْ أَقْلُ لِخَيْلِي كُرِّي كَرَّةً بَعْدَ إِجْفَالِ

ويوضّح حازم القرطاجنى النقد الذى أشار إليه سيف الدولة على بيتى المتنبى وبيتى

امرئ القيس فى قوله: "هو أنّ صدر البيت الأول من قول امرئ القيس، يقتضى ظاهر الكلام أنّ

يوصل بعجز البيت الثانى، ويوصل صدر البيت الثانى بعجز البيت الاول"⁷، والأمر نفسه فى

¹ الأمدى، الموازنة، ج 3، ص 311.

² الجرجانى، عبد القاهر: أسرار البلاغة، ص 141.

³ الجرجانى، علي عبد العزيز: الوساطة بين المتنبى وخصومه، ص 260.

⁴ المتنبى: الديوان، ص 378.

⁵ حازم القرطاجنى: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص 159.

⁶ امرؤ القيس: الديوان، ص 127. حازم القرطاجنى: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص 160، 159.

⁷ حازم القرطاجنى: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص 160.

بيتي المتنبي، وقد احتجّ المتنبي لبيتي امرئ القيس قائلاً: "وإذا صح النقد على امرئ القيس صح عليّ، وإنما أراد امرؤ القيس أن يقرن ركوب اللذة بركوب اللذة في بيت، وأن يجمع بين الشجاعة والكرم في بيت¹، وقد أقنع هذا الكلام سيف الدولة دون أن يبرّر المتنبي لقوله، وحازم القرطاجني ساق حجة لقول المتنبي وهو "أنّ أبا الطيب أراد أن يقرن بين أنّ الردى لا نجاة منه لواقف وبين أنّ الممدوح وقف ونجا منه، وبين أنّ الأبطال ريعت وانهزمت، وأنّ سيف الدولة لم يُرع ولم ينهزم، وابتسام الثغر وانبلاج الوجه مما يدل على عدم الروع"².

وقد أورد ابن الناظم بيتي المتنبي للاستدلال على ائتلاف المعنى مع المعنى، وصنّفها ضمن اشتمال الكلام على المعنى وملائمين له، فعجز كلٌّ من البيتين يلائم كلّاً من الصدرين، وقد ذكر ابن الناظم أن هذا الترتيب الذي اختاره المتنبي جاء لأمرين: الأول، قوله (كأنك في جفن الردى وهو نائم) جاء ليتملّ السلامة في موقفٍ يُقَطَع على صاحبه بالموت، وهذا أنسب من جعله ثابتاً في حال هزيمة الأبطال، والثاني تأخير قوله (ووجهك بسّام وثغرك باسم) وهو بمرور الأبطال أمامه كلمى وما في ذلك من زيادة المبالغة، أكثر من تقديمه مع البيت الأول³.

ونرى أنّ أسامة بن منقذ قد استخدم التّبسم في المعركة ليدلّل على الشجاعة وثبات القلب، فيقول في مدح الملك الصالح بن رزيك⁴:

يَسْتَقْبِلُ الْحَرْبَ بِسَّامًا وَقَدْ كَثُرَتْ بِهَا الْمَيِّتَةُ عَنْ أَنْيَابِهَا الْأُرْمِ

إنّ الممدوح يبتسم ويضحك والموت يحيط به من كل جانب، فالشاعر هنا يجري مقارنة بين حال الممدوح في المعركة، والجو السائد على الأرض، الذي يقتضي الخوف والهلع من هول الموقف، وفي مثل ذلك يقول ابن منقذ مفتخراً، ويستخدم المعنى نفسه مظهراً حاله في الحرب والموت من حوله⁵:

¹ حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص 160.

² نفسه، ص 161

³ ابن الناظم، المصباح في المعاني، ص 253/252.

⁴ أسامة بن منقذ: الديوان، ص 245.

⁵ نفسه، ص 259.

أخوضها كثرها ب القذف مُبتسماً طلق المحيياً ووجه الموت قد كَلما

ومن الأمثلة السابقة نرى أن الشعراء استطاعوا من خلال وصف حال ممدوحهم في المعارك، وتبسمهم في وجه الموت، أن يبرزوا شجاعة ممدوحهم، ودون أن تظهر عليهم علامات الخوف، وكأنهم يلهون ويلعبون مع أصدقائهم وأحببتهم، ويؤكد ما قلناه قول البحري في مدح أبي سعيد الثغري:¹

لَقَدْ كَانَ ذَاكَ الْجَاشُ جَاشٌ مُسَالِمٌ عَلَى أَنَّ ذَاكَ الزِّيَّ زِيٌّ مُحَارِبٌ
تَسْرَعُ حَتَّى قَالَ مَنْ شَهِدَ الْوَعَى لِقَاءَ عِدَائٍ أَمْ لِقَاءَ حِبَائِبٍ

فقلب المسالم يكون في ثبات وطمأنينة، والممدوح في مثل حالة المسالم، وهو في أرض المعركة، فحالته النفسية لا تدل على وجوده في الحرب، ولولا زيّ الحرب الذي يرتديه لما عرفنا ذلك؛ لعدم وجود علاماتٍ نفسية تشير إلى وجوده في ساحة المعركة، وقد لجأ الشاعر إلى الطباق بين (مسالم ومحارب) ليشير إلى ذلك، وهذا الأمر يجعل من يشهد المعركة في حيرة من أمره، فلا يستطيع أن يحدد نوع اللقاء، أهو لقاء العدو أم لقاء الأحبّة، مع وجود ما يمنع أن يكون اللقاء لقاء أحمية، لأن الزيّ الذي يلبسه الممدوح لباس حرب، فلا يبقى إلّا ما أراده الشاعر وهو إظهار شجاعة ممدوحه وثبات قلبه. وهذا كما يقول صاحب ديوان المعاني "أجود ما قيل في سكون الجاش في الحرب"²، فلباس الحرب لا يكون إلّا للحرب، بينما ثبات القلب ورباطة الجاش يكون في حالة السلم، وينفرد به الشجاع في الحرب.

وشبيهه بقول البحري السابق قول المتنبي في مدح سيف الدولة يصف سكون قلبه في

الحرب، يقول:³

والذي يَشْهَدُ الْوَعَى سَاكِنَ الْقَلْبِ كَأَنَّ الْقِتَالَ فِيهَا نِمَامٌ

¹ البحري: الديوان، ص 178.

² أبو هلال العسكري: ديوان المعاني، ص 114.

³ المتنبي: الديوان، ص 26.

ويجعل المتنبي بين ممدوحة والقتال عهداً، فهو يسكن في الحرب مثل سكونه في السلم،
"وكان القتال الذي يكون في الحرب عهد وأمان"¹، ويذكر الواحدي² في شرحه ديوان المتنبي أن
هذا البيت مأخوذ من بيت البحتري:

مُتَسَرِّعِينَ إِلَى الْحُتُوفِ كَأَنَّمَا بَيْنَ الْحُتُوفِ وَبَيْنَهُمْ أَرْحَامُ

وهذا ما ذكره البكري في أخبار أبي الطيب دون أن ينسب البيت³.

ومن المظاهر التي استخدمها الشعراء لإظهار رباطة الجأش عند ممدوحهم هو
الاطمئنان في أماكن لا ينبغي فيها الاطمئنان، ويتضح ذلك في قول أبي تمام في مدح أبي سعيد
الثغري⁴:

غَادَرْتَ أَرْضَهُمْ بِخَيْلِكَ فِي الْوَعَى فَكَأَنَّ أَمْنَعَهَا لَهَا مِضْمَارُ
فَأَقَمْتَ فِيهَا وَادِعَاءً مُتَمَهَّلًا حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهَا لَكَ دَارُ

فجعل أبو تمام ممدوحه آمناً مطمئناً لا تظهر عليه علامات الخوف، وهو في أرض
العدو، والدليل على ذلك إقامته فيها وتمهله، حتى ظنَّ من رآه أنه يجلس في بيته ومحل أنسه.

وفي موضع آخر يقول البحتري في مدح أبي سعيد الثغري⁵:

وَوَصَلْتَ أَرْضَ الرُّومِ وَوَصَلَ كَثِيرٌ أَطْلَالَ عَزَّةَ فِي لَوَى تَيْمَاءِ

فملازمة الممدوح أرض العدو وعدم مفارقتها لها كوصل الحبيب لديار محبوبته، فاستعان
البحتري في هذا المعنى بقصة كثير مع عزّة، وهي قصة الحب المعروفة، وكانَّ البحتري في
هذه الأبيات يعيد المعنى الذي جاء به في قوله: (تسرّع حتى قال من شهد الوعى...)، ولكنه هنا
اتكأ على التراث. وهذا ما جعل الأمدي يفضل هذه الأبيات على أبيات أبي تمام السابقة، فقال

¹ المتنبي: الديوان، شرح أبي العلاء المعري، تحقيق عبد المجيد دياب، دار المعارف، ط 1990، ج 3، ص 32.

² المتنبي: الديوان، شرح الواحدي، ص 385.

³ البكري: أخبار أبي الطيب، ص 262.

⁴ أبو تمام: الديوان، ج 1، ص 326.

⁵ البحتري: الديوان، ص 10.

عن أبيات أبي تمام: "هذا معنى حسن ولطيف، وأحسن منه وأجود وأحلى قول البحتري... ذكّر كثيراً وأطلال عزة فوضع القول في موضعه الذي يليق به، وهذا في غاية الحسن والصحة، يصلح أن يكون مثلاً لكل شيء أدام الملازمة لشيء"¹.

وقد عبّر الشعراء العباسيون عن ثبات القلب بحديثهم عن عدم الخوف من العدو، مهما كان عددهم وعدّتهم، ويظهر ذلك في قول بشار يفتخر بقومه، فيقول:²

وَكُنَّا إِذَا دَبَّ الْعَدُوُّ لِسَخَطِنَا فَرَأَيْنَا فِي ظَاهِرٍ لَا نَرَقُبُهُ
رَكِبْنَا لَهُ جَهْرًا بِكُلِّ مَثَقَفٍ وَأَبْيَضَ تَسْتَسْقِي الدَّمَاءَ مَضَارِبَهُ

فالشاعر يوازن بين حال العدو وحال قومه، فالعدو يستطلع أمرهم وعددهم وعدّتهم؛ لوضع حسابات المعركة، فيقرّر الإقدام على الحرب من عدمه، لكنّ قوم الشاعر لا يرقّبون العدو ولا يسألون عن عدده وعدّته؛ لأنّ ذلك لا يخيفهم ولا يحسبون له حساباً. ومن خلال التضاد الذي كشف عنه الشاعر بين حال العدو وحال قومه، أظهر الشاعر خوف الأعداء وجعلهم في حالة مراقبة دائمة، لكنّ قومه يدخلون المعركة بقلوب ثابتة، واثقين بشجاعتهم وقدرتهم على هزم العدو، وهذا يثبت قدرة الشاعر على اختيار الصورة بإتقان³. ويؤكد عدم خوف قوم الشاعر قوله: (ركبنا له جهراً) وهذا يدلّ على الثقة بالنفس.

وشبيهه بقول بشار السابق قول أبي تمام:⁴

إِذَا اسْتُنْجِدُوا لَمْ يَسْأَلُوا مَنْ دَعَاهُمْ لِأَيَّةِ حَرْبٍ أَوْ لِيَأَيِّ مَكَانٍ

وهذا في نجدة الآخرين، وفي القتال لنصرتهم، فهم لا يسألون من استنجد بهم أين نذهب، ومن نقاتل، وهذا لتقّتهم بشجاعتهم وقدرتهم.

¹ الأمدي: الموازنة، ج 3، ص 348.

² بشار: الديوان، ص 334.

³ الشمري، سمير حسن، وكمال عبد الفتاح السامرائي: إبحاء الكلمات في الشعر العباسي دراسة تأويلية في قصيدة الاختيار ورمزية التعبير، مجلة مركز باجل للدراسات الإنسانية، المجلد 4، العدد 2، ص 166.

⁴ أبو هلال العسكري: ديوان المعاني، ص 34. وقد ذكر أنّ هذا البيت شبيهه بقول حسان بن ثابت وهو أمدح بيت قالتسه

العرب: (يغشون حتى ما تهر كلابهم لا يسألون عن السواد المقبل)

ويؤكد البحري ثبات قلب ممدوحه، بحيث لا يمكن أن يُروَّع في الحرب، يقول في مدح

الفتح ابن خاقان:¹

هَجُومٌ عَلَى الْأَعْدَاءِ مِنْ كُلِّ وَجْهَةٍ إِذَا هَجَّجُوا فِي وَجْهِهِ لَمْ يُرَوَّعْ

ويفصل ابن الرومي في شجاعة بني شيبان وثبات قلوبهم، ويصفهم بأنهم أناسٌ لا

يرهبون في أصعب المواقف، يقول:²

لِلَّهِ شَـيْبَانُ قَوْمًا لَا يُشَـيِّبُهُمْ رَوْعٌ إِذَا الرَّوْعُ شَابَتْ مِنْهُ وَلِدَانُ
لَا يَرْهَبُونَ إِذَا الْأَبْطَالُ أَرْهَبَهُمْ يَوْمَ عَصِيبٍ وَهُمْ فِي السَّلْمِ رُهْبَانُ
حَلَّوْا الْفَضَاءَ وَلَمْ يَبْنُوا فَلَيْسَ لَهُمْ إِلَّا الْقَتَا وَإِطَارَ الْأَفْقَ حَيْطَانُ
وَلَا حُصُونَ إِذَا مَا آتَسَوْا فَرَعَاً إِلَّا نِصَالٌ مَعْرَاةٌ وَخُرْصَانُ³

يسوق ابن الرومي دلائل عدة تثبت فكرته التي يريد أن يوصلها، وهي أن بني شيبان لا

يُروَّعون ولا يخافون، فاستعان بقوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾⁴،

شيبًا⁴، فبني شيبان لا يشيبون حتى لو كان الروع تشيب منه الولدان، ويؤكد ابن الرومي ما

ذكره ولكن بصورة مختلفة، فهم يتفوقون على الأبطال الذين يمكن أن يرهبهم يوم عصيب،

ويسوق دليلاً آخر يؤكد عدم خوفهم وثقتهم بأنفسهم، فهم يسكنون الفضاء، فلم يتخذوا بناياتٍ

وحصونا تحميهم، بل يعتمدون على شجاعتهم وقوتهم وسيوفهم ورماحهم.

ويظهر المتنبي عدم خوف ممدوح، فيقول:⁵

أَحْبُّكَ أَوْ يَقُولُوا جَرَّ نَمْلٌ تَبِيرٌ⁶ أَوْ ابْنُ إِبْرَاهِيمَ رِيْعَا

¹ البحري: الديوان، ص 1240.

² ابن الرومي: الديوان، ج 3، ص 373.

³ الخرصان: الرماح . لسان العرب مادة (خرص).

⁴ سورة المزمل، الآية (17) .

⁵ المتنبي: الديوان، ص 89.

⁶ تبير اسم جبل بمكة، لسان العرب مادة (تبّر).

في هذا البيت تخلص المتنبي من موضوع الغزل الذي بدأ به قصيدته، ودخل إلى المدح، ويصفه الجرجاني بأنه تخلص مستكره، وهذا هو المثال الوحيد لهذا النوع من التخلص ولكنه ليس من المستهجن الساقط¹.

فالمتنبي قد حقق هدفين من هذا البيت: الأول الانتقال من الغزل الذي بدأ به قصيدته إلى الموضوع الرئيس للقصيدة وهو المدح، والثاني إثبات قوة قلب ممدوحه وثباته، فجاء بأمر مستحيل الحدوث وهو أن يجزَّ النملُ جبلُ ثبير، وقارنه بأمر آخر ليكون بمثابة المستحيل، وهو أن يُراع ممدوحه، ولهذا وفق المتنبي في إيصال المعنى الذي أراده حتى لو أن التخلُّص كان مستكرهاً كما قال الجرجاني.

وفي معرض الفخر يفخر المتنبي برباطة جأشه، جامعاً مقومات الشجاعة التي تكون عند الفارس، يقول: ²

الْخَيْلُ وَاللَّيْلُ وَالْبَيْدَاءُ تَعْرِفُنِي وَالْحَرْبُ وَالضَّرْبُ وَالْقِرطَاسُ وَالْقَلَمُ

جمع المتنبي في هذا البيت مقومات الشجاعة وهي: الفروسية والسير في الليل الذي يحتاج إلى قوة قلب، ورباطة الجأش، وقطع القفار والأراضي الموحشة، وخوض الحروب. وكان هذا البيت سبباً في مقتل المتنبي³، فالليل لا يسير فيه إلا الشجاع ثابت القلب كما قال شبيب الخارجي: "الليل يكفيك الجبان ونصف الشجاع"⁴.

- بذل النفس

ظهرت الشجاعة في أسمى صورها في بذل النفس وتقديمها من أجل الآخرين، وهي من الصفات التي جمعت شيمتي الشجاعة والكرم، فقد عمد الشعراء إلى الجمع بين الشيمتين

¹ الجرجاني، علي عبد العزيز: الوساطة بين المتنبي وخصومه، ص 137. الثعالبي: أبو الطيب المتنبي ما له وما علي، ص 93.

² المتنبي: الديوان، ص 233. ابن رشيق: العمدة، ص 75. وقد أورد (الطعن) بذل الحرب.

³ ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار صادر، د.ت، ص 132.

⁴ الدينوري، ابن قتيبة: عيون الأخبار، تحقيق لجنة دار الكتب المصرية، ط2، القاهرة، دار الكتب المصرية، 1996، ص 116.

لتلازمهما معاً، يقول قدامة في حديثه عن تلازم الشجاعة والكرم: "وأما مدحُ القائد فيما يجانب البأس والنجدة، ويدخل في باب شدة البطش والبسالة، فإن أُضيف إلى ذلك المدح الجود والسماحة والتخرق في البذل والعطيّة، كان المديحُ حسناً، والنعتُ تاماً إذ كان السخاء أخصاً الشجاعة"¹، فالجود والشجاعة ينبعان من عينٍ واحدة، وهي قوة النفس وبعد الهمة؛ ولذلك قيل: "لا يكون الشجاع إلا جواداً"².

وقال ابن أبي خالد: "لا تعدنّ نفسك شجاعاً حتى تكون جواداً، فإنك إن لم تقو على أن تقاوت نفسك على البخل، لا تقدر على عدوك في القتل"³، فلا غرابة أن يكون من يجود بنفسه أكرم ممن يجود بماله، لأنّ النفس أعلى من المال، وفي ذلك يقول أبو فراس الحمداني:⁴

وَنَدَعُو كَرِيماً مَن يَجُودُ بِمَالِهِ وَمَنْ يَبْذُلُ النَّفْسَ النَّفِيسَةَ أَكْرَمُ
تُهَيِّنْ عَلَيْنَا الْحَرْبُ نَفْساً عَزِيزَةً إِذَا عَاضَنَا مِنْهَا التَّثَاءُ الْمُنْعَمُ

فالشاعر يستنكر المساواة بين من يجود بماله ومن يجود بنفسه؛ لأنّ الجود بالنفس يحتاج شجاعةً أكبر ممن يجود بماله، ففي الحرب تهون النفوس الكريمة.

إن نظرة الشعراء العباسيين العميقة للرابطة القوية، التي تجمع شيمتي الكرم والشجاعة، جعلتهم يتحدّثون عن بذل النفس في هاتين الشيمتين؛ لأنّ الجمع بينهما يجعل المديح حسناً والنعت تاماً، يقول أبو تمام في مدح خالد بن يزيد بن مزيد الشيباني:⁵

¹ قدامة بن جعفر: نقد الشعر، ص 109.

² الزمخشري، أبو القاسم جار الله: ربيع الأبرار ونصوص الأخبار، تحقيق عبد الأمير مهنا، ط 1، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، 1992، مجلد 4، ص 380.

³ الاصفهاني، أبو القاسم حسين بن محمد الراغب: محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، بيروت، دار مكتبة الحياة، د.ت، مجلد 2، ص 569.

⁴ أبو فراس: الديوان، ص 281. الثعالبي: التمثيل والمحاضرة، ص 109. الثعالبي: أحسن ما سمعت، ص 129. النويري: نهاية الأرب، مجلد 3، ص 100. العنّابي، شهاب الدين: نزهة الأبصار في محاسن الأشعار، تحقيق مصطفى السنوسي، وعبد اللطيف أحمد، ط 1، الكويت، دار القلم للنشر، 1986، ص 104. العبيدي، محمد بن عبد الرحمن: التذكرة السعدية في الأشعار العربية، تحقيق عبد الله الجبوري، النجف، مطابع النعمان، 1972 ص 206.

⁵ أبو تمام: الديوان، ج 1، ص 223.

وَإِذَا رَأَيْتَ أَبَا يَزِيدٍ فِي نَدَى وَوَعَى وَمُبْدئَ غَارَةٍ وَمُعِيدَا
يُقْرِي مُرَجِيهِ مَشَاشَةَ مَالِهِ وَشَبَا الْأَسِنَّةِ ثَغْرَةَ وَوَرِيدَا
أَيَقْنَتَ أَنْ مِنَ السَّمَّاحِ شَجَاعَةً تُدْمِي وَأَنَّ مِنَ الشَّجَاعَةِ جُودَا

يصف أبو تمام ممدوحه في حالتي الندى والحرب، ففي الندى يُعطي المال، وفي الحرب يعطي السهام والرماح، ويخرج أبو تمام باستنتاج مفاده أن الشجاعة والكرم متداخلان لا يمكن الفصل بينهما، فالنفس لا تسخو إلا بالشجاعة ولا شجاعة إلا بعد أن تسخو النفس.

وتحدّث المنتبّي عن التلازم بين الشجاعة والكرم في مدحه سيف الدولة، فهو يدرك أن الجمع بينهما يُتمّم الوصف، ويجعل من المديح تاماً غير منقوص، فممدوحه يعدُّ البخل من الجبن ويعدُّ الجبن من البخل، فيقول:¹

هُوَ الْجَوَادُ يَعُدُّ الْبُخْلَ مِنْ جُبْنٍ وَهُوَ الْجَوَادُ يَعُدُّ الْجُبْنَ مِنْ بُخْلِ

ونرى أبا فراس الحمداني يجمع بين الشجاعة والكرم باستخدامه الكناية في فخره بفتيان بني حمدان، فيقول:²

يُلُوحُ بِسَيْمَاهُ الْفَتَى مِنْ بَنِي أَبِي وَتَعْرِفُهُ مِنْ غَيْرِهِ بِالشَّمَائِلِ
مُفْدَى مُرْدَى يَكْثُرُ النَّاسُ حَوْلَهُ طَوِيلُ نَجَادِ السَّيْفِ سَبْطُ الْأَنَامِلِ

فقوله (طويل نجاد السيف) كناية عن الطول والقدرة وهي من علامات الشجاعة، وقوله (سبط الأنامل) أي طويل الأصابع أو مبسوطها، كناية عن الكرم.

ويرى ابن المعتز أن بذل النفس من الجود، فيجمع بين الشجاعة والكرم مفتخراً:³

وَكُنَّا مَعْتَشَرًا خُلُقُوا كِرَامًا نَرَى بَذْلَ النَّفُوسِ مِنَ السَّمَّاحِ

¹ المنتبّي: الديوان، ص 223. الثعالبي، أبو منصور: يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، شرح وتحقيق مفيد محمد قميحة، ط 1، بيروت، دار الكتب العلمية، 1983، مجلد 1، ص 153. الجرجاني: الوساطة، ص 194، وقد أورده بلفظ (هو الشجاع).

² أبو فراس: الديوان، ص 255.

³ ابن المعتز: الديوان، ص 244.

ويرى أبو الشَّيْصِ الخُزَاعِي أَنَّ الجُودَ بِالنَّفْسِ أَرْفَعُ دَرَجَاتِ الجُودِ وَأَسْمَاهَا، فيقول:¹

أَمْسَى يَقِيكَ بِنَفْسٍ قَدْ حَبَاكَ بِهَا وَالجُودُ بِالنَّفْسِ أَقْصَى غَايَةِ الجُودِ

وَيَتَّفِقُ مُسْلِمُ بنِ الوَلِيدِ مَعَ أَبِي الشَّيْصِ فيقول مادحاً داوود بن يزيد المهلبي:²

تَجُودُ بِالنَّفْسِ إِذْ أَنْتَ الضَّنَّيْنِ بِهَا وَالجُودُ بِالنَّفْسِ أَقْصَى غَايَةِ الجُودِ

نرى في هذا البيت جدّة المعنى ودقّة التعبير وروعة التصوير التي جعلت النقاد القدامى يعدون ما قاله أجود بيت قالته العرب³، وأمدح بيت⁴، ولكنّ الخلاف بينهم كان في الغرض من المدح، فالأصفهاني يرى أنّه مدحه بالشجاعة⁵، والنويري يقول: "هو مما يجوز إيرادها في الشجاعة والكرم"⁶، وقول النويري أقرب إلى الصواب؛ لأنّه ذكر جواز ذلك في الشجاعة والكرم، فلا تستطيع أن تقول مدحه بالشجاعة دون الكرم ولا بالكرم دون الشجاعة؛ لأنّ ذلك يمكن أن يدخل في الذم؛ لأنّ الشعراء العباسيين أكثروا من الجمع بين الشيمتين فلم يُمدح أحدٌ بالشجاعة إلا ومُدح بالجوّد والكرم، ولم يمدح أحدٌ بالكرم إلا ومدح بالشجاعة على الأغلب.

وقد ذكر الشعراء العباسيون بذل النفس في الحرب والقتال، ليكون ذلك أدلّ على شجاعة ممدوحهم وقوتهم، ومن ذلك قول بشار بن برد، يمدح سليمان بن داوود⁷:

سَاقِي الحَجِيجِ أَبُوهُ الخَيْرَ قَدْ عَلِمَتْ عَلِيَا قُرَيْشٍ لَهُ الغَايَاتُ والقَصَبُ

¹ القيرواني، ابن رشيق: قراضة الذهب في نقد أشعار العرب، تحقيق الشاذلي بو يحيى، تونس، الشركة التونسية للتوزيع، 1972، ص 84.

² مسلم بن الوليد: الديوان، ص 164. وقد ورد عند الأصفهاني: الأغاني، ج 19، ص 34. ابن رشيق: قراضة الذهب، ص 84. ابن قتيبة الشعر والشعراء، ج 2، ص 247. الجرجاني، الوساطة، 195، البصري، صدر الدين علي بن أبي الفرج: الحماسة البصرية، تحقيق عادل سليمان جمال، القاهرة، لجنة إحياء التراث الإسلامي، 1978 مجلد 2، ص 499. بلفظ (إذ صنّ الجواد). ابن عبد ربه، أبو عمر أحمد بن محمد الأندلسي: العقد الفريد، شرح وضبط، أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الإبياري، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1968، ج 1، ص 293، ونسبه لأبي تمام.

³ ابن قتيبة: الشعر والشعراء، مجلد 2، ص 247.

⁴ العسكري: ديوان المعاني، ص 102.

⁵ الأصفهاني: الأغاني، مجلد 19، ص 34.

⁶ النويري: نهاية الأرب، مجلد 3، ص 202.

⁷ بشار بن برد: الديوان، ج 1، ص 260، 261.

وَأَفَى حُنَيْنًا بِأَسْيَافٍ وَمُقَرَّبَةً شَعَثَ النَّوَاصِي بِرَاهَا الْقَوْدُ وَالْخَبَبُ
يُعْطِي الْعَدَى عَنِ رَسُولِ اللَّهِ مُهْجَتَهُ حَتَّى ارْتَدَى زِينَهَا وَالسَّيْفُ مُخْتَضِبُ

فهو يمدحه من خلال استحضار صورة تاريخية لأجداده في معركة حنين، وافتداء عليّ بن أبي طالب رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه، بعد فرار جيش المسلمين من أرض المعركة، وهذا جعل الشجاعة فيهم متوارثة.

وبذل النفس من أجل الآخرين هو رأس الشجاعة والبذل والتضحية، وهذا ما أوضحه أبو فراس في مدحه سيف الدولة، ويطلب منه اصطحابه إلى ديار بكر، يقول¹:

تَفْدِي بِنَفْسِكَ أَقْوَاماً صَنَعْتَهُمْ وَكَانَ حَقَّهُمْ أَنْ يَفْتَدَوْكَ
فممدوحه يفدي الآخرين بنفسه وهو الذي علمهم الحرب والشجاعة، ومن حقه أن يفتدوه بأنفسهم، ولكنه لا يحتاج إلى ذلك.

ويأتي ابن المعتز بصورة لفتيان الحرب، وهم يحملون الرماح، فكأنهم وعول² والرماح قرونها، يقول في مدح الموفق بالله²:

وَفِتْيَانٌ هَيَّجَا بِأَذْلِينَ نَفُوسَهُمْ كَأَنَّهُمْ تَحْتَ الرَّمَّاحِ وَعُؤُلُ

وفي ذكر بذل النفس في المعركة، يقول المفضل بن المهلب³:

هَلِ الْجُودُ إِلَّا أَنْ نَجُودَ بِأَنْفُسِ عَلَى كُلِّ مَاضِي الشَّفَرَتَيْنِ قَضِيبُ

فالإحجام عن القتال خوف الموت هو الجُبُنُ بعينه، والشجاعة في نظره بذل النفس تحت ظلال السيوف.

¹ أبو فراس: الديوان، ص 288.

² ابن المعتز: الديوان، ص 303 .

³ المبرد أبو العباس محمد بن يزيد: الكامل في اللغة والأدب، تحقيق محمد أحمد الدالي، ط3، بيروت مؤسسة الرسالة، 1997، مجلد1، ص 403.

والجبن ضرب من البخل، وهذا المعنى أورده الشريف الرضي في حديثه عن بذل النفس

في المعركة، فقال:¹

سَأَبْذُلُ دُونَ الْعِزِّ أَكْرَمَ مُهْجَةٍ إِذَا قَامَتِ الْحَرْبُ الْعَوَانِ عَلَى رَجَلٍ
وَمَا ذَاكَ أَنَّ النَّفْسَ غَيْرَ نَفْسَةٍ وَلَكِنْ رَأَيْتُ الْجُبْنَ ضَرْبًا مِنَ الْبُخْلِ

- مواجهة الموت

خلق الله الإنسان وقدر عليه الموت، وجعل له موعداً، ولكن النفس البشرية تبقى متوجساً وخائفة من هذه اللحظة، ولذلك يحاول الإنسان ما استطاع أن يبتعد عن كل المخاطر التي يمكن أن تقربه منها، ولكن هذا لا ينفذ ولا يفيد، يقول تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ﴾²، وقال أيضاً: ﴿سَيَذَرُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بَرُوجٍ مَشِيدَةٍ﴾³، وقد جاء أسامة بن منقذ بما يحمل معنى الآيتين السابقتين، فقال:⁴

يُجْهَلُ فِي الْإِفْدَامِ رَأْيَ مَعَاشِرٍ أَرَاهُمْ إِذَا فَرُّوا مِنَ الْمَوْتِ أَجْهَلًا
أَيْرَجُّو الْفَتَى عِنْدَ انْقِضَاءِ حَيَاتِهِ وَإِنْ فَرَّ عَنْ وَرْدِ الْمَنِيَّةِ مُزْحَلًا

ويؤكد ابن الرومي حقيقة الموت الذي لا يترك أحداً مهما كان، ومهما أحاط نفسه بالعتاد

والرجال، يقول في رثاء محمد بن عبد الله بن طاهر:⁵

إِنَّ الْمَنِيَّةَ لَا تَبْقَى عَلَى أَحَدٍ وَلَا تَهَابُ أَخَا عِزٍّ وَلَا حَشَدٍ
هَذَا الْأَمِيرُ أَتَتْهُ وَهُوَ فِي كَنَفٍ كَاللَّيْلِ فِي عُدَدٍ مَا شِئْتَ أَوْ عَدَدٍ
مِنْ كُلِّ مُسْتَعْذِبٍ لِلْمَوْتِ دَيْدُنُهُ بَرُّ الْكُمَاةِ وَلُبْسُ الْبَيْضِ وَالزَّرْدِ

ويتخذ من الأمير مثلاً ليؤكد صحة ما يقول، فالموت جاءه وهو بين جيشٍ كثيفٍ كالليل

في العدد والعدة، يحيط به كل من يستعذب طعم الموت.

¹ الثعالبي: يتيمة الدهر، مجلد 3، ص 174.

² سورة الجمعة، الآية (8).

³ سورة النساء، الآية (78).

⁴ أسامة بن منقذ: الديوان، ص 269.

⁵ ابن الرومي: الديوان، ص 405.

ولأنَّ الموت نهاية كلِّ إنسان، كان استقباله برباطة جأش أفضل من الهرب، فالشُّجاع يُحصِّن نفسه بشجاعته، وتحميه جرأته، فهو يستعذب الموت، ويسترخص القتل، ويسرع الخطو إليه، فلا يعرف الإحجام، بل يعرف شقَّ الجباه وطعن النُّحور، وإزهاق النفوس¹. وبذلك كان وجود الموت هو الحد الذي يميِّز الشُّجاع من الجبان، فلولا له لما كان فضلٌ لشجاع، وما كانت الشُّجاعة تعني شيئاً، وهذا ما تحدّث عنه المتنبّي في قوله:²

ولا فَضْلَ فِيهِ لِلشُّجَاعَةِ والنَّدَى وَصَبْرِ الفَتَى لولا لقاء شَعُوبٍ³

وقد علّق ابن جنّي على هذا البيت بقوله: "لو أَمِنَ النَّاسَ الموت لما كان للشُّجاع فَضْلٌ؛ لأنّه قد أيقن بالخلود، فلا خوفٌ عليه، وكذلك الصّابِر والسّخّي؛ لأنّ في الخلود وتنفّل الأحوال فيه من عسرٍ إلى يسر، ومن شدّةٍ إلى رخاء ما يُسكِّن النفوس"⁴.

ولكنّ ابن سنان الخفاجي يرى أنّ وجود كلمة النَّدَى حشوٌّ في البيت يُفسد المعنى؛ لأنّ الشُّجاع إذا علِمَ أنّه يخلد فلا فضلٌ لشجاعته، وكذلك الصّابِر، ولكنّ النَّدَى مخالفٌ لذلك، فالإنسان إذا علم أنّه ميت، هان عليه بذل ماله، أمّا إذا علم أنّه يخلد في الدنيا، ثم جاد بماله، فإنّ كرمه يكون أفضل⁵. وقد أخذ بهذا الرأي أحمد مطلوب، يقول: "إنّ الشُّجاع لو علِمَ أنّه يخلد في الدّنيا، لم لم يخشَ الهلاك في الإقدام، فلم يكن لشجاعته فضل، بخلاف الباذل ماله، إنّه إذا علم أنّه يموت هان عليه بذله"⁶.

وقول ابن جنّي أقرب إلى الصواب؛ لأنّ علِمَ الإنسان بخلوده في الدنيا يُسهّل عليه الصّعاب، فالحياة متقلّبة لا تدوم على حال، فالإنسان يبخل بماله خوفاً من الفقر والهلاك؛ لأنّ

¹ ضيف، شوقي: البطولة في الشعر العربي، ص 17، 18.

² المتنبّي: الديوان، ص 322 .

³ شعوب: المنية لأنها تفرق . لسان العرب مادة (شعب)

⁴ ابن جنّي، أبو الفتح عثمان: تفسير أبيات المعاني ديوان المتنبّي أو الشرح الصغير، تحقيق رضا رجب، ط1، دمشق، رند للطباعة والنشر، 2010، ص 55.

⁵ ابن سنان الخفاجي: سر الفصاحة، ص 150.

⁶ مطلوب، أحمد: أساليب بلاغية، ط، الكويت، وكالة المطبوعات، 1980، ص 215.

المال هو قوام النَّفس، فإذا أَمِنَ الهلاك أنفق ما بيده لأنه يعلم أنَّ الحياةَ تَتَّابوَبُ بين العسر واليسر.

وفي المعنى نفسه يقول المتنبي حائثاً على الشجاعة:¹

وَلَوْ أَنَّ الْحَيَاةَ تَبَقَى لِحَيٍّ لَعَدَدْنَا أَضْلَانَا الشُّجْعَانَ
وَإِذَا لَمْ يَكُنْ مِنَ الْمَوْتِ بُدًّا فَمِنَ الْعَجْزِ أَنْ تَكُونَ جَبَانًا

فالمتنبي يفترض افتراضاً، لو أنَّ الحياةَ تدوم، لكانت شجاعة الشَّجْعَانِ لا معنى لها، ويعود ليؤكد أنَّ الموت لا مفرَّ منه سواء أكان الإنسان شجاعاً أم جباناً، فلا مبرر للجبن؛ لأنه لا يحمي من الموت. ولذلك نجد الشعراء قد فضلوا الموت في الحرب على العيش الذليل، وهذا يظهر في قول أبي فراس يفتخر بشجاعته، فيقول:²

مَتَى مَا يَدُنْ مِنْ أَجَلٍ كِتَابِي أُمْتُ بَيْنَ الْأَعْنَةِ وَالْأَسِنَّةِ
وَمَوْتُ فِي مَقَامِ الْعِزِّ أَشْهَى إِلَى الْفُرْسَانِ مِنْ عَيْشٍ بِمِهْنَةٍ

فهو يطلب الموت في أرض المعركة؛ لأنه فارسٌ شجاع، والفارسُ لا يرضى العيش الذليل ويفضِّلُ عليه الموت بعزَّة، وكرامة. وفي مثل هذا يقول المتنبي في رثاء أبي وائل تغلب بن داوود ابن حمدان:³

يَأْنَفُ مِنْ مَيْتَةِ الْفِرَاشِ وَقَدْ حَلَّ بِهِ أَصْدَقُ الْمَوَاعِيدِ
وَمِثْلُهُ أَنْكَرَ الْمَمَاتِ عَلَى غَيْرِ سُرُوجِ السَّوَابِحِ الْقُودِ
بَعْدَ عِثَارِ الْقَتَا بِلُبَّتَيْهِ وَضَرْبِهِ أَرْوُسِ الصَّانِدِ

فتغلب بن داوود يتزفَعُ عن الموت بالفراش، ويرفضه في أيِّ موقفٍ غير ساحة الحرب، وهذا لا يأتي بسهولة، وإنما يكون بعد شراسةٍ وعنفوان، وضربٍ لرؤوس الأبطال، فمن يرضى العيش الذليل لا حاجةً لاستعداده للحرب، وهذا ما يؤكد المتنبي في مدح كافور الاخشيدي:⁴

¹ المتنبي: الديوان، ص 474 .

² أبو فراس: الديوان، ص 314.

³ المتنبي: الديوان، ص 273.

⁴ نفسه، ص 444.

إِذَا كُنْتَ تَرْضَى أَنْ تَعِيشَ بِذُلَّةٍ فَلَا تَسْتَعِدِّنَ الْحُسَامَ الْيَمَانِيَا
وَلَا تَسْتَطِيلَنَّ الرَّمَّاحَ لَغَارَةَ وَلَا تَسْتَجِيدَنَّ الْعِتَاقَ الْمَذَاكِيَا
فَمَا يَنْفَعُ الْأَسَدُ الْحِيَاءَ مِنَ الطَّوَى وَلَا تَتَّقِي حَتَّى تَكُونَ ضَوَارِيَا

يرى المتنبي أن الإنسان الذليل والمسالم لا يحتاج سلاحاً ولا خيلاً، ولكي يؤكد قوله استخدم الحجاج العقلي، فجاء بصورة توضح أن الخنوع والعيش الذليل لا يفيدان الإنسان، كالأسد الذي يتصف بالحياء، فتذهب هيئته. فلا تكون له هيبة إلا إذا كان من الضواري، فالحياء يُذهب هيئته، وهذا حال الإنسان.

وفي الحثّ على الإقدام والموت في أرض المعركة يقول المتنبي:¹

رَدِي حِيَاضَ الرَّدَى يَا نَفْسُ وَاتْرِكِي حِيَاضَ خَوْفِ الرَّدَى لِلشَّاءِ وَالنَّعَمِ
إِنْ لَمْ أَدْرِكِ عَلَى الرَّمَّاحِ سَائِلَةً فَلَا دُعِيْتُ ابْنَ أُمِّ الْمَجْدِ وَالكَرَمِ

يريد المتنبي أن يطرد هو اجس الخوف التي تنتابه، ورواسب الإحباط التي يمكن أن تبعده عن الشخصية التي يطمح في الوصول إليها²، فهو يساوي بين الإنسان الذي يخاف من الموت ولا يجابهه والأنعام، وهذه صورة منفرّة، الهدف منها الحثّ على مواجهة الموت والتحلّي بالشجاعة؛ لينزع الإنسان كلّ مشاعر الخوف والجبن من قلبه، ويُقدّم على الموت دون تردّد. ولذلك أعلن أنه سيُسبّل نفسه على الرّمّاح؛ لأنّ ذلك يعدّ من الشرف والكرم.

وقد أدرك الشعراء العباسيون أهمية خوض الأهوال والمهالك، بقلب ثابت لا يخاف الموت، ولا يحسب له حساباً، فتحدّثوا عن ذلك في أشعارهم لوصف الشجاعة والشجاعة. يقول بشار في مدح عبدالله بن عبد العزيز:³

لَا يَرْهَبُ الْمَوْتَ إِنَّ النَّفْسَ بِاسِلَةً وَالرَّأْيَ مُجْتَمِعَ وَالِدَيْنِ مُنْتَشِرُ

¹ المتنبي: الديوان، ص 38.

² محمد فتوح: شعر المتنبي قراءة أخرى، ص 59.

³ بشار: الديوان، ج 3، ص 176.

فمدوح بشار يواجه الموت بشجاعة، فقد عبّر بشار عن ذلك المعنى بطريقة مباشرة، ولكن الوصف الأفضل من ذلك والصورة الأجل قوله في مدح عقبة بن مسلم:¹

مَغاوِيرَ فَرَسَانَا وَجِنًّا إِذَا مَشُوا إِلَى الْمَوْتِ إِقْدَامَ اللَّيْوْثِ الْحَوَارِدِ

فقد أحسن بشار في وصف إقدام قوم الممدوح إلى الموت، فهم يُقدّمون مثل الأسود، وهم متيقّنون من الموت، فهذا الوصف يزيدهم شجاعة؛ لأنّ من يقدم على المهالك مع علمه أنّه هالك فيها أكثر شجاعة ممّن يقدم عليها وهو جاهل بذلك.

ويذهب أبو تمام إلى جعل العلاقة بين الممدوح والموت علاقة قرابة، فأقدامه على الموت بمثابة صلة الرّحم، يقول في مدح المأمون ووصف جيشه:²

مُسْتَرْسَلِينَ إِلَى الْحَتُوفِ كَأَنَّمَا بَيْنَ الْحَتُوفِ وَبَيْنَهُمْ أَرْحَامُ

فهم يذهبون إلى الموت مطمئنّين، وكأنّهم مستأنسين إلى قريب أو ذي رحم. وقد أعاب الأمدى على أبي تمام استخدامه لفظة (مسترسلين)، وحبّته في ذلك "أنّ الاسترسال قد يكون إلى ذوي الأرحام وقد لا يكون، وهل العداوة والشقاق والضغائن إلّا بين ذوي الأرحام"³ ولذلك عدّ هذا المعنى من المعاني غير الجيدة. ولكنّ إذا نظرنا إلى أصل العلاقة بين ذوي الأرحام، فنجد ان الأصل فيها المودة والرحمة التي جعلها الله بينهم، مع وجود شواذ عن هذا الأصل، فالأصل هو الأساس. وهذا ما دفع الشّاعر إلى استخدام هذا المعنى، فهو أخذ جانب المودة والرحمة بين ذوي الأرحام، فجعل كلّ شخص في جيش المأمون يحس أنّه مرتبط مع الموت بعلاقة مودة وعلاقة أرحام متواصلة⁴.

وفي موضع آخر يوثّق أبو تمام العلاقة بوضوح، فيجعلها علاقة أخلّاء، فيقول في رثاء محمد بن حميد:⁵

¹ بشار: الديوان، ج 3، ص 80 .

² أبو تمام: الديوان، ج 2، ص 75. الأمدى: الموازنة، ج 3، ص 304.

³ الأمدى: الموازنة، ج 3، ص 304.

⁴ ضيف، شوقي: البطولة في الشعر العربي، ص 65.

⁵ أبو تمام: الديوان، ج 2، ص 227.

لَأَقْبَى الْكَرْيَهَةِ وَهُوَ مُغْمِدٌ رَوْعِهِ فِيهَا وَلَكِنَّ سَيْفَهُ مَسْلُولٌ
وَمَشَى إِلَى الْمَوْتِ الزُّوَامِ كَأَنَّمَا هُوَ فِي مَحَبَّتِهِ إِلَيْهِ خَائِلٌ

فبدأ أبو تمام وصف دخول ممدوحه الحرب، وهو ساكن القلب، وكأن قلبه سيف في غمده دلالة على الطمأنينة التي تملأ قلبه، وسيفه مسلول من غمده، ثم وصف إقباله على الموت، وكأنه ذاهب لملاقاة صديق عزيز، تجمعهما المحبة والألفة. ويتحدث عن قوم الممدوح، والعلاقة التي تربطهم بالموت، فيقول:¹

أَلْفُوا الْمَنَايَا فَالْقَتِيلُ لَدَيْهِمْ مَنْ لَا تُجَلَّى الْحَرْبُ وَهُوَ قَتِيلٌ

وجعل أبو تمام الموت وطنا في قوله:²

حَنَّ إِلَى الْمَوْتِ حَتَّى ظَنَّ جَاهِلُهُ بَأَنَّهُ حَنَّ مُشْتَاقًا إِلَى وَطَنِ

فحنين ممدوحه إلى الموت كحنين الإنسان الغائب عن وطنه، وهو مشتاق إلى العودة إليه، فالإنسان مهما تنقل في بقاع الأرض لا يمكن أن ينسى وطنه، فيبقى حنينه إليه لا يفارقه.

وقد أحسن أبو تمام في رثائه محمد بن حميد، واصفاً مواجهته الموت، فقال:³

وَمَا مَاتَ حَتَّى مَاتَ مَضْرِبُ سَيْفِهِ مِنْ الضَّرْبِ وَاعْتَلَّتْ عَلَيْهِ الْقَنَا السُّمْرُ
فَتَى مَاتَ بَيْنَ الطَّعْنِ وَالضَّرْبِ مَيْتَةً يَقُومُ مَقَامَ النَّصْرِ إِذْ فَاتَهُ النَّصْرُ
وَقَدْ كَانَ فَوْتُ الْمَوْتِ سَهْلًا فَرَدَّهُ إِلَيْهِ الْحِفَاظُ الْمَرُّ وَالخُلُقُ الْوَعْرُ
وَنَفْسٌ تَخَافُ الْعَارَ كَأَنَّمَا هُوَ الْكُفْرُ يَوْمَ الرَّوْعِ أوردته الْكُفْرُ
فَأْتَبَتَ فِي مُسْتَنْقَعِ الْمَوْتِ رِجْلُهُ وَقَالَ لَهَا مِنْ تَحْتِ أُخْمَصِكَ الْحَشْرُ

فدقة الوصف وروعة التصوير جعلتا ابن رشيق يعدّ هذه الأبيات من جيّد الرثاء، ورأى

أنّ أبا تمام لم يقصر في رثائه⁴، فقد أحاط بكل الجوانب التي تتعلق بشجاعة المرثي، فميتته

¹ أبو تمام: الديوان، ج 2، ص 227.

² نفسه، ج 2، ص 241.

³ البحرني: الديوان، ج 2، ص 218.

⁴ ابن رشيق: العمدة في محاسن الشعر، ص 148.

كانت بين الطعن والضرب، وقد أبلى بلاءً حسناً قبل موته، فكان موته نصراً على الأعداء، وليؤكد أبو تمام شجاعة المرثي جعل الفرار من أرض المعركة سهلاً، ولكن أخلاقه منعتة خوفاً من العار، فثبت في أرض المعركة ووضع رجله في مستنقع الموت، فالعار يلحق من يهرب منها، وهذا يجعل الفارس يفضل الموت على الهرب، وأكبر دليل على هذا ما حدث مع المتنبّي عندما اعترضه قومٌ من بني ضبّة، فقاتلهم قتالاً شديداً، ثم أراد الفرار بعد أن رأى الغلبة لهم، فذكره غلامه بقوله (الخيال والليل والبيداء تعرفني) فعاد المتنبّي إلى القتال خوفاً من العار الذي سيلحق به إن فرّ وترك المعركة، مع أنه أيقن أنه مقتول فيها، والدليل قوله للغلام: (قتلتني قاتلك الله)، فقاتل حتى قتل¹.

وفي مثل هذا المعنى يقول البحتري:²

رَأَى الْمَوْتَ رَأَى الْعَيْنِ لَا سِتْرَ دُونَهُ وَمَا مَوْتُ شَكٍّ مِثْلَ مَوْتِ يَقِينِ
وَقِيلَ أَنْجٍ مِنْ غَمَّائِهَا فَأَبَتْ لَهُ سَجِيَّةُ شَكْسٍ فِي النَّقَاءِ حَرُونِ

فروية الموت يقيناً تختلف عن الشك في وجوده، والمرثي يراه يقيناً، مع وجود أصوات تطلب منه النجاة والهرب، ولكن طبعه يرفض ذلك.

ويُصوّر البحتري الختوف بالوفر من المال، والخير الموجود في أرض العدو، وهم يتناهبونه بسرعة، فيقول:³

مُتَسَرِّعِينَ إِلَى الْخُتُوفِ كَأَنَّهَا وَفَرّاً بِأَرْضِ عَدُوِّهِمْ يُتَهَبُّ

وفي رثائه حميد الطوسي يجعل البحتري الموت في المعركة أفضل مغنم يعود به المحارب، فيقول:⁴

أَبَا غَانِمٍ أَرْدَى بَنِيكَ اعْتَقَادَهُمْ بَأَنَّ الرَّدَى فِي الْحَرْبِ أَكْرَمَ مَغْنَمِ

¹ البكري: أخبار أبي الطيب المتنبّي، ص 16.

² البحتري: الديوان، ص 2185 .

³ نفسه، ص 75 . الجرجاني: الوساطة، ص 197.

⁴ الجرجاني: الوساطة، ص 1946.

مَضَوْا يَسْتَلْذُونَ الْمَنَايَا حَفِظَةً وَحَفِظًا لِذَاكَ السُّؤْدُدِ الْمُتَقَدِّمِ
وَلَمَّا رَأَوْا بَعْضَ الْحَيَاةِ مَذَلَّةً عَلَيْهِمْ وَعِزُّ الْمَوْتِ غَيْرُ مُحَرَّمٍ
أَبَوْا أَنْ يَذُوقُوا الْعَيْشَ وَالذَّمَّ وَقِيعَ عَلَيْهِ وَمَاتُوا مَيِّتَةً لَمْ تُذَمَّ

فسبب موت أبناء يوسف بن محمد هو العقيدة التي يؤمنون بها، وهي عقيدة حربية قتالية، فالموت في أرض المعركة عندهم أفضل غنيمة يحصلون عليها، فكانوا تواقين للحصول على الغنيمة، فحققوا مرادهم وهم يتلذذون بطعم الموت، وكأنه متعة كمتعة الطعام والشراب وسائر الملذات، يشعرون بها عند مواجهتهم الموت هرباً من حياة الذل المهينة.

ولقد وصف ابن الرومي ممدوحه عبد الله بن عبد الله بالإقدام في مواجهة الموت، فقال:¹

جَبَانٌ عَنِ السَّوَاءِ عَنْهُمْ نَاكِصٌ وَيَلْقَى الْمَنَايَا مُقَدِّمًا غَيْرَ نَاكِصٍ

يستخدم ابن الرومي الطباق السلبي للمقارنة بين حالتي الممدوح فهو ناكص عن السوءات وجبان في إقدامه عليها، ولكنه في مواجهة الموت مقدماً غير ناكص.

ويُصَوِّرُ ابن المعتز إقدامه على الموت بصورة جميلة معبرة، فيقول:²

يَوْمَ يَخُوضُ الْحَرْبَ مِنَّا عَالِمٌ أَنْ يَدَ الْحَتْفِ تُصِيبُ مَنْ طَلَبَ
كَمْ عَمْرَةٍ لِلْمَوْتِ يُخْشَى خَوْضُهَا جَرِيَتْ فِيهَا جَرِي سِلْكٍ فِي نَقَبِ
الْمَوْتِ أَوْلَى بِالْفَتَى مِنْ أَنْ يُرَى طَائِعِ دَهْرٍ كُلَّمَا شَاءَ انْقَلَبَ

ويؤكد ابن المعتز خوضه المعارك مع علمه أن الموت ينتظره، فاستخدم ابن المعتز التشخيص، وجعل الموت إنساناً له يد تلامس من يطلبه، وهو ممن يطلبونه، فقد خاض غماره، فاندفع إليه، مثل جري الخيط في الثقب، فهذه الصورة تثبت أنه لم يحد عن مواجهة الموت، ومشى إليه دون أن يغير وجهته، فالموت في نظره أفضل من حياة الذل، وهذا ما شجعه على خوضه وطلبه.

¹ ابن الرومي: الديوان، ج 2، ص 262.

² ابن المعتز: الديوان، ص 232.

وممدوح المتنبي يفتحم الأهوال التي لا عودة منها، يقول في مدح بدر بن عمار:¹

بَاعِثُ النَّفْسِ عَلَى الْهَوْلِ الَّذِي لَيْسَ لِنَفْسٍ وَقَعَتْ فِيهِ إِيَابُ

وَيَصُورُ الْمُتَنَبِّيَ بَطُولَةَ سَيْفِ الدَّوْلَةِ فِي قَوْلِهِ:²

وَقَفَّتْ وَمَا فِي الْمَوْتِ شَكٌّ لَوَاقِفٍ كَأَنَّكَ فِي جَفْنِ الرَّدَى وَهُوَ نَائِمٌ

والموت في نظر المتنبي يزيد الأبطال حسناً وجمالاً، ويحميهم من العار، ويظهر هذا في

مدح أبي العشائر الحسن بن علي بن حمدان، يقول:³

كُلُّ ذِمْرٍ⁴ يَزْدَادُ فِي الْمَوْتِ حُسْنًا كَبَدُورٍ تَمَامُهَا فِي الْمُحَاقِ

جَاعِلٌ دَرْعَهُ مَنِيَّتَهُ إِنْ لَمْ يَكُنْ دُونَهَا مِنَ الْعَارِ وَاقٍ

ويظهر الخوف من العار عند أبي فراس، فيدفعه ذلك إلى خوض غمار الموت، وتفضيله

على الفرار، يقول في رده على من لاموا ثباته في القتال:⁵

أَرَى مِلاءَ عَيْنِي الرَّدَى فَأَخْوِضُهُ إِذِ الْمَوْتُ قُدَامِي وَخَلْفِي الْمَعَايِبُ

وَأَعْلَمُ قَوْمًا لَوْ تَتَعَنَّتْ دُونَهَا لِأَجْهَضَنِي بِالذَّمِّ مِنْهُمْ عَصَائِبُ

يرى أبو فراس الموت أمامه أكيداً، وفرصة الهرب متاحة، ولكنه يفضل الموت خوفاً من

العار، لأنه يعلم أن كثيرين سيرهقونه بالذم، فهو في صراعٍ نفسيٍّ بين الإقدام والإحجام، ولكنه

في النهاية يقرّر خوض المنايا.

ويرفض أبو فراس دفع الموت وإبعاده بطريقةٍ مذلةٍ مهينة، جاء ذلك في قصيدةٍ قالها في

واقعة أسره، فقال:⁶

¹ المتنبي: الديوان، ص 143.

² نفسه، ص 387.

³ نفسه، ص 238.

⁴ الذم الشجاع، لسان العرب مادة (ذمر).

⁵ أبو فراس: الديوان، ص 48.

⁶ نفسه، ص 129.

وَلَا خَيْرَ فِي دَفْعِ الرَّدَى بِمَذَلَّةٍ كَمَا رَدَّهَا يَوْمًا بِسَوْعَتِهِ عَمَرُو

وهنا يتكئ أبو فراس على التاريخ، لرسم صورة تبيّن بشاعة دفع الموت بالذل، فيشير إلى مبارزة جرت بين علي بن أبي طالب، وعمرو بن العاص، فلما شعر عمرو أنه مغلوب ومقتول، رمى نفسه عن فرسه، وكشف عورته أمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فأدار علي وجهه، وإمتنع عن ضربه بالسيف¹، فهذه صورة مُنْفَرَة جاء بها للحث على مجابهة الموت، خوفاً من العار والذل.

وللتعبير عن الإقدام في مواجهة الموت، يرسم المتنبي علاقة محبة بين الموت ومن يذهب لملاقاته، فيقول في مدح سيف الدولة:²

وَأَنَا إِذَا الْمَوْتُ صَرَّحَ فِي الْوَعَى لَبَسْنَا إِلَى حَاجَاتِنَا الضَّرْبَ وَالطَّعْنَ
قَصَدْنَا لَهُ قَصْدَ الْحَبِيبِ لِقَاؤُهُ إِلَيْنَا وَقُنَّا لِلسَّيُوفِ هَلْمًا

إنهم يَفْصِدون الموت مثل قصد الحبيب لمُلاقاة حبيبه، وما في ذلك من شوق في قلبه. وطعم الموت عند المتنبي مثل طعم العسل في الفم، يقول:³

فَثَبُّ وَاثِقًا بِاللَّهِ وَثَبَّتْهُ مَا جِدَّ يَرَى الْمَوْتَ فِي الْهَيْجَا جَنَى النَّحْلِ فِي الْفَمِ

ويكرّر المتنبي هذا المعنى، فيصف الشَّجْعَانِ مِنْ حَوْلِهِ، فطعم الموت في أفواههم شهد، يقول:⁴

إِذَا شِنْتَ حَفَّتْ بِي عَلَى كُلِّ سَابِحٍ رَجَالٌ كَأَنَّ الْمَوْتَ فِي فَمِهَا شَهْدُ

ويطلب أسامة بن منقذ منا أن نسأل الموت عن ثباته وشجاعته في مواجهته، يقول:⁵

إِذَا ضَاقَ بِالْخَطِيئِ مُعْتَرِكُ الْوَعَى وَهَالَ الرَّدَى وَقَعُ الطَّبِي فِي الْجَمَاجِمِ

¹ البيهقي، إبراهيم بن محمد: المحاسن والمساوي، القاهرة، مطبعة السعادة، 1906، ج 1، ص 38.

² المتنبي: الديوان، ص 316.

³ نفسه، ص 16 .

⁴ نفسه، ص 198.

⁵ أسامة بن منقذ: الديوان، ص 269

سَلِ الْمَوْتَ عَنِّي فَهُوَ يَشْهَدُ أَنِّي عَلَى خَوْضِهِ فِي الْحَرْبِ ثَبَّتَ الْعَزَائِمَ

- العفة

إنَّ الشَّجَاعَ لَا يُقَاتِلُ فِي الْمَعْرَكَةِ مِنْ أَجْلِ الْمَالِ أَوْ الْغَنَائِمِ، بَلْ شَجَاعَتُهُ هِيَ الَّتِي تَفْرُضُ عَلَيْهِ خَوْضَهَا، فَيَقْدِمُ عَلَى الْقِتَالِ، وَيَتَرَجَعُ عِنْدَ تَوْزِيعِ الْغَنَائِمِ تَرْفَعًا عَنْهَا. وَلِهَذَا نَجَدُ شَاعِرًا فَارِسًا مِثْلَ عَنْتَرَةَ بْنِ شَدَّادٍ يَذْكَرُ هَذَا الْأَمْرَ فِي شِعْرِهِ فِي مَعْرُضِ الْفَخْرِ بِشَجَاعَتِهِ، يَقُولُ:¹

هَلَّا سَأَلْتِ الْخَيْلَ يَا ابْنَةَ مَالِكٍ إِنَّ كُنْتِ جَاهِلَةً بِمَا لَمْ تَعْلَمِ
يُخْبِرُكَ مَنْ شَهِدَ الْوَقِيعَةَ أَنِّي أَغْشَى الْوَعْيَ وَأَعْفُ عِنْدَ الْمَغْنَمِ

وقد التقت الشعراء العباسون إلى هذه الظاهرة التي تميز بها الفرسان الشجعان، وذكروها في أشعارهم، فهي من صفات الشجاع الذي يخوض الحرب، وفيه غناء عن المال، ومن ذلك قول بشار في مدح المهدي:²

فُرْسَانُ حَرْبٍ إِذَا التَّقَتْ بِهِمْ فِيهِمْ غَنَاءٌ وَعِنْدَهُمْ غَيْرُ
يَسْقُونَ مَنْ حَارَبُوا بِحَدِّهِمْ سُمًّا وَلَا يَعْتَدُونَ إِنْ ظَفَرُوا

فجمع بشار في هذه الأبيات صفات عدة للفرسان، أولها الغناء عن الغنائم والأموال التي تخلفها الحرب، وأضاف أمراً آخر من صفات الشجعان، وهو العفو عند المقدرة، فهم يقاتلون أعداءهم حتى يظفروا بهم، فإن ظفروا لا يعتدون.

وقد أحسن أبو تمام في وصفه المعتصم حين قال:³

غَدَا يُصَرِّفُ بِالْأَمْوَالِ جَرِيَّتَهَا فَعَزَّةَ الْبَحْرِ ذُو التِّيَارِ وَالْحَدَبِ
هَيْهَاتَ زُعَزَعَتِ الْأَرْضُ الْوَقُورُ بِهِ عَنْ غَزْوِ مُحْتَسِبٍ لَا غَزْوِ مُكْتَسِبِ
لَمْ يُنْفِقِ الذَّهَبَ الْمُرْبَى بِكَثْرَتِهِ عَلَى الْحَصَى وَبِهِ فَقْرٌ إِلَى الذَّهَبِ
إِنَّ الْأَسْوَدَ أَسْوَدُ الْغَيْلِ هِمَّتُهَا يَوْمَ الْكَرْيَةِ فِي الْمَسْلُوبِ لَا السَّلْبِ

¹ ابن شداد، عنتره: الديوان، ص 17.

² ابن برد، بشار: الديوان، ج 3، ص 201.

³ أبو تمام: الديوان، ج 1، ص 35.

استطاع أبو تمام في هذه الأبيات الجمع بين الشجاعة والكرم، وجعل من كرم ممدوحه دليلاً على عفته، وأن هدفه من الحرب ليس المال، وإنما الأجر والثواب واحتساب ذلك عند الله، فمن ينفق أموالاً تفوق عدد الحصى، لا يمكن أن يكلف نفسه حرباً من أجل الحصول عليها، ويؤكد أبو تمام ترفع ممدوحه عن الغنائم في الحرب، فالفارس الشجاع همّه في الحرب منازل الأبطال دون النظر إلى أسلابهم. وقد أعجب الأمدى بأبيات أبي تمام فوصفها قائلاً: "وهذا إحسانه المعروف الذي لا شيء يفوقه"¹، وقد أصبح قول أبي تمام يستخدم للدلالة على العفة والترفع عن الطمع بالمال "قلماً دخل المازيار على المعتصم، وكان عليه شديد الغيظ، قيل له: لا تعجل عليه، فعطاياه كثيرة، فأنشد بيت أبي تمام (إنّ الأسود أسود الغيل همّتها)"²، وهذا دليل على إصابة أبي تمام المعنى الذي أراده في وصف عفة ممدوحه.

ويجمع المتنبي بين العفة والعفو عند المقدرة بطريقة جميلة، فينفي عن ممدوحه السلب في موقف، ويثبته في آخر، فيقول في مدح سيف الدولة:³

فَتَى لَا تَسْلِبُ الْقَتْلَى يَدَاهُ وَيَسْلِبُ عَفْوُهُ الْأَسْرَى الْوِثَاقَا

فذكر المتنبي سلباً مذموماً، وهو أخذ ما يخلفه القتلى وراءهم من أموالٍ ومناخ، فنفي هذا النوع عن ممدوحه لعفته، ولكنه في المقابل يثبت له سلباً محموداً وهو سلب وثاق الأسرى، في دلالة على عفوّه عند المقدرة.

- التميز والتفرد

الشجاع النموذج هو الذي يتفرد بشجاعته، ويتميز بها عن غيره، فلا يجاربه أحدٌ في حرب، وهو متميز في جيشه، ولا يستطيع أحد القيام بما يقوم به.

ويظهر ذلك في قول بشار:⁴

¹ الأمدى: الموازنة، ج 3، ص 356.

² ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج 2، ص 220 .

³ المتنبي: الديوان، ص 291.

⁴ بشار: الديوان، ج 2، ص 334 .

تَنْشَقُ روعاتُ الوَعَى عَن رَأْسِهِ صَلتانِ يَفْتِكُ بِالْأُمُورِ وَحِيداً

فقوله (يفتك بالأمر وحيداً) ميّز به الممدوح وجعله منفرداً، وكأنه جيش يقاتل وحده.

ويؤكد أبو تمام تفرّد ممدوحه، فهو لا يحتاج جيشاً يسير معه إلى الحرب، فيقول:¹

لَوْ لَمْ يَقُدْ جَحْفَلاً يَوْمَ الوَعَى لَعَدَا مِنْ نَفْسِهِ وَحَدَّاهَا فِي جَحْفَلٍ لَجِبِ

ويصلُّ البحتري إلى تميّز ممدوحه وتفرّده، باستخدام تشبيهه في غاية الجمال، فيقول في

مدح يوسف بن محمد:²

فِي فِتْيَةٍ طَلَبُوا غُبَارَكَ إِنَّهُ رَهَجٌ تَرَفَعَ عَن طَرِيقِ السُّودِّ

كَالرَّمْحِ فِيهِ بَضْعَ عَشْرٍ فَقَرَّةٌ مُنْقَادَةٌ تَحْتَ السَّنَانِ الْأَصِيدِ

فممدوحه فارسٌ لا يُشَقُّ له غبار، كناية عن السرعة والتميز عن الآخرين في الإقدام

والشجاعة، وقد جاء البحتري بتشبيه دقيق، يمثّل الموقف تمثيلاً تاماً، وهو صورة الرمح المكون

من فقرات، كلّها تتبع السنان، فلا يمكن أن تسبقه إحداها، وهذا تشبيهٌ "في غاية الحسن والجودة،

وفي غاية القرب والحلاوة"³. وهذه الصورة أخذها البحتري من قول بشار:⁴

خُلِقُوا سَادَةً فَكَانُوا سِوَاءً كَكُعُوبِ الْقَنَا تَحْتَ السَّنَانِ

وعلى الرّغم من أنّ الموضوع الذي جاء به بشار يختلف عن موضوع البحتري، فبشار

يساوي بين السادة، فهم مثل كعوب القنا الموجودة تحت السنان، ولكنّ البحتري ميّز ممدوحه،

فجعله هو السنان والبقية فقرات الرمح.

وقد أخذ أبو الطيب المنتبي معنى أبي تمام الذي جعل فيه ممدوحه جيشاً، فقال:⁵

فَالجَيْشُ جَيْشُكَ غَيْرَ أَنَّكَ جَيْشُهُ فِي قَلْبِهِ وَيَمِينِهِ وَشِمَالِهِ

¹ الجرجاني: الوساطة، ص 259.

² البحتري: الديوان، ص 548. الأمدي: الموازنة، ج 3، ص 314.

³ الأمدي: الموازنة، ج 2، ص 314.

⁴ بشار: الديوان، ج 4، ص 314.

⁵ المنتبي: الديوان، ص 259.

فالممدوح هو جيشٌ وحده داخل جيشه. ويكرّر المتنبي هذا المعنى فيقول في مدح سيف

الدولة:¹

فَلَمَّا رَأَوْهُ وَحَدَّهُ قَبْلَ جَيْشِهِ دَرَوْا أَنَّ كُلَّ الْعَالَمِينَ فُضُولُ

لقد جمع المتنبي في هذا البيت مظهرين من مظاهر الشجاعة، الأول هو الإقدام في المعركة، وهو يسبق جيشه إلى العدو، فيظهر لهم وحده دون الجيش، والأمر الثاني هو تفرّده وتميزه عن بقية الجيش، فالعدو يشهد له بذلك، فهم يعلمون أنّه يسدُّ مكان جيشه، فلا حاجة للجيش، وشهادة العدو أصدق شهادة، وهذا ما جعل الثعالبي يعدُّ هذا البيت من إبداعات المتنبي في المدح.²

ويجعل المتنبي ممدوحه حصناً يتحصن به جيشه، فيصبح في منعة، وهذا على النقيض من القادة، فهم يمتنعون بجيوشهم التي توفرّ لهم الحماية، ففي هذا القول مبالغة ولكنها تهدف إلى إظهار شجاعة ممدوحه وتفرّده وتميزه عن غيره من القادة، يقول في مدح سيف الدولة:³

فِي الْجَيْشِ تَمْتَنِعُ السَّادَاتُ كُلُّهُمْ وَالْجَيْشُ بَابِنَ أَبِي الْهَيْجَا يَمْتَنِعُ

فسيف الدولة مكانته عالية، لا يمكن لأحد أن يؤثر فيها، فهو في موضع الشمس، فلا فضل لأحد في رفع مكانته، ولا يمكن لأحد أن يحطّ من شأنه ومكانته، يقول المتنبي:⁴

مَنْ كَانَ فَوْقَ مَحَلِّ الشَّمْسِ مَوْضِعَهُ فَلَيْسَ يَرْفَعُهُ شَيْءٌ وَلَا يَضَعُ

ويجعل المتنبي في قصيدة أخرى من همة سيف الدولة شيئاً تعجز عنه الجيوش، فيقول:⁵

فيقول:⁵

عَلَى قَدْرِ أَهْلِ الْعَزْمِ تَأْتِي الْعَزَائِمُ وَتَأْتِي عَلَى قَدْرِ الْكِرَامِ الْمَكَارِمُ

¹ المتنبي: الديوان، ص 358 . الثعالبي: المتنبي ما له وما عليه، ص 109.

² الثعالبي: أبو الطيب المتنبي ما له وما عليه، ص 109.

³ المتنبي: الديوان، ص 312.

⁴ نفسه، ص 312.

⁵ نفسه، ص 385.

وَتَعْظُمُ فِي عَيْنِ الصَّغِيرِ صِغَارُهَا وَتَصْغُرُ فِي عَيْنِ الْعَظِيمِ الْعَظَائِمُ
يُكَلِّفُ سَيْفَ الدَّوْلَةِ الْجَيْشَ هَمَّهُ وَقَدْ عَجَزَتْ عَنْهُ الْجِيُوشُ الْحَضَارِمُ
وَيَطْلُبُ عِنْدَ النَّاسِ مَا عِنْدَ نَفْسِهِ وَذَلِكَ مَا لَا تَدَّعِيهِ الضَّرَاعِمُ

فبدأ المتنبي قصيدته بما يتناسب مع موضوعها، وهو الحديث عن شجاعة سيف الدولة، فالعزيمة تكون على قدر صاحبها، والكرم كذلك، فضعيف العزيمة يرى الأمور البسيطة والصغيرة عظيمة لا يستطيع أن يؤدّيها، وصاحب العزيمة القويّة، يستصغر الأمور العظيمة؛ لعلّو همّته. وينفي المتنبي وجود نظير لممدوحه بدر بن عمار، فهو متميّزٌ عن الناس بشجاعته وكرمه، وهذا أمر يعرفه الجميع ويقرّون به، يقول: ¹

جَوَابُ مُسَائِلِي أَلَهُ نَظِيرٌ؟ وَلَا لَكَ فِي سُؤَالِكَ لَا أَلَا لَا

فلا نظير لممدوحه، ولا نظير لمن يسأله هذا السؤال؛ لأنّ تميّز بدر بن عمار معروف للجميع، ولتأكيد نفي النظير يكرر المتنبي قوله (لا أ لا لا). ويستفيد المتنبي من علم البلاغة ليجعل ممدوحه متميزاً ومتفوقاً على غيره، وهذا من خلال الفرق بين المشبه والمشبه به، فالمشبه به يتفوق على المشبه بالصفة، فيقول في مدح فاتك: ²

كَفَاتِكَ وَدُخُولُ الْكَافِ مَنْقَصَةٌ كَالشَّمْسِ قَلْتَ وَمَا لِلشَّمْسِ أَمْثَالُ

فالتشبيه بالممدوح قد يوهم أنّ له نظيراً، وهذا غير موجود.

- مواجهة الأقران

القرن كما يقول الزّمخشري "هو مثلك في الشّجاعة" ³، فمواجهة الشّجاع لشجاع مثله وتغلّبه عليه أدلُّ على الشّجاعة من الانتصار على الجبان أو الضعيف، وقد ركّز الشعراء على أن يكون الخصوم من الفرسان الشجعان.

فأبو تمام يختار القرن الذي يساوي ممدوحه بالشّجاعة؛ ليكون مقابلاً له؛ فيقول في مدح

دينار بن عبد الله، يقول: ¹

¹ المتنبي: الديوان، ص 142.

² نفسه، ص 487.

³ الزّمخشري: أساس البلاغة، ج 2، ص 336.

وَقَدْ عَلِمَ الْقِرْنَ الْمُسَامِيكَ أَنَّهُ سَيَغْرُقُ فِي الْبَحْرِ الَّذِي أَنْتَ خَائِضُ

فهذا القرن يعلم أنه لا يستطيع خوض غمار المعركة، وأنه سيغرق في لجتها. والقرن يخاف من الممدوح فيلاقي هلاكه قبل أن يُضْرَبَ بالسَّنان، يقول أبو تمام في مدح أبي سعيد محمد بن يوسف:²

يَكَادُ حِينَ يَلْقَى الْقِرْنَ مِنْ حَقِّ قَبْلِ السَّنَانِ عَلَى حَوَائِثِهِ يَرْدُ

ويصف البحري ضرب ممدوحه رؤوس الأقران بسيفه، جامعاً بين شيمتي الكرم والشجاعة، فيقول في مدح أبي سعيد محمد بن يوسف:³

وَصَاعِقَةٌ فِي كَفِّهِ يَنْكَفِي بِهَا عَلَى أُرُوسِ الْأَقْرَانِ خَمْسُ سَحَائِبِ
يَكَادُ النَّدَى يَفِيضُ مِنْهَا عَلَى الْعَدَى مَعَ السَّيْفِ فِي ثَنِي قَنَا وَقَوَاضِبِ

فيصف البحري السيف في يد ممدوحه وهو يهوي على رؤوس الأقران مثل الصاعقة، فاستعار الصاعقة لتكون نصل السيف في يد الممدوح، وذكر خمس سحائب وهي استعارة لأنامل اليد، والقرينة التي تدل على هذه الاستعارة قوله (خمس سحائب)⁴، وقد بيّن أن الصاعقة من نصل سيف ممدوحه، ثم ذكر الخمس التي هي عدد أنامل يد الممدوح، وبذلك بان غرضه من هذه الأمور.⁵

ويجعل ابن الرومي ممدوحه يقاتل الأكفاء، فيقول في مدح عبید الله بن عبد الله:⁶

يُصَاوِلُ الْقِرْنَ أَوْ يُقَاتِلُهُ جَلْدًا أَرِيْبًا بَعِيدَةً مَسَارِبُهُ

¹ أبو تمام: الديوان، ج1، ص 387. وهذا البيت مأخوذ من قول عنتره: (وأنا المنيّة حين تشجر القنا والطعن مني سابق الأجال). ينظر عنتره: الديوان، ص151.

² أبو تمام: الديوان، ج 2، ص 241. الأمدي: الموازنة، ج 1، ص 104.

³ البحري: الديوان، ص 197. ابن الناظم: المصباح في المعاني، ص 131.

⁴ ابن الناظم: المصباح في المعاني، ص 131.

⁵ الجرجاني، عبد القاهر: دلائل الإعجاز، ص 300.

⁶ ابن الرومي: الديوان، ج 1، ص 214.

إنّ ممدوح ابن الرومي لا ينازل إلّا الأكفاء في الحرب، فيراوهم؛ لأنّ الحرب خدعة،
والخدعة من التدبير، وحسن التصرف في المعركة.

ويصف ابن المعتز المقاتلين الذين جمعهم لمقاتلة الأعداء بالأسد، فيقول مفتخراً:¹

أَسَدًا فَرَأَيْتَهَا الْفَوَارِسَ لَا تَطَّأُ إِلَّا عَلَى الْأَقْرَانِ يَوْمَ حُرُوبِهَا

فهذه أسودٌ لا تفترس إلا الفرسان، ولا تواجه إلا أقرانها بالشجاعة في ساحة المعركة.

ويكرر ابن المعتز الصورة في مدح المعتضد، فيقول:²

وَكَاكَلِيَّتْ شَدَّ عَلَى قَرْنِهِ وَكَالْغَيْثِ جَادَ وَكَالْبَدْرِ لَاحَا

وممدوح المنتبى لا ينازل إلّا الأبطال، فيقتلهم ويجعل الدّم غطاءً لأجسادهم بدل الدروع،

فيقول في مدح عليّ بن إبراهيم التنوخي:³

عَلِيٌّ قَاتِلُ الْبَطَلِ الْمُفْدَى وَمُبْدِلُهُ مِنَ الزَّرْدِ النَّجِيعَا

ويجعل المنتبى رؤوس الأبطال الشجعان وشعورهم ريشاً يعلّق على أطراف الرماح،

يقول في مدح المغيث بن عليّ بن بشر العجمي:⁴

مُبْرِقِي خَيْلِهِمْ بِالْبَيْضِ مُتَخِذِي هَامَ الْكُمَاةِ عَلَى أَرْمَاحِهِمْ عَذْبَا

إنّ بني عجل يجعلون من سيوفهم براقع يحمون بها الخيول، فلا يستطيع أحدٌ الوصول

إليها، ويجعلون هام الكمأة الشجعان ريشاً يعلّق على أطراف الرماح. فهذه الصّورة ليست خاصة

بالمنتبى، وهي ليست من إبداعه، فهي وردت عند كثيرٍ من الشعراء السابقين له، ومن ذلك قول

جرير:⁵

كَأَنَّ رُؤُوسَ الْقَوْمِ فَوْقَ رِمَاحِنَا غَدَاةَ الْوَعَى تِجَانِ كِسْرَا وَقَيْصَرَا

¹ ابن المعتز: الديوان، ص 50.

² نفسه، ص 468.

³ المنتبى: الديوان، ص 90.

⁴ نفسه، ص 79.

⁵ الأمدي: الموازنة، ج 1، ص 81.

ومثله قول مسلم بن الوليد:¹

يَكْسُو السَّيُوفَ نُفُوسَ النَّاكِثِينَ بِهِ وَيَجْعَلُ الْهَامَ تَيْجَانَ الْقَتَى الذُّبُلِ

وكذلك قول أبي تمام:²

مِنْ كُلِّ ذِي لِمَةٍ غَطَّتْ ضَفَائِرُهَا صَدْرَ الْقَنَاةِ فَقَدْ كَادَتْ تُرَى عِلْمَا

وأيضاً قول ابن المعتز:³

وَيَجْعَلُ هَامَاتِ أَعَادِيهِ قَلَابِسَ يُبْسُ هُنَّ الرَّمَا حَا

والذي زاده المتنبي على المعنى هو استخدامه كلمة (الكمأة) لتكون دليلاً على تفوق ممدوحه في الشجاعة والقوة، بينما أبيات سابقه لم تذكر إلا ألفاظاً عامة دون أن تصف شجاعة العدو وقوته، وألفاظهم هي (القوم، هامات الأعداء، ذي لمة)، فهم لم يخصصوا الأعداء بالشجاعة.

صور الشجاع

لجأ الشعراء العباسيون إلى استخدام مجموعة من الصور، يصفون بها الشجاع، ويظهرون قوته وعزمه، وهي صور مستمدة من الحيوان، ومظاهر الطبيعة، وأدوات الحرب. وسنعرض لبعض الصور التي استخدموها، وهي صورة الأسد وصورة السيف وبعض الصور المستمدة من مظاهر الطبيعة، مثل البحر، والسيول، والسحاب.

- صورة الأسد

جاء حديث الشعراء عن الأسد وتشبيهه الشجاع به؛ لما يمثله، فهو سيد الغابة، ورمز القوة، والشجاعة، والفتك، فهذه صفات محببة عند الإنسان، أثبتتها الشعراء من خلال استخدامهم لصورة الأسد، فذكر الأسد يفي بالعرض، وفي هذا يقول الجرجاني "إذا قلت رأيت أسداً تريدُ

¹ ابن الوليد، مسلم: الديوان، ص 11. الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان: سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة، 2000، ج8، ص365.

² أبو تمام: الديوان، ج2، ص 83 .

³ ابن المعتز: الديوان، ص 468.

رجلاً، فالوصف الجامع بينهما هو الشجاعة، وهي على حقيقتها موجودة في الإنسان، وإنما يقع الفرق بينه وبين السبع الذي استعرت اسمه له من جهة القوة والضعف والزيادة والنقصان¹.

ولقد لجأ الشعراء إلى استخدام صورة الأسد على وجهين، فمنهم من ساوى بين الشجاع والأسد، ومنهم من جعل الشجاع يتفوق عليه، وقد أخرجوا بعض الصفات المذمومة الموجودة في هذا الحيوان، وابتعدوا عن ممدوحهم، فأخذوا من الأسد صفة القوة والشجاعة والإقدام، وتركوا غيرها من الصفات، كقبح المنظر، ونتاجة الرائحة، والصفات الحيوانية الأخرى.

فبشار يستحضر صورة الأسد، في مدح عقبة بن مسلم، فيقول:²

أَسَدٌ يُوقِدُ نِيرَانَ الْوَعَى وَإِذَا زَلْزَلَهُ الرُّوْعُ وَقَرُّ

إن ممدوح بشار أسدٌ يُشعل الحرب ويثبت فيها ولا يتراجع، لأن الخوف لا يزعزعه، فمساواة الشجاع مع الأسد في حقيقة الشجاعة ينفي الخوف عن القلب، ويبعد مجرد التفكير فيه، حتى لا تكلف عزمته في الإقدام على من يقاتله ويحاربه³، وتظهر المساواة في قوله (أسد)، فلم يستخدم بشار أداة التشبيه؛ لأن استخدامهما يجعل السامع يتوهم أنه الأسد، وأمّا القول: (هو الأسد) دون استخدام أداة التشبيه، فقد أفاد المبالغة؛ لأن السامع يرى فيه الأسد على الحقيقة دون التوهم⁴.

وفي موضع آخر يجمع بشار بين شجاعة ممدوحه وكرمه، فيجعل من ممدوحه عقبة بن

مسلم أسداً يقضم الرجال، وغيتاً كثيفاً كثير المطر، فيقول:⁵

أَسَدٌ يَقْضِمُ الرَّجَالَ وَإِنْ شِئْتَ غَيْثٌ أَجْشُ ثَرُّ السَّمَاءِ

¹ الجرجاني، عبد القاهر: دلائل الإعجاز، ص 425.

² ابن برد، بشار: الديوان، ج 3، ص 294.

³ الجرجاني، عبد القاهر: أسرار البلاغة، ص 63.

⁴ الجرجاني، عبد القاهر: دلائل الإعجاز، علق عليه محمود محمد شاكر، ط1، القاهرة، مطبعة المدني، 1991، ص 425.

⁵ ابن برد، بشار: الديوان، ج 1، ص 138.

وشببه بقول بشار قول البحتري الذي يجمع فيه بين الشجاعة والكرم، فيقول في مدح أبي

طلحة منصور بن سلم:¹

لَقَيْتَكَ يَوْمَ الْبَأْسِ رَنْبَالَ غَابَةٍ وَشِمْنَاكَ يَوْمَ الْجُودِ بَارِقًا خَالِي

ويوجه أبو تمام تحذيراً شديداً من غضب ممدوحه، أسد العرين، فهو على استعداد دائم

للحرب، فيقول في مدح المعتصم:²

الْحَقُّ أَبْلَجُ وَالسُّيُوفُ عَوَارٍ فَحَذَارٍ مِنْ أَسَدِ الْعَرِينِ حَذَارٍ

فتكرار اسم الفعل (حذار)، جاء ليملأ قلوب المتمردين بالخوف، فقد اجتمع هذا التحذير

مع وجود السيوف المجردة، والمستعدة للحرب في يد أسد العرين، وهي استعارة تصريحية، جاء

بها الشاعر لتحويل الموقف، ومساندة التحذير الذي جاء به، ولبت الرعب في نفوس المتمردين³،

المتمردين³، وهذا البيت مطلع قصيدة مدح بها المعتصم، وهو من المطالع الفخمة التي تميّزت

بالرّوعة، وهو من الابتداءات الجيدة كما وصفها ابن رشيق⁴، فهو مجمل القصيدة وملخصها،

وبقية القصيدة تشرحه وتفصله⁵. ويصف أبو تمام أبا سعيد محمد بن يوسف بالأسد، فيقول:⁶

رَأَوْا لَيْثَ الْغَرِيفَةِ⁷ وَهُوَ مُلِقٌ ذِرَاعِيَهُ جَمِيعاً بِالْوَصِيدِ⁸

فقد وظّف أبو تمام في هذا البيت قوله تعالى: ﴿وَكَلَّبْنَاهُمْ بِأَسْطِ ذِرَاعِيهِ بِالْوَصِيدِ﴾⁹، ولكنه

ولكنه استخدم الأسد بدلاً من الكلب، فالأسد يحمل صفة الشجاعة والإقدام، وهذا ما أراد أبو تمام

أن يصف به ممدوحه، ولهذا قال لَيْثَ الْغَرِيفَةِ. وهذا المعنى استخدمه الأفوه الأودي، بقوله:¹

¹ البحتري: الديوان، ص 1706.

² أبو تمام: الديوان، ج 1، ص 335. ابن رشيق: العمدة، ص 233.

³ علي عالية: التجديد في شعر أبي تمام مطالع القصائد نموذجاً، مجلة العلوم الإنسانية، جامعة محمد خضير، بسكرة، العدد السابع، 2005، ص 6.

⁴ ابن رشيق: العمدة، ص 233.

⁵ علي عالية: التجديد في شعر أبي تمام مطالع القصائد نموذجاً، ص 6.

⁶ أبو تمام: الديوان، ج 2، ص 254.

⁷ الغريفة الشجر الملتف أو الأجمة من البردي والحلّفاء والقصب. لسان العرب مادة (غَرَفَ).

⁸ الوصيد هو فناء الدار أو البيت، لسان العرب مادة (وَصَدَ).

⁹ سورة الكهف، الآية (18).

فَلَمَّا رَأَوْنَا فِي وَغَاهَا كَأَسَادِ الْغُرَيْفَةِ وَالْحَجِيبِ

ولكنَّ الأفوه استخدم كاف الشبيه، وهذا يجعل التشبيه غفلاً ساذجاً كما يقول الجرجاني²، ولهذا نرى أنّ أبا تمام قد زاد في المعنى وفخّمه وبالغ فيه حتى جعل من ممدوحه أسداً على الحقيقة. وجلس الأسد بفناء البيت يجعله في المقدمة، وكأنه حارسٌ يمنع أيّ خطرٍ من دخول البيت، وكأنّ الفناء هو ثغرٌ من الثغور والممدوح يجلس مطمئناً يحميه بهيبته، وبالرعب الذي يبثّه في قلوب الأعداء.

ويذكر أبو تمام ما يدل على الأسد دو أن يصرّح باسمه، فذكر موطنه، وجعل القرائن تدل على أنّ المقصود هو الأسد، يقول في مدح محمد بن يوسف الثغري³:

أَتَاكُمُ سَلِيلُ الْغَابِ فِي صَدْرِ سَيْفِهِ سَنَا لِدَجِي الْإِظْلَامِ وَالظُّلْمِ هَاتِكُ

سليل الغاب هو الأسد ابن الغابة، لأنّ الشاعر يتحدث عن شجاعة ممدوحه، ولا شيء أدلّ على هذه الشجاعة مثل الأسد، والموقف الذي فيه الممدوح هو الحرب، والحرب هي مواطن الشجعان.

ويمدح أبو تمام المعتصم، ويصف جيشه بالأسد، فيقول⁴:

إِنَّ الْأَسْوَدَ أَسْوَدَ الْغَيْلِ هِمَّتُهَا يَوْمَ الْكَرْيَةِ فِي الْمَسْلُوبِ لَا السَّلْبِ

فالشاعر يستحضر الأسد بوصفه أقوى حيوانات الغابة، وجعله ينوب عن المشبه؛ ليجعل من جند المسلمين بفعل شجاعتهم، وإقدامهم، وعلوّ همتهم، أسوداً مجتمعاً في ساح الوغى⁵.

ويجعل البحتري ممدوحه ومن يرافقه من الجيش أسوداً لها هيبته، يفرّ الموت منهم،

فيقول في مدح أبي مسلم بن حميد الطائي¹:

¹ الأصفهاني، أبو الفرج: الأغاني، ج 12، ص 1353.

² الجرجاني: دلائل الاعجاز، ص 425.

³ أبو تمام: الديوان، ج 3، ص 467.

⁴ نفسه، ج 1، ص 35.

⁵ نجم، ابراهيم صالح: جدلية الهدم والبناء في شعر أبي تمام، مجلة جامعة تشرين، 2007، ص 87.

أَسْوَدُ يَفِرُّ الْمَوْتَ مِنْهُمْ مَهَابَةً إِذَا فَرَّ مِنْهُ كُلُّ أَرْوَعٍ صَارِمٍ

ويصف البحترى أبا الصقر بالليث، يهابه الأعداء، وأظافره مخضبة بدمائهم، فيقول:²

تَتَفَادَى الْأَعْدَاءُ مِنْ سَطْوِ لَيْثٍ خِضَلٌ مِنْ دِمَائِهِمْ أَظْفُورُهُ

وقد عمدَ بعض الشعراء إلى وصف الممدوح بالأسد، وجعلوا آجامه السيوف والرماح بدلاً من الأشجار، لتكون موطنه، في إشارة إلى وجوده في ساحة الحرب. ولأبي تمام نماذج عدة في هذا الوصف، يقول في مدح المعتصم:³

أَسْدُ الْعَرِينِ إِذَا مَا الرَّوْعُ صَبَّحَهَا أَوْ صَبَّحَتْهُ وَلَكِنْ غَابَهَا الْأَسَلُ

فهذه الأسود الآدمية تختلف عن الأسود الحيوانية في موطنها، فالأولى تحت الرماح والسيوف، والأخرى في الغابات تحت الأشجار، وشتان ما بين موطنٍ وآخر. وهذا يدل على الاستعداد الدائم للحرب؛ لملازمتهم السيوف والرماح.

وفي موضع آخر يقول أبو تمام:⁴

أَسَادُ مَوْتٍ مُخَدَّرَاتٍ مَا لَهَا إِلَّا الصَّوَارِمُ وَالْقَتَا آجَامُ

وقد استخدم البحترى معنى أبي تمام السابق، في قوله:⁵

حَشَدَتْ حَوْلَهَا سِبَاعَ الْمَوَالِي وَالْعَوَالِي غَابٌ لَتَلِكِ السَّبَاعِ

وقد أخذ هذا المعنى أبو فراس الحمداني، واستخدمه في مدح سيف الدولة طالباً صحبته إلى ديار بكر، فقال:⁶

هُمُ الْفَوَارِسُ فِي أَيْدِيهِمْ أَسَلٌ فَإِنْ رَأَوْكَ فَأَسَدٌ وَالْقَتَا أَجَمُ

¹ البحترى: الديوان، ص 1972.

² نفسه، ص 910.

³ أبو تمام: الديوان، ج 2، ص 11.

⁴ نفسه، ج 2، ص 75. الأمدي: الموازنة، ج 2، ص 336.

⁵ البحترى: الديوان، ص 1244. الأمدي: الموازنة، ج 2، ص 337.

⁶ أبو فراس: الديوان، ص 288.

فيصف أبو فراس جند سيف الدولة وهم يحملون الرماح، وسيف الدولة في وسطهم،
فيجعل منهم أسوداً، تستمدّ شجاعته منه.

ولم يكتفِ الشعراء بوصف ممدوحيهم بالأسود، بل عمدوا إلى وصف العدو الذي
يواجهونه أيضاً، فابن الرومي يجمع بين ليثين، أحدهما ممدوحه والثاني عدو ممدوحه، فيقول في
مدح إسماعيل بن بلبل:¹

لَيْثٌ إِذَا زَارَ اللَّيْثَ الْهَزْبِرُ لَهُ لَمْ يُحْسَبِ اللَّيْثُ إِلَّا تَغْلَبًا ضَبْحًا²

فزئير الليث (الممدوح) يحول الليث (العدو) إلى تغلب له ضجة وصياح. فقد ساوى ابن
الرومي بين ممدوحه والعدو في الشجاعة، ثم جعل الممدوح يتفوق عليه.

وهذا ما فعله ابن المعتز في مدحه المعتضد، يقول:³

لَيْثٌ فَرَائِسُهُ اللَّيْثُ فَمَا بِيَيْضٌ مِنْ دَمِهَا لَهُ ظُفْرٌ

فقد جعل ابن المعتز ممدوحه يواجه أقرانه الشجعان، فهو ليث لا يفترس إلا الليوث،
وآثار دمائمهم لا تزول عن أطافره، لكثرة ما يقتل منهم في حربه المستمرة.

وفي موضع آخر لم يساو ابن المعتز بين ممدوحه والعدو في الشجاعة، وإنما جعل
ممدوحه يتفوق عليه، فوصف ممدوحه بالأسد بينما وصف الأعداء بالتغالب، فيقول:⁴

أَسَدٌ بَدَأَ مِنْ خَيْسِهِ فَتَضَعَّعَتْ مِنْهُ التَّغَالِبُ قَبْلَ شَدِّ سَابِقِ

فربما أراد ابن المعتز أن يحقر الأعداء ويقلل من شأنهم من خلال هذا الوصف، ولكن
وصف الممدوح بالشجاعة في هذا المثال لا يوازي المثال السابق؛ لأن التكافؤ في الشجاعة غير
موجود فيه.

¹ ابن الرومي: الديوان، ج1، ص 317 .

² الضبحة والضباح صوت التغلب وضجته، لسان العرب مادة (ضَبِحَ).

³ ابن المعتز: الديوان، ص 84 .

⁴ نفسه، ص 498.

وهذا ما فعله أسامة بن مُنقذ، فقد قُتل من شأن الأعداء فوصفهم باليوم والرخم، وممدوحه

من الأسود الضواري، فقال:¹

تَوَهَّمُوا أَنَّ ضَارِيَّ الْأَسَدِ يَنْفِرُ عَنْ عَرِينِهِ لِحُشُودِ الْيَوْمِ وَالرَّخْمِ
وَمَا دَرَوْا أَنَّهُ فِي جَحْفَلٍ لَجِبٍ مِنْ بَأْسِهِ غَيْرُ هَيْابٍ وَلَا بَرَمٍ
مُغَامِرٌ تَرَهَّبُ الْآجَالُ سَطْوَتُهُ وَتُفَرِّقُ الْأَسَدُ مِنْهُ فِي حِمَى الْأَجَمِ

فلم يساوي أسامة بين ممدوحه والعدو في الشجاعة، فاليوم والرخم مهما حشدت وجمعت من الحشود، لن تصل إلى شجاعة الأسد، فالعدو يتوهم أن حشده للجنود سينفر الأسد عن عرينه، ولكنهم يجهلون شجاعة الممدوح وقوته، وليتلافى ابن منقذ ما وقع به ابن المعتز، ساوى بين ممدوحه والعدو في الشجاعة، فهو أسدٌ تتفرقُ الأسدُ منه خوفاً.

وفي قصيدةٍ أخرى، يصف ابن المعتز شجاعة ممدوحه، فيقول في مدح المعتضد:²

يُزَعِّزُ أَحْشَاءَ الْبِلَادِ زَيْبِرُهُ وَيُبْطِلُ أَبْطَالَ الرَّجَالِ مِنَ الدُّعْرِ
إِذَا ضَمَّ قَرْنًا بَيْنَ كَفَيْهِ خِلَتَهُ يُعَانِقُ عَرْسًا فِي غَلَاتِهَا الْحُمُرِ
فَحَرَمَ أَرْضَ الْغَابَتَيْنِ وَمَاءَهَا فَهَيْهَاتَ مَنْ يَعْدُو وَهَيْهَاتَ مَنْ يَسْرُ

فهنا يجعل ابن المعتز الأعداء أبطالاً، وأقرانا لممدوحه في الشجاعة، ولكن بطولتهم تذهب من الخوف، عند سماعهم زئيره.

ويكرّر المتنبي قول ابن المعتز السابق (ليثُ فرائسه الليوث) في مدحه شجاع بن محمد

الطائي، يقول:³

أَسَدٌ دَمُ الْأَسَدِ الْهَزْبَرِ خِضَابُهُ مَوْتُ فَرِيصُ الْمَوْتِ مِنْهُ يُرْعَدُ

¹ ابن منقذ، أسامة: الديوان، ص 245.

² ابن المعتز: الديوان، ص 479/478.

³ المتنبي: الديوان، ص 48.

إنّ المتنبّي قد زاد من شجاعة العدو بقوله (الأسد الهزبر)، وهو الشديد الصلب من الأسود¹، وقد جعل دماءه خضاباً لممدوحه، فزاد من شجاعته، وهنا تفوق المتنبّي على ابن الرومي وابن المعتز في وصف شجاعة ممدوحه باستخدام صورة الأسد.

ويأتي كشاحم بصورة متكاملة لممدوحه، فيصفه بالأسد وسيوف الهند من أظفاره، فيقول في مدح الحسين بن علي التتوخي:²

أَسَدٌ وَبَيْضُ الْهِنْدِ مِنْ أَظْفَارِهِ صِلٌ³ وَسُمْرُ الْخَطِّ مِنْ أَنْيَابِهِ

ويستخدم كشاحم في هذا البيت صورة الحيّة، وأنيابها رماح تسقي الأعداء سماً.

وشبيهة بقول كشاحم قول أسامة بن منقذ:⁴

هُمُ الْأَسَدُ مِنْ بَيْضِ الصَّوَارِمِ وَالْقَتَا لَهُمْ فِي الْوَعَى النَّابُ الْحَدِيدَةُ وَالظُّفْرُ

رأينا من خلال الأمثلة السابقة أنّ الشعراء العباسيين استخدموا صورة الأسد، فساووا بينه وبين الممدوح في الشجاعة والقوة والإقدام، ولكنّ هذا الأمر ليس عاماً، بل نجد أنّ منهم من يقارن بين الممدوح والأسد، ويجعل ممدوحه يتفوق عليه، وهذا من أنواع المبالغة التي تهدف إلى "توكيد صفة الشجاعة عند الممدوح"⁵، ومن الشعراء من أخذ الصفات الحسنة الموجودة في الأسد، وألصقها بممدوحه، وأبعد عنه الصفات المذمومة، كقباحة المنظر، ونتاجة الرأحة، فالأسد يبقى من البهائم مهما بلغ من الشجاعة والقوّة.

ومن الشعراء الذين جعلوا ممدوحهم يتفوق على الأسد في الجرأة والإقدام بشار بن برد

في مدحه المهدي، يقول:⁶

¹ لسان العرب، مادة (هزبر).

² كشاحم، محمود بن الحسين: الديوان، بيروت، دار العرب، 1989، ص 344.

³ الصل: الحية التي لا تنفع فيها الرقيه، لسان العرب مادة (صلل).

⁴ أسامة بن منقذ: الديوان، ص 253.

⁵ الصفدي، ركان: ابن الرومي الشاعر المجدد، ص 202.

⁶ بشار بن برد: الديوان، ج2، ص 289.

ما اللَّيْثُ مُفْتَرِشاً فِي الْغَيْلِ كَلَكَّهُ عَلَى مَنَاقِبِهِ مِنْ فَوْقِهِ لِبَدُ
يَحْمِي الشُّبُولَ وَيَحْمِي غَيْلَ لَبْوَتِهِ وَقَدْ تَحَرَّقَ فِي حَيْزُومِهِ الْحَرْدُ
يَوْمًا بِأَجْرًا لَا وَاللَّهِ مِنْكَ إِذَا أَبْنَاءُ حَرْبٍ عَلَى نِيرَانِهَا احْتَرَدُوا

فيُجْرِي بَشَارَ مِقَارِنَةً بَيْنَ الْأَسَدِ الَّذِي يَجْلِسُ فِي الْغَابَةِ يَحْمِي أَشْبَالَهُ، وَيُدَافِعُ عَنِ حَرْمَةِ غَابَتِهِ، وَبَيْنَ مَمْدُوحِهِ فِي سَاحَةِ الْمَعْرَكَةِ، فَيَجْعَلُ مَمْدُوحَهُ يَتَفَوَّقُ عَلَيْهِ فِي الْجُرْأَةِ وَالْإِقْدَامِ، وَيُؤَكِّدُ بَشَارَ هَذَا التَّفَوُّقِ بِاسْتِخْدَامِ الْقِسْمِ.

وقد يكون تفوق المدوح على الأسد مبرراً لدى الشعراء، يؤكد ذلك ما أورده أبو هلال العسكري أن امرأة قالت لعمران بن حطان: "زعمت أنك لم تكذب في شعرٍ قط، وقد قلت:

فَهَذَاكَ مَجْزَأَةٌ بِنُ ثَوْرٍ كَانَ أَشْجَعُ مِنْ أَسَامَةِ

أَيُّكَ رَجُلٌ أَشْجَعُ مِنَ الْأَسَدِ؟ قَالَ أَنَا رَأَيْتُ مَجْزَأَةَ فَتَحَ مَدِينَةَ وَالْأَسَدُ لَا يَفْتَحُ مَدِينَةَ"¹.

وهذا أمرٌ طبيعي أن يستغرب السامع تفوق إنسان على الأسد بالقوة والشجاعة، لأن العقل لا يقبل ذلك، وهذا دفع الشعراء لإيجاد المبررات لإقناع السامع، فابن الرومي في وصفه للأتراك يجعل الشبه بينهم وبين الأسود ظاهراً، ولكنهم يتفوقون عليها بالمكر والدهاء والحلم، يقول:²

تَرَى شَبَةَ الْأَسَادِ فِيهِمْ مُبَيَّنًّا وَلَكِنَّهُمْ أَذْهَى دَهَاءً وَأَنْكَرُ
وَجُوهُهُمْ عِنْدَ اللَّقَاءِ وَجُوهُهَا وَالْحَاظُهُمْ الْحَاظُهَا حِينَ تَنْظُرُ
هُمْ هِيَ لَوْلَا إِرْبُهُمْ وَحُلُومُهُمْ لَهُمْ مَنْظَرٌ مِنْهَا مَهَيْبٌ وَمَخْبَرُ

فابن الرومي لا ينكر الشبه بين ممدوحيه والأسود، ولكنه شبه يقتصر على القوة والإقدام، والشجاعة، وليبعد عنهم الصفات الحيوانية الموجودة في الأسد جعل ممدوحيه يتفوقون بالعقل الذي يكسبهم الدهاء والمكر، ويميزهم عن الحيوانات، فوجوههم مثل وجوه الأسود،

¹ العسكري، أبو هلال: المصون في الأدب، ص 53. وبيت الشعر موجود في الأغاني، ج 18، ص 1200.

² ابن الرومي، الديوان، ج 2، ص 58.

ونظراتهم مهيبَةٌ مثل نظراتها، حتى كاد أن يساوي بينهم بقوله (هم هي)، ولكنه استترك ذلك بقوله (لولا إربهم وحلومهم).

وقد جعل أبو تمام قلوب جنود ممدوحه قلوب أسود في صدور رجال، فقال في مدح المعتصم:¹

أَسْرَى بَنُو الْإِسْلَامِ فِيهِ وَأَدْلَجُوا بِقُلُوبِ أَسَدٍ فِي صُدُورِ رِجَالِ

فقلوب الأسود تدلّ على الشجاعة والقوة، ولكنها في صدور رجال، فأخذ أبو تمام الصفة المحببة في الأسد وهي القوة والشجاعة، فهي "من الصفات الموجودة في البهائم التي ينبغي للعاقل أن يتحلّى بها"²، وترك الصفات المذمومة، فالأسد يبقى من البهائم. وشبيهه بقول أبي تمام قول المتنبي يصف شجاعته، فقلبه قلب أسد، ولكنه في صورة إنسان، يقول:³

فَارْمِ بِي مَا أَرَدْتَ مِنِّي فَإِنِّي أَسَدُ الْقَلْبِ آدَمِي الرَّوَاءِ

ويقارن أبو تمام بين ممدوحه والأسد الضرغام، فيجعل ممدوحه يتفوق عليه بالهيبة والشجاعة وتحمل الأمور العظيمة، يقول في مدح أبي سعيد محمد بن يوسف:⁴

لَوْ عَايَنَ الْأَسَدُ الضَّرْغَامَ رُؤْيَتَهُ مَا لِمِمْ إِنْ ظَنَّ رُعباً أَنَّهُ الْأَسَدُ
شَتَانٌ بَيْنَهُمَا فِي كُلِّ نَازِلَةٍ نَهَجُ الْقَضَاءِ مُبِينٌ فِيهِمَا جَدُّ
هَذَا عَلَى كَتْفَيْهِ كُلُّ نَازِلَةٍ تُخَشَى وَذَلِكَ عَلَى أَكْتَفِيهِ اللَّبْدُ

ويجعل أبو تمام من تبسم ممدوحه في الروع دليلاً على شجاعته، الأمر الذي جعله يتفوق على ليث الغابة، فيقول في مدح محمد بن الهيثم:⁵

كَالْيَيْثِ لَيْثِ الْغَابِ إِلَّا أَنْ ذَا فِي الرَّوْعِ بَسَامٌ وَذَلِكَ شَتِيمٌ

¹ أبو تمام: الديوان، ج 2، ص 64. الامدي: الموازنة، ج 3، ص 323.

² الأبيشي: المستطرف في كل فن مستطرف، ج 1، ص 464.

³ المتنبي: الديوان، ص 447.

⁴ أبو تمام: الديوان، ج 1، ص 242.

⁵ نفسه، ج 2، ص 146.

لقد أوجد أبو تمام الفارق بين الليث ومدوحه، فمدوحه متبسم في الشدائد وخاصة في الحرب، لأنّ التبسم في الشدائد وساحات الوغى أدلُّ على الشجاعة من العبوس، يقول الأمدي "دليل الشجاعة التبسم في الحرب"¹، ولذلك أعاب الأمدي على البحرى وصفه بمدوحه بالقطوب بالقطوب في الحرب في قوله (تبسم قطوب في ندى ووغى)؛ لأنّ العبوس من صفة الجبان، والقطوب في الحرب ليس مدحاً، ولذلك فضّل قول أبي تمام (ضحوك إلى الأبطال وهو يروعهم)، والأحسن منه في رأيه قول أبي تمام (في الروع بسام وذاك شتيم)².

وقد عمد الشعراء إلى إثبات شجاعة مدوحهم بأخذ الصفات الجيدة الموجودة في الأسد، وإبعاد الصفات الجسدية المذمومة الموجودة فيه، فأبو تمام يجعل مدوحه في البأس والقوة والنجدة مثل الأسد، ولكنه أحيا منه وجهاً وأكرم، يقول في مدح أبي سعيد محمد بن يوسف:³

هُوَ اللَّيْثُ لَيْثُ الْغَابِ بِأَسَأَ وَنَجْدَةً وَإِنْ كَانَ أَحْيَا مِنْهُ وَجْهًا وَأَكْرَمَا

وقد لجأ المتنبي إلى إبعاد الشبه بين مدوحه والأسد في الشكل والمنظر؛ لأنّ الأسد يتميز بقبح منظره، فقد أورد أبو على القالي في أماليه قوله: "الباسل الكريه المنظر، وإنما قيل للأسد باسل لكرهه وجهه وقبحه"⁴، يقول المتنبي في مدح أبي عبد الله محمد بن عبد الله:⁵

لَمْ نَفْتَقِدْ بِكَ مِنْ مُزْنٍ سِوَى نَثْقٍ⁶ وَلَا مِنَ الْبَحْرِ غَيْرَ الرِّيحِ وَالسُّفْنِ
وَلَا مِنَ اللَّيْثِ الْقَبِيحِ مَنْظَرِهِ وَمِنْ سِوَاهِ سِوَى مَا لَيْسَ بِالْحَسَنِ

لقد أحسن المتنبي في هذه الأبيات؛ لأنّه استطاع أن يُبعد عن مدوحه كلّ الصفات السيئة ويثبت له الصفات الحسنة، فوصفه بالسحاب، والبحر، والليث، فأخذ الجوانب الايجابية فيها وترك الجوانب السلبية، وما يهمننا هنا أنّه يبعد القبح الذي في وجه الأسد عن مدوحه، ويثبت له

¹ الأمدي: الموازنة، ج 3، ص 312.

² نفسه، ج 3، ص 312.

³ أبو تمام: الديوان، ج 2، ص 122.

⁴ القالي، أبو على إسماعيل بن القاسم: الأمالي، بيروت، دار الكتب العلمية، د.ت، ج 1، ص 48.

⁵ المتنبي: الديوان، ص 173.

⁶ اللثق: اللزج من الطين. لسان العرب مادة (لثق).

صفات القوة والشجاعة. وقد تدرج المتنبي من الخاص إلى العام، فعَدَّدَ بعض الصُّور لممدوحه وأبعد الجوانب القبيحة منها، ثم جاء بقاعدة عامة لتشمل كلَّ الصُّور الأخرى مع إبعاد ما ليس بالحسن عنه، واستطاع المتنبي بذلك إكمال المعنى، فلم يبقَ مجالاً لأي إضافة فيه، ولهذا عدَّ الثعالبي هذه الأبيات من الأمثلة على حسن التقسيم عند المتنبي¹، وهذا ما فعله ابن الرومي قبل المتنبي، فأثبت لممدوحه الخلائق المحمودة في الأسد وأبعد عنه ما هو مذموم، فقال في مدح أسد بن جهور:²

يَا أَسَدًا يَا ابْنَ جَهْوَرٍ طَرَقَتْ دَهْيَاءُ يُغْنِي فِي مِثْلِهَا الْأَسَدُ
وَفِيكَ أَشْيَاءٌ مِنْ خَلَائِقِهِ مَحْمُودَةٌ لَا يَذْمُهَا أَحَدُ
لَا الْعُشْمُ مِنْهُ بَلِ الْبَسَالَةُ وَالنَّجْمُ دَةٌ عِنْدَ الْحِفَاظِ وَالْجَلْدُ

فوجود بعض الصفات المذمومة في الأسد جعلت الشعراء يحددون الصفة التي يريدون تشبيهه بمدوحهم فيها، ومن ذلك قول أبي تمام في مدح أبي سعيد محمد بن يوسف، يقول:³

وَالْحَامِلُ الْأَقْوَامِ فَوْقَ سَلَاهِبِ وَالْحَاكِي الرَّئِبَالَ فِي إِقْدَامِهِ

وهذا ما فعله البحتري في مدح أبي نهشل:⁴

كَالسَّيْفِ فِي إِخْدَامِهِ وَالْغَيْثِ فِي إِرْهَامِهِ وَاللَّيْثِ فِي إِقْدَامِهِ

وقد جعل ابن الرومي الأسد يشبهه بمدوحه في الشجاعة، فقال في مدح علي بن يحيى:⁵

وَأَبَى قَلْبُكَ الْمُشَيِّعُ إِلَّا جُرْأَةَ اللَّيْثِ مِثْلِكَ الرَّئِبَالَ

فَجَعَلَ الْأَشْيَاءَ أَشْبَهَ بِالْمَدْحِ تَزِيدُ مِنْ وَجُودِ الصِّفَةِ فِيهِ، يَقُولُ الْأَصْمَعِيُّ "سَمِعْتُ أَعْرَابِيًّا يَقُولُ: إِنَّكُمْ مَعَاشِرَ أَهْلِ الْحَضَرِ لَتَخْطُونَ الْمَعْنَى، إِنَّ أَحَدَكُمْ لِيَصِفُ الرَّجُلَ بِالشَّجَاعَةِ فَيَقُولُ:

¹ الثعالبي: أبو الطيب المتنبي ما له وما عليه، ص 115.

² ابن الرومي: الديوان، ج 1، ص 461.

³ أبو تمام: الديوان، ج 2، ص 123.

⁴ البحتري: الديوان، ص 1989.

⁵ ابن الرومي: الديوان، ج 3، ص 182.

كأنه الأسد، ويصف المرأة بالحسن يقول: كأنها الشمس، لم لا تجعلون هذه الأشياء بهم أشبه؟¹. وقد أنكر عبد الملك بن مروان على الشعراء تشبيه الممدوح بالأسد لأنه أبحر²، وهذا معروف عن الأسد وهي من الصفات المذمومة فيه، وهذا ما يؤكد المبرد بقوله: "الأسد أنتن السباع فما"³، ولهذا وجدنا أن الأسد صار يُستخدَم في معرَضِ الهجاء، ويظهر ذلك في قول ابن الشَّمقمق يهجو داوود بن بكر والي الأهواز:⁴

لَهُ نَكَهَةٌ لَيْثٌ خَالَطَتْ نَكَهَةَ صَقْرٍ

وإذا كان ابن الرومي قد جعل من الأسد شبيهاً بممدوحه، فإنَّ المنتبي رفض ذلك الشبه،

ويظهر ذلك في قوله يمدح أبا بكر علي بن صالح الروزباري:⁵

وَلَوْلَا احْتِقَارُ الْأَسَدِ شَبَّهَتْهُمْ بِهَا وَلَكِنَّهَا مَعْدُودَةٌ فِي الْبَهَائِمِ

- صورة السيف

أدرك الشعراء أهميّة السيف في المعركة، ودوره في حسمها، وهو السلاح الذي يدل على جرأة المقاتل وشجاعته؛ لأنّ من يقاتل بالسيف يكن أقرب إلى عدوّه، وهذا ما دفع الشعراء إلى وصف ممدوحهم بالسيف، ومضاء حدّه وجرأته.

فبشار يصف ممدوحه بالسيف الذي يجعل قبيلته عصية على من يحاول الاعتداء عليها،

فيقول في مدح عبد الله بن عمر بن عبد العزيز:⁶

هُوَ الشِّهَابُ الَّذِي يُكْوَى الْعَدُوَّ بِهِ وَالْمَشْرِفِيُّ الَّذِي تُعْصَى بِهِ مُضَرُّ

¹ أبو هلال العسكري: ديوان المعاني، ص 27.

² أبو هلال العسكري: المصون في الأدب، ص 62 .

³ المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد: الكامل في اللغة والأدب، تحقيق محمد بن أحمد الدالي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط3، 1997، ج2، ص 946.

⁴ أبو الشَّمقمق: الديوان، تحقيق واضح محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1995، ص 44.

⁵ المنتبي: الديوان، ص 211. الثعالبي: أبو الطيب المنتبي ما له وما عليه، ص 110. وقد أوردَ شَبَّهَتْهَا بِهِ بِدَلِّ مَنْ شَبَّهَتْهُمْ بِهَا.

⁶ بشار بن برد: الديوان، ج 3، ص 175 .

وبساوي أبو تمام بين السيف واليد التي تحمله وتقاتل به، فيقول:¹

يُمْدُونَ بِالْبَيْضِ الْقَوَاطِعِ أَيْدِيًا فَهَنْ سَوَاءً وَالسَّيُوفُ الْقَوَاطِعُ

وقد أخذ المتنبي هذا المعنى فقال:²

هُمَا إِذَا فَارَقَ السَّيْفُ غِمْدَهُ وَعَايَنَتْهُ لَمْ تَدْرِ أَيُّهُمَا النَّصْلُ

إنَّ شِدَّةَ الشَّبهِ بَيْنَ السَّيْفِ وَالْمَمْدُوحِ تَجْعَلُ النَّاضِرَ فِي حَيْرَةٍ مِنْ أَمْرِهِ، فَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَحْدَدَ أَيُّهُمَا نَصْلَ السَّيْفِ. فَالْفَارِقُ بَيْنَ قَوْلِ الْمَتْنَبِيِّ وَقَوْلِ أَبِي تَمَامٍ السَّابِقِ، أَنَّ أَبَا تَمَامٍ سَاوَى بَيْنَ الْيَدِ وَالسَّيْفِ، وَلَكِنَّ الْمَتْنَبِيَّ جَعَلَ مَمْدُوحَهُ شَبِيهًا بِالسَّيْفِ.

وممدوح البحرى سيفٌ مسلطٌ على أعدائه، يقول:³

سَيْفٌ عَلَى أَعْدَائِهِ لَا تَتَجَلَّى ظِلْمُ الْخُطُوبِ السُّودِ حَتَّى يُجْتَلَى

ويرسم ابن الرومي صورةً رائعةً في للحسن بن عبيد الله بن سليمان، فيقول:⁴

هَبْنَهُ سَيْفًا أَعْدَتَهُ قَلْعِيًّا⁵ لِلإِمَامِ النَّجِيدِ فِي إِنْجَادِهِ

يَرْتَدِيهِ فِي السَّلْمِ زَيْنًا وَطَوْرًا يَنْتَضِيهِ فِي الْحَرْبِ عِنْدَ جِلَادِهِ

فَاسْتَلَّهُ عَلَى الْخُطُوبِ تُحَقِّقُ مَا أَرَاكَ الرَّجَاءُ فِي إِعْدَادِهِ

فالممدوح سيف قلعي، وهو من السيوف التي غنمها رسول الله صلى الله عليه وسلم من بني قينقاع⁶، وهو يستخدم في حالتي السلم والحرب.

ويجعل ابن المعتز ممدوحه حساماً حاسماً وقاطعاً، فيقول:⁷

¹ أبو تمام: الديوان، ج2، ص 453. الجرجاني: الوساطة بين المتنبي وخصومه، ص 289. الثعالبي: أبو الطيب المتنبي ما له وما عليه، ص 55.

² المتنبي: الديوان، ص 45.

³ البحرى: الديوان، ص1876.

⁴ ابن الرومي: الديوان، ج 1، ص 457.

⁵ سيف قلعي نسبةً إلى مرج قلعة في البادية. ينظر ابن سيّد الناس: عيون الأثر في المغازي والسياسة، ص 396.

⁶ ابن سيّد الناس: عيون الأثر في المغازي والسياسة، ص 396.

⁷ ابن المعتز: الديوان، ص 464.

حُسَامٌ حِينَ لَا يَبْقَى حُسَامٌ صَدُوقٌ لَا يُكْذِبُهُ ذُبَابُهُ

ويصف أبو فراس نفسه بالسيف البتار في يد سيف الدولة، فيضرب به العدو، يقول: ¹

يَا ضَارِبَ الْجَيْشِ بِي فِي وَسْطِ مَفْرَقِهِ لَقَدْ ضَرَبْتَ بَعَيْنِ الصَّارِمِ الْعَضْبِ
لَا تُحْرِزُ الدَّرْعُ عَنِّي نَفْسَ صَاحِبِهَا وَلَا أُجِيرُ ذِمَامَ الْبَيْضِ وَالْيَلْبِ

ولقد أبدع المتنبي في تصوير ممدوحه بالسيف في مدحه سيف الدولة "فترى أتكاهه الواضح على تقرير شجاعة نموذجه، بالرّبط بين اسم السيف ولقب السيف، وكأنّ الاشتراك في اللفظ يوجب الاشتراك في الصّفة" ²، والسيف النموذج لا يشبه السيوف، بل يتفوق عليها في أصله وصنعه وطبيعته، فيقول: ³

أَتَحْسَبُ بَيْضُ الْهِنْدِ أَصْلَكَ أَصْلَهَا وَإِنَّكَ مِنْهَا سَاءَ مَا تَتَوَهَّمُ
إِذْ نَحْنُ سَمِيَّتَاكَ خَلْنَا سُيُوفَنَا مِنْ التِّيهِ فِي أَعْمَادِهَا تَتَبَسَّمُ

فالمساواة فالأصل بين الممدوح والسيوف الهندية وهم لا أصل له، فالسيوف تفتخر عندما تسمع اسمه وتشترك معه فيه.

وفي هذا المعنى يقول المتنبي في مدحه محمد بن سيار التميمي: ⁴

سَرَى السَّيْفُ مِمَّا تَطْبَعُ الْهِنْدُ صَاحِبِي إِلَى السَّيْفِ مِمَّا يَطْبَعُ اللَّهُ لَا الْهِنْدُ

فالممدوح من صنع الله، والسيوف الهندية صناعة البشر، فشتان بين صنع الله وصنع البشر.

وفي مدح سيف الدولة يفرّق المتنبي بين ممدوحه والسيوف من جهة الخلق والعمل،

مفضلاً ممدوحه عليها، فيقول: ⁵

¹ أبو فراس الحمداني: الديوان، ص 58.

² محمد فتوح: شعر المتنبي قراءة أخرى، ص 90.

³ المتنبي: الديوان، ص 305.

⁴ نفسه، ص 199.

⁵ نفسه، ص 338.

انظُرْ إِذَا اجْتَمَعَ السَّيْفَانِ فِي رَهَجٍ إِلَى اخْتِلَافِهِمَا فِي الْخَلْقِ وَالْعَمَلِ
هَذَا الْمُعَدُّ لِرَيْبِ الدَّهْرِ مُنْصَلِتًا أَعَدَّ هَذَا لِرَأْسِ الْفَارِسِ الْبِطْلِ

ويرى المنتبي أن إطلاق اسم السيف على ممدوحه ظلم، فما كل السيوف تقطع الهام مثل ممدوحه، ولا كلها تقضي على الشدائد بالكرم مثله، فنرى المنتبي يجمع بين الشجاعة والكرم في مدحه سيف الدولة، فيقول:¹

وإنَّ الَّذِي سَمِيَ عَلِيًّا لَمُنْصِفٌ وَإِنَّ الَّذِي سَمَاهُ سَيْفًا لَظَالِمُهُ
وَمَا كُلُّ سَيْفٍ يَقْطَعُ الْهَامَ حَدَّهُ وَتَقْطَعُ لَزَبَاتِ الزَّمَانِ مَكَارِمُهُ

ويرى المنتبي أن الفرق بين سيف الدولة والسيوف كالفرق بين المخدم والخدم، فيقول:²

يُسَمَّى الْحَسَامُ وَلَيْسَتْ مِنْ مُشَابِهَةِ وَكَيْفَ يَشْتَبَهُ الْمَخْدُومُ وَالْخَدَمُ

وكل سيف يطول استخدامه في الضرب ينب، إلا سيف الدولة، يقول المنتبي:³

كُلُّ السُّيُوفِ إِذَا طَالَ الضَّرَابُ بِهَا يَمَسُّهَا غَيْرَ سَيْفِ الدَّوْلَةِ السَّامِ

وإن ممدوح المنتبي سيف لا يدخل غمده، ولا شيء يحمي من ضرباته، يقول:⁴

أَلَا أَيُّهَا السَّيْفُ الَّذِي لَيْسَ مُغْمَدًا وَلَا فِيهِ مُرْتَابٌ وَلَا مِنْهُ عَاصِمٌ

فهو مثل الطوفان الذي أصاب قوم نوح عليه السلام، كما جاء في قوله تعالى: ﴿لَا عَاصِمَ

اليَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾⁵، فالسيف الممدوح من صنع الله ليس منه عاصم، والطوفان أيضاً من صنع صنع الله لا عاصم منه.

ويؤكد المنتبي تفرد ممدوحه سيف الدولة، فيصفه بالسيف الذي لا شبيه له، فيقول:⁶

¹ المنتبي: الديوان، ص 260.

² نفسه، ص 364.

³ نفسه، ص 419.

⁴ نفسه، ص 389.

⁵ سورة هود، الآية (43).

⁶ المنتبي: الديوان، ص 319.

خَلَيْبِي إِنِّي لَا أَرَى غَيْرَ شَاعِرٍ فَلِمَ مِنْهُمْ الدَّعْوَى وَمِنِّي القَصَائِدُ
فَلَا تَعَجَّبَا إِنَّ السَّيُوفَ كَثِيرَةٌ وَلَكِنَّ سَيْفَ الدَّوْلَةِ الْيَوْمَ وَاحِدٌ

فتفرّد المنتبّي بشعره بالرغم من كثرة المتشاعرين، لا يحاكيه ولا يوازيه إلا تفرّد سيف الدولة على الرغم من كثرة السيوف¹.

وإنّ تسمية سيف الدولة بهذا الاسم جاءت بعد التجربة، فظهر في الشدائد سيفاً صارماً، يقول المنتبّي:²

إِنَّ الخَلِيفَةَ لَمْ يُسَمِّكَ سَيْفَهَا حَتَّى ابْتَلَكَ فَكُنْتَ عَيْنَ الصَّارِمِ

ولم يقتصر الشعراء في تصويرهم الشجاع على صورة السيف، بل نجد أنّ من الشعراء من صورّ ممدوحه بالسهم أو الرمح، ومن ذلك قول بشار في مدح داود بن حاتم:³

سَهْمُ النَّقَاءِ إِذَا غَدَا فِي دِرْعِهِ رَأَيْتَ مَشَاهِدَهُ الثَّأْيَ⁴ بِرِئَابِهِ⁵

وفي إطار صورة السهم الدالة على الشجاعة والإقدام، جاء قول أبي فراس في مدح سيف الدولة:⁶

وَكُنَّا كَالسَّهَامِ إِذَا أَصَابَتْ مَرَامِيَهَا فَرَامِيَهَا أَصَابَا

استطاع أبو فراس في هذا البيت أن يمدح سيف الدولة وجنده بالشجاعة إذ جعل أفراد الجيش سهاماً، وسيف الدولة هو الرامي، الذي يصيب الأهداف بدقة.

ويصف ابن الرومي المعتضد في ساحة المعركة وهو يقاتل ببسالة، فلا ينجو منه أحد، فهو مثل النار المستعرة من كلّ الجوانب، أو الرمح ذي النصلين، يقول:⁷

¹ محمد فتوح: شعر المنتبّي قراءة أخرى، ص 62.

² المنتبّي: الديوان، ص 288.

³ بشار: الديوان، ص 310.

⁴ الثأْي: الفساد، لسان العرب مادة (ثأْي).

⁵ رأْب: أصلح، لسان العرب مادة (رأْب).

⁶ أبو فراس: الديوان، ص 32.

⁷ ابن الرومي: الديوان، ج 2، ص 58.

هُوَ النَّارُ مِنْ أَيِّ النَّوَاحِي غَشِيَتْهَا تَلَقَّكَ مِنْهَا جَانِبٌ يَتَسَاوَرُ
أَوْ الرُّمْحُ ذُو النَّصْلَيْنِ كَيْفَ رَهَقْتَهُ رَهَقْتَ حِمَامَ الْمَوْتِ أَوْ يَتَأَخَّرُ

- بعض مظاهر الطبيعة

وقد استخدم الشعراء العباسيون بعض مظاهر الطبيعة؛ لرسم صورة الشجاع، فاستخدموا السماء السحاب والسيل والجبل.

فابن المعتز يصف ممدوحه بالسَّماء، فيقول في مدح المعتضد:¹

سِيرُوا عَلَى خَطِّ الطَّرِيقِ فَإِنَّهُ إِنْ رُحِمْتُمْ لِلنَّكَثِ اسْرِعْ لَاحِقُ
هُوَ كَالسَّمَاءِ عَلَى الْأَنَامِ فَحَيْثُمَا كُنْتُمْ رَمَتَكُمْ كَفُّهُ مِنْ حَالِقِ²

فلا مهرب من الممدوح؛ لأنه قادر على الوصول إلى أي مكان، فهذا وصف تفوق فيه ابن المعتز على النابغة، الذي أراد وصف قدرة النعمان في الوصول إليه في أي مكان يصله، فوصفه بالليل الذي لا مهرب منه، فيقول:³

فإنَّكَ كَاللَّيْلِ الَّذِي هُوَ مُدْرِكِي وَإِنْ خَلَّتْ أَنْ الْمُتَتَّأَى عَنْكَ وَاسِعُ

فالسَّماءِ أَعْمَ وَأَشْمَلَ مِنَ اللَّيْلِ؛ لِأَنَّ اللَّيْلَ يَمْحُوهُ النَّهَارُ وَالسَّمَاءَ مَوْجُودَةً وَحَاضِرَةً فِي
اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ.

ومن الصور المستخدمة صورة السحاب، الدالة على الشجاعة والكرم ومن ذلك قول

اليحترى:⁴

بِأَرْوَعٍ مِنْ طَيِّ كَأَنَّ قَمِيصَهُ يَزُرُّ عَلَى الشَّيْخَيْنِ زَيْدٍ وَحَاتِمِ
سَمَاحاً وَبِأَسَا كَالصَّوَاعِقِ وَالْحَيَا إِذَا اجْتَمَعَا فِي الْعَارِضِ الْمُتَرَاقِمِ

¹ ابن المعتز: الديوان، ص 449.

² حالق: المكان المرتفع أو الجبل الخالي من الأشجار والنبات. لسان العرب مادة (حَلَقَ).

³ أبو زيد القرشي: جمهرة أشعار العرب، ص72. ابن طباطبا العلوي: عيار الشعر، ص 14. الصفيدي، صلاح الدين خليل: الوافي بالوفيات، ج25، ص345.

⁴ البحرني: الديوان، ص1971. الجرجاني: الوساطة بين المتبني وخصومه، ص 299.

فقد أحالنا البحتري في هذه الأبيات إلى التاريخ، فاستحضر شخصيتين عُرفتا بالشجاعة والكرم، وهما زيد الخيل الذي عرف بشجاعته وفروسيته¹، وحاتم الطائي الذي عُرف بكرمه وسخائه، وقد جمع ممدوحُ البحتري الشخصيتين معاً فتميز بشجاعته وكرمه، ثم جاء البحتري بصورة السحاب؛ ليحتجّ لجمع ممدوحه الشجاعة مع الكرم، فالبأس يتمثل بالصواعق، والسّماح بالمطر، فممدوحه يشبه السحاب في حالتين متناقضتين هما: قوة الصواعق المخيفة المرعبة، والمطر الذي يعم به الخير. وشبيهة بقول البحتري قول المتنبي:²

فَتَى كَالسَّحَابِ الْجُونِ يُخْشَى وَيُرْتَجَى يُرْجَى الْحَيَا مِنْهُ وَتُخْشَى الصَّوَاعِقُ

وهذا البيت من الأبيات التي ذكرها ابن رشيق وعدّه من جيد التفسير في بيت واحد، وقد فضّله على قول البحتري السابق.³

وبيتا البحتري والمنتبي السابقان مأخوذان من قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾⁴.

وفي المعنى نفسه يقول ابن الرومي في مدح المعتضد:⁵

هُوَ عَارِضٌ زَجِلٌ⁶ فَمَنْ شَاءَ الْحَيَا أَرْضَى وَمَنْ شَاءَ الصَّوَاعِقُ أَغْضَبَا

فجاء ابن الرومي بصورة السحاب في حالتين متناقضتين، وهما المطر الذي يمثّل العطاء والخير، وحالة الصواعق التي تمثّل الشدة والقوة. وشبيهة بقول ابن الرومي قول المتنبي بمدح سيف الدولة:⁷

هُوَ الْبَحْرُ غُصٌّ فِيهِ إِذَا كَانَ سَاكِنًا عَلَى الدُّرِّ وَاحْذَرُهُ إِنْ كَانَ مُزْبِدًا

¹ الأندلسي، ابن حزم أبو محمد على بن سعيد: جمهرة أنساب العرب، تحقيق ليفي يورفنسال، القاهرة، دار المعارف، د.ت، ص 389.

² المتنبي: الديوان، ص 77. ابن رشيق العمدة، ص 38. الجرجاني: الواسطة، ص 299.

³ ابن رشيق: العمدة في محاسن الشعر، ج 2، ص 38.

⁴ سورة الرعد، الآية (12).

⁵ ابن الرومي: الديوان، ج 1، ص 238.

⁶ عارض زجل : سحاب نور رعد له صوت . لسان العرب مادة (زجل) .

⁷ المتنبي: الديوان، ص 370.

ويستحضر أبو تمام صورة السيل وما فيه من الشدة والعنف، وتحطيم كل ما يعترضه، ولكنه يحمل الخَيْرَ لِمَنْ يسايره ويتبع أثره، ولا يقف في وجهه، فيقول في مدح أبي سعيد محمد بن يوسف:¹

هُوَ السَّيْلُ إِنْ وَاجَهْتَهُ انْقَدْتَ طَوْعَهُ وَتَقْتَادُهُ مِنْ جَانِبَيْهِ فَيَتَّبِعُ

ويرى فتحي أبو مراد أن المتنبّي قصد من خلال هذا البيت تصوير شجاعة ممدوحه وكرمه بطريقة غير مألوفة، فوصف ممدوحه بالسيل، والمتوقع أن يصفه بالبحر، ليدل على كرمه، ولكنه اختار صفةً جديدة، وجعل ممدوحه يشبه السيل في حالتين متجاورتين ومتناقضتين، وهما القوة المدمرة، والنفع الذي يقدمه للأرض، فلو اختار البحر لغاب عن تصوّرنا القوة المدمرة التي يمتلكها الممدوح لمن يعانده ويعاديه². ولكن المتنبّي استطاع أن يصوّر شجاعة ممدوحه وكرمه باستخدام صورة البحر، فنرى الصورتين المتجاورتين المتناقضتين في بيت أبي تمام، وهو يحمل المعنى نفسه، فهو وصف لكرم الممدوح وشجاعته.

وإذا كان أبو تمام قد ساوى بين ممدوحه والسيل، فإن ابن الرومي يرى أن ممدوحه أشدّ من السيل، يقول:³

أَشَدُّ مِنَ السَّيْلِ الْعَشْمَشَمِ حَمْلَةً وَأَثْبَتُ مِنْ بَعْضِ الْأَسْوَدِ الرَّهَائِصِ

ولكن ابن الرومي اقتصر على جانب واحد من الصورة؛ فهو يتحدث عن شجاعة ممدوحه، فلم يأت بالجانب الآخر للسيل، وهو الخير والنفع كما فعل أبو تمام في استخدامه.

ويأتي أبو فراس بصورة الجبل ليصف شجاعة ممدوحه سيف الدولة، فيقول:⁴

إِذَا التَّقَّتْ عَلَيَّ سُرَاةٌ قَوْمِي وَلَا قَيْتَنَا الْفَوَارِسَ فِي الصَّبَاحِ
يَخْفُ بِهَا إِلَى الْغَمَرَاتِ⁵ طَوْدًا¹ مِنَ الْأَطْوَادِ مُتَتَبِعُ النَّوَاحِي

¹ أبو تمام: الديوان، ج 1، ص 400.

² أبو مراد، فتحي: من مظاهر الانحراف الأسلوبية في عينية أبي تمام، مجلة جامعة النجاح الوطنية للأبحاث والعلوم الإنسانية، مجلد 25، 2011، ص 2271.

³ ابن الرومي: الديوان، ج 2، ص 263.

⁴ أبو فراس: الديوان، ص 84.

⁵ غمرات الحرب: شدائدها. لسان العرب مادة (عَمَر).

الفصل الثاني

الحرب وأدواتها في الشعر العباسي

¹ الطود: الجبل العظيم . لسان العرب مادة (طَوَدَ).

الفصل الثاني

الحرب وأدواتها في الشعر العباسي

الحرب موطن الشجعان، وميدان الفرسان، يُظهرون فيها شجاعتهم، ويستعرضون بطولاتهم، ولذلك وجدَّ الشعراء فيها مجالاً واسعاً للحديث عن الشجاعة، فوصفوا المعارك، وميادينها وأدواتها من سيوفٍ ورماح؛ لأنها من أحسن الموضوعات للفخر بالشجاعة والمدح بها¹. فدخلوا في أدق تفاصيلها. كلُّ ذلك قدّم " للشعراء مادّةً لا تفتنى، يصوغون منها ما يشاؤون من صور وألوان"².

- علاقة الشجاع بالحرب

أصبحت الحرب في وصف الشعراء ضرورة من ضرورات الحياة عند الشجاع، وعادة تعود عليها، وملذّة يتلذذ بها، فلا يستطيع تركها، فممدوح بشار تعود لقاء الأعداء، فتكررت عنده مشاهد الحرب، وتعددت، يقول في مدح يزيد بن يزيد الشيباني³:

مَضَى شَأْوُهُ قَبْلَ الْجِيَادِ وَقُرُوءُهُ طِرَادُ الْأَعَادِي مَشْهَدًا بَعْدَ مَشْهَدٍ

وقد استخدم بشار كلمة (قُرُوء) و (مشهداً بعد مشهد) ليؤكد تكرار جولات الحرب عند

ممدوحه.

وممدوح بشار يتلذذ بسفك الدماء والعطاء، يقول في مدح عمرو بن العلاء⁴:

يَلْذُ الْعَطَاءَ وَسَفَكَ الدِّمَاءِ وَيَغْدُو عَلَى نَعَمٍ أَوْ نِقَمٍ
فَقُلْ لِلْخَائِفَةِ إِنْ جِئْتَهُ نَصُوحاً وَلَا خَيْرَ فِي مُتَّهَمٍ
إِذَا أَيْقَظْتُكَ حُرُوبُ الْعِدَا فَنَبِيَهُ لَهَا عَمَرًا ثَمَّ نَمٍ

¹ الجندي، علي: شعر الحرب في العصر الجاهلي، القاهرة، دار الفكر العربي، د.ت، ص 67.

² نفسه، ص 66.

³ بشار بن برد: الديوان، ج 3، ص 61.

⁴ نفسه، ج 4، ص 160. أبو هلال العسكري: ديوان المعاني، ص 60. ابن المعتز: طبقات الشعراء، ص 20. قدامة بن

جعفر: نقد الشعر، ص 150.

فَتَّى لَا يَنَامُ عَلَى دِمْنَةٍ وَلَا يَشْرَبُ الْمَاءَ إِلَّا بَدْمُ

فجمع بشار في ممدوحه شيمتي الكرم والشجاعة، فهو لا يشرب الماء إلا مع الدم، وهذا شرب معنوي، يدل على عشق الممدوح الحرب، وتلذذه بها كما يتلذذ الظمآن بشرب الماء، وبذلك جعل بشار خوض المعارك وقتل الأعداء أمراً ضرورياً عند ممدوحه؛ لأنه ربط بينها وبين شرب الماء.

ولقد تقدّم بشار في هذه الأبيات، الأمر الذي جعل قدامى النقاد يعجبون بها، فهي من المديح البارع حسب رأي العسكري¹، وهي من جيد شعره كما يرى ابن المعتز²، وقد أورد قدامة ابن جعفر قول بشار (فنبه لها عمراً ثم نم) في حديثه عن التكافؤ بين الألفاظ، وقد أظهر دقة بشار في اختياره لفظة (نبه) و (نم) الأمر الذي يجعل الشعر قوياً وجيداً³.

ويصور أبو تمام الحرب بالناقاة الزبون التي تدفع حالبها وتضربه برجلها⁴، ومع ذلك فإن الممدوح يعتلي ظهرها، ويخوض غمارها، فهي أمه التي تربي بين يديها وشرب من حليبها حتى قوي وصلب عوده، يقول في، مدح الوائق بالله:⁵

لَيْتَ إِذَا خَفَقَ اللَّوَاءُ رَأْيَتَهُ يَعْلُو قَرَى الْهَيْجَاءِ وَهِيَ زَبُونُ
لِحِيَاضِهَا مُتَوَدِّدٌ وَلِخَطْبِهَا مُتَعَمِّدٌ وَيَثُودِيهَا مَلْبُونُ

ويرى أبو تمام أن ممدوحه مغرم بالسيف والرماح بدلا من النساء، فيقول في مدح أبي سعيد محمد بن يوسف الثغري:⁶

وَمَنْ كَانَ بِالْبَيْضِ الْكَوَاعِبِ مُغْرَمًا فَمَا زِلْتَ بِالْبَيْضِ الْقَوَاضِبِ مُغْرَمًا
وَمَنْ تَيَمَّتْ سُمْرُ الْحِسَانِ وَأُدْمُهَا فَمَا زِلْتَ بِالسُّمْرِ الْعَوَالِي مُتَيَّمًا

¹ العسكري، أبو هلال: ديوان المعاني، ص 60 .

² ابن المعتز: طبقات الشعراء، ص 25 .

³ قدامة بن جعفر: نقد الشعر، ص 150 .

⁴ لسان العرب، مادة (زبن).

⁵ أبو تمام: الديوان، ج 2، ص 165 .

⁶ نفسه، ج 1، ص 117 .

ونلاحظ في هذه الأبيات دقة اختيار أبي تمام الألفاظ، فجعل التناسب بين الألوان واضحاً، فالبيض من النساء مقابل السيف، واختار من أسماء السيف الأبيض؛ ليتلاءم مع النساء البيض، والسمر من النساء مقابل الرماح، واختار من أسمائها الأسمر، وهذا ما أكسب الأبيات جمالاً.

وممدوح المتنبي، تعودّ على طعن العدا، وخوض المعارك، يقول في مدح سيف الدولة:¹

الدولة:¹

لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْ دَهْرِهِ مَا تَعَوَّدَا وَعَادَةُ سَيْفِ الدَّوْلَةِ الطَّعْنُ فِي الْعَدَا

فقد طلع المتنبي بقاعدة عامة، فكلّ إنسان تعودّ عادات تبقى ملازمة له، وهي قاعدة تمهد للحديث عن تعودّ ممدوحه طعن الأعداء في ساحات الوغى.

وفي موضع آخر يتحدث المتنبي عن فروسيّته، وتعودّه على الحرب، فصار قعوده عنها

يَجْلِبُ لَهُ الْمَرَضُ وَالتَّعَبُ، فيقول:²

وَمَا فِي طَبِّهِ أَنِّي جَوَادٌ أَضَرَّ بِجِسْمِهِ طُولُ الْجِمَامِ
تَعَوَّدَ أَنْ يُغَبَّرَ فِي السَّرَايَا وَيَدْخُلُ مِنْ قَتَامٍ³ فِي قَتَامِ

والمعاركُ في نظر المتنبي عادات ممدوحه وأوطانه، يقول:⁴

قَادَ الْجِيَادَ إِلَى الطَّعَانِ وَلَمْ يَقْدُ إِلَّا إِلَى الْعَادَاتِ وَالْأَوْطَانِ

وجعل المتنبي نفسه ابن الحرب، فقال مفتخراً بنفسه:⁵

أَنَا ابْنُ اللِّقَاءِ أَنَا ابْنُ السَّخَاءِ أَنَا ابْنُ الضَّرَابِ أَنَا ابْنُ الطَّعَانِ

ويصف أبو فراس اعتياده الحرب وخوض المعارك، فهي طعامه وشرابه منذ أن ترك

حياة الصبا، فيقول:¹

¹ المتنبي: الديوان، ص 370 .

² نفسه، ص 485 .

³ القتام: الغبار، لسان العرب مادة (قَتَمَ). وقد استخدم الشاعر لفظ القتام لدلالة على المعركة

⁴ المتنبي: الديوان، ص 414.

⁵ نفسه، ص 33.

فَلَا تَصِفَنَّ الْحَرْبَ عِنْدِي فَاتِّهَمَا طَعَامِي مُذْ بَعْتُ الصَّبَا وَشَرَابِي
وَقَدْ عَرَفْتَ دَفْعَ الْمَسَامِيرِ مُهْجَتِي وَشُقَّقَ عَن زُرْقِ النَّصُولِ إِهَابِي

ومن الصور الجميلة في وصف الحرب قول أسامة بن منقذ يذكر بعض الفتوحات:²

جَعْنَا الْجِهَادَ هَمًّا وَاشْتِغَالَنَا وَلَمْ يُلْهِنَا عَنْهُ السَّمَاعُ وَلَا الْخَمْرُ
دِمَاءُ الْعِدَا أَشْهَى مِنَ الرَّاحِ عِنْدَنَا وَوَقَعَ الْمَوَاضِي فِيهِمُ النَّايُ وَالْوَتْرُ

فيذكر أسامة صورتين من صور اللذة، وهما شرب الخمر، وسماع الموسيقى والغناء، فهذه الملذات لم تلههم عن الجهاد في سبيل الله، فقد استبدلوا شرب الخمر بسفك دماء العدا، لأنه ألد وأشهى، واستعاضوا عن سماع الموسيقى بصوت الحرب وصليل السيوف فهو صوت يطربهم أكثر من سماع الناي والوتر.

ولكي تظهر الشجاعة جلية أخذ الشعراء يصفون إقدام الشجاع في الحرب؛ لأنه " الجريء المقدم في الحرب ضعيفاً كان أم قويا"³، والشجاعة كما يبينها النويري من كلام العرب قولهم: "حدّ الشجاعة سعة الصدر بالإقدام على الأمور المتلفة"⁴، فالإقدام هو أساس الشجاعة، والتأخر والفرار يُعدّ من علامات الجبن.

فأبو العتاهية يصف إقدام ممدوحه في ساح الوغى، فيقول:⁵

كَأَنَّكَ يَوْمَ الطَّعْنِ فِي الْحَرْبِ إِنَّمَا تَفَرُّ مِنَ السَّلْمِ الَّذِي مِنْ وَرَائِكَ

فإقدام ممدوحه هو فرّ، والفرّ هو العودة والتراجع إلى الخلف، ولكن أبا العتاهية جعله إيجابياً؛ لأنّ ممدوحه يفرّ من السلم والأمان إلى قلب جيش العدو، فصار الفرّ إقداماً وهجوماً، واستخدام الشاعر لفظة (الفرّ) للدلالة على سرعة الإقدام؛ لأنّ الفرّ أكثر دلالة على السرعة،

¹ أبو فراس: الديوان، ص 62.

² أسامة بن منقذ: الديوان، ص 251.

³ العسكري، أبو هلال: الفروق اللغوية، ص 108 .

⁴ النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، ج 3، ص 208 .

⁵ ابن أبي عون: التشبيهات، ص 150 .

وهذا ما جعل ابن أبي عون يعدّ هذا البيت من حسن التشبيه في الإقدام¹. وهذا ما فعله بكر بن النطّاح، فاستخدم الفرّ للدلالة على سرعة الإقدام، فقال:²

كَأَنَّكَ عِنْدَ الْكَرِّ فِي حَوْمَةِ الْوَعَى تَفْرُ مِنْ الصَّفِّ الَّذِي مِنْ وَرَائِكَ

ويساوي أبو تمام بين الموت والتراجع في أرض المعركة في مدح أبي دلف القاسم بن عيسى العجلي، فيقول:³

رَأَى الْحِمَامَ شَقِيقَ الْخُلْفِ فَاتَّفَقَا فِي نَظَرِيهِ وَإِنْ كَانَا قَدِ اخْتَفَا
وَلَوْ يُقَالُ أَقْرَبَ حَدِّ السَّيْفِ شَرَّهُمَا مَا شَامَ حَدِّيهِ حَتَّى يَقْتُلَ الْخُلْفَا

فممدوح أبي تمام يفضل الموت على التراجع والتأخر في ميدان الحرب، وهذا من شيم الشجاع.

والإقدام هو سجيّة الأبطال الشجعان، ففيه يتّصفون، ومكانهم دائماً في المقدمة، وهذا ما نلاحظه من قول أبي تمام يمدح المعتصم:⁴

تَرَاهُ إِلَى الْهَيْجَاءِ أَوَّلَ رَاكِبٍ وَتَحْتَ صَبِيرِ الْمَوْتِ أَوَّلَ نَازِلٍ

وهذا دأب الشجعان، فهم أول من يواجهون العدو، ويقتحمون الأهوال، ويواجهون الموت. ومثله قول ابن الرومي في مدح محمد بن عبيد الله:⁵

فَإِنْ طَاعَنُوهُ كَانَ أَوَّلَ طَاعِنٍ وَإِنْ نَازَلُوهُ كَانَ أَوَّلَ نَازِلٍ

وممدوح البحترى هو الأقرب إلى العدو، فهو في المقدّمة في أثناء توجّههم إلى الغزو، وفي السّاقّة إذا أفلوا عاندين من المعركة، يقول في مدح أبي سعيد:⁶

¹ ابن أبي عون: التشبيهات، ص 150 .

² الجرجاني: الوساطة بين المتنبّي وخصومه، ص 300 .

³ أبو تمام: الديوان، ج 1، ص 421، 422 .

⁴ نفسه، ج 2، ص 40 .

⁵ ابن الرومي: الديوان، ج 3، ص 149 .

⁶ البحترى: الديوان، ص 1606 .

طَلِبَعَتْهُمْ إِنْ وَجَّهَ الْجَيْشَ غَازِيًا وَسَاقَتْهُمْ إِنْ وَجَّهَ الْجَيْشَ قَافِلًا

وفي موضع آخر يصف البحترى إقدام ممدوحه في الحرب، فيقول في مدح أبي سعيد:¹

سعيد:¹

لَمْ تَلْقَهُمْ زَحْفًا وَلَكِنْ حَمَلَةً جَاءَتْ كَضْرِبَةٍ ثَائِرٍ لَمْ يُنْجِدِ
فِي فِتْيَةٍ طَلَبُوا غُبَارَكَ إِنَّهُ نَهَجَ تَرْفَعَ عَنِ طَرِيقِ السُّوْدُدِ
كَالرَّمْحِ فِيهِ بَضْعَ عَشْرَةَ فُقْرَةً مُنْقَادَةً خَلْفَ السِّنَانِ الْأَصِيدِ

فالممدوح لم يكن وحده بل رافقه فتية من الشجعان، ولكنهم لم يستطيعوا الوصول إلى الغبار الذي يثيره في هجومه، وهذا يدل على المكان المتقدم الذي وصل إليه. وقد جاء البحترى بتمثيل مشابه لصورة الممدوح المتقدم على جيشه، وهي صورة السنان المتقدم على الفقرات في الرمح فلا يمكن أن تتقدم هذه الفقرات عليه.

وقد استخدم المتنبي هذا المعنى في مدحه سيف الدولة حين قال:²

أَمَامَ الْكُتَيْبَةِ تَرْهَى بِهِ مَكَانَ السِّنَانِ مِنَ الْعَامِلِ³

والإقدام في الحرب يظهر جليًا باستخدام السيف؛ لأن القتال بالسيف يتطلب التقدم والتلاحم مع الخصم؛ ولهذا نرى ابن الرومي يذكر السيف في وصفه إقدام ممدوحه محمد بن عبيد الله، فيقول:⁴

وَصَوْلُ الْخُطَى بِالسَّيْفِ وَالسَّيْفُ بِالْخُطَى إِذَا الطَّعْنُ حُشَّتْ نَارُهُ بِالسَّوَابِلِ

فالسيف عنوان الإقدام في الحرب، تتوب عن الرماح عندما يصبح القتال فيها غير ممكن، بعد تداخل المقاتلين، فيقدم الفارس ليصل بسيفه، فيضرب به الأعداء.

وجعل ابن المعتز الإقدام عادة تعود عليها ممدوحه، فقال:¹

¹ البحترى: الديوان، ص 548 .

² المتنبي: الديوان، ص 272 .

³ العامل: أعلى الرمح ما يلي السنان، لسنان العرب مادة (عَمَل) .

⁴ ابن الرومي: الديوان، ج 3، ص 149 .

سَجِيَّتُهُ التَّقَرُّبُ وَالتَّوَدُّانِي إِذَا مَا السَّيْفُ فَارَقَهُ قِرَابُهُ

ويربط المنتبّي الإقدام في الحرب بالطبع الكريم، وهو ما يتّصف به ممدوحه الحسين بن إسحاق، فيقول:²

وَفِي الْحَرْبِ حَتَّى لَوْ أَرَادَ تَأَخَّرًا لِأَخْرَهُ الطَّبَعُ الْكَرِيمُ إِلَى الْقَدَمِ

فالتبع الكريم لا يسمح بالتراجع، بل يجعل التراجع إقداماً، فالمنتبّي حوّله إلى إقدام، فغيّر مساره من الخلف إلى الأمام. وصف المنتبّي إقدامه في المعركة بالسّيل المندفع، فقال:³

أَقْدَمْتُ إِقْدَامَ الْآتِيِّ كَمَا أَنَّ لِي سِوَى مُهْجَتِي أَوْ كَانَ لِي عِنْدَهَا وَتَرُّ

ويرى أبو فراس أنّ سبب إقدامه في المعركة هو الخوف من وصفه بالجبن، فيقول:⁴

بَخِلْتُ بِنَفْسِي أَنْ يُقَالَ مُبْخِلٌ وَأَقْدَمْتُ جُبْنًا أَنْ يُقَالَ جَبَانٌ

ويرى أسامة بن منقذ أنّ الإقدام في الحرب يجب أن يكون من شيم الشجاع وعاداته، فيقول:⁵

وَمَوْقِفِ تَوَدِيْعٍ تَرَى الْبَيْضَ بِهِ شُهْبًا وَهَابِي النَّقْعِ لَيْلًا أَسْوَدًا
فِيَالَهُ مِنْ مَوْقِفِ رَقِيْبُهُ كَتَائِبُ الْأَعْدَاءِ وَالْوَأَشِي الرَّدِّي
لَوْ لَمْ تَكُنْ عَادَتِي الْإِقْدَامَ فِي أَمْثَالِهِ قَضَيْتُ فِيهِ كَمَادَا

وقد استخدم بعض الشعراء الإحالة إلى التاريخ، واستحضر بعض الشخصيات التاريخية التي عرفت بالشجاعة والإقدام؛ لوصف شجاعة ممدوحهم، ومن هذه الشخصيات شخصية عمرو بن معدي كرب الزبيدي، فقد استحضرها أبو تمام في معرض حديثه عن إقدام ممدوحه أحمد بن المعتصم، فقال:⁶

¹ ابن المعتز: الديوان، ص 464 .

² المنتبّي: الديوان، ص 82 .

³ نفسه، ص 189 .

⁴ أبو فراس: الديوان، ص 123 .

⁵ أسامة بن منقذ: الديوان، ص 260 .

⁶ أبو تمام: الديوان، ج 1، ص 362 .

إِقْدَامُ عَمْرٍو فِي سَمَاحَةِ حَاتِمٍ فِي حِلْمِ أَحْنَفَ فِي ذِكَاةِ إِيَّاسِ

فوصف أبو تمام ممدوحه بمجموعة من الصفات، وهي: الإقدام، والكرم، والحلم، والذكاء، واستحضر لكل صفة من هذه الصفات شخصيةً اشتهرت بها، فعمره تميّز بالشجاعة والإقدام واقتحام الأهوال، ومن الشواهد على إقدامه في معركة القادسية أنه "نزل على النهر فقال لأصحابه: إنني عابراً هذا الجسر، فإن أسرعتم مقدار جزر الجزور وجدتموني وسيأتي بيدي أقاتل به تلقاء وجهي، وقد عرفني القوم وأنا قائمٌ بينهم، وإن بطأتم وجدتموني قتيلاً بينهم. ثم انغمس"¹ انغمس"¹ ومع ذلك فإن أبا تمام جعل ممدوحه يتفوق على عمرو، بعد الانتقاد الذي وجهه له أبو أبو يوسف الكندي الفيلسوف، فالأمير - كما يرى - فوق من ذكرهم، فدفع ذلك أبا تمام إلى إتمام المعنى الشعري؛ ليقطع الطريق على منتقديه، فاستعان بقوله تعالى في سورة النور: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾²، فأنشأ يقول:³

لَا تُتَكَبَّرُوا ضَرْبِي لَهُ مَنْ دُونَهُ مَثَلًا شَرُودًا فِي النَّدَى وَالْبِئَاسِ
فَاللَّهُ قَدْ ضَرَبَ الْأَقْلَّ لِنُورِهِ مَثَلًا مِنَ الْمَشْكَاتِ وَالنِّيَّاسِ

فبذلك أصبح إقدام عمرو مقابل إقدام ممدوح أبي تمام مثل نور المصباح أمام نور الله سبحانه وتعالى، فلا وجه للمقارنة بينهما، فنور الله أسمى من أن يقارن بنور آخر.

ويبدو أن ما قاله الكندي قد أثر في الشعر فيما بعد، فالبهاء زهير ينفي المساواة بين ممدوحه والشخصيات التاريخية، في قوله:⁴

دَعُوا ذِكْرَ كَعْبٍ فِي السَّمَّاحِ وَحَاتِمِ فَلَيْسَ يُعَدُّ الْيَوْمَ ذَاكَ التَّسْمُحُ
وَلَيْسَ صَعَالِيكُ الْعَرِيبِ كِيُوسُفِ تَعَالَوْا بِنَا لِلْحَقِّ فَالْحَقُّ أَوْضَحُ

ويستخدم ابن الساعاتي شخصية عمرو بن معد ليؤكد شجاعة ممدوحه وإقدامه في

المعركة وشخصية كعب بن مامة¹، ليعبر عن كرم ممدوحه، فيقول:²

¹ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج 2، ص 15 . الأبيهي: المستطرف في كل فنٍ مستظرف، ج 1، ص 475.

² سورة النور، الآية (35).

³ أبو تمام: الديوان، ج 1، ص 362 .

⁴ البهاء، زهير: الديوان، شرح محمد أبو الفضل ومحمد طاهر الجبلوي، ط2، القاهرة، دار المعارف، د.ت، ص 63.

هُوَ فِي الْوَعْيِ عَمَرُو وَفِي بَذْلِ النَّفْسِ كَعَبُ بْنُ مَامَةَ

ويتواصل ابن الرومي مع شخصية علي بن أبي طالب كرم الله وجهه في رثاء أبي

الحسين يحيى بن عمر، يقول:³

يُكْرُ عَلَى أَعْدَائِهِ كَرَّ ثَائِرٍ وَيَطْعَنُهُمْ سُلْكَى⁴ وَلَا يَتَخَلَّجُ⁵

كَدَابِ عَلِيٍّ فِي الْمَوَاطِنِ قَبْلَهُ أَبِي حَسَنِ وَالْغُصْنُ مِنْ حَيْثُ يَخْرُجُ

فحال أبي الحسين في الحرب شبيه بحال علي بن أبي طالب الذي عُرف بشجاعته

وإقدامه في الحرب، فقد ورد عنه قوله "والذي نفس ابن أبي طالب بيده لألف ضربة بالسيف

أهون علي من موتة علي فراش"⁶، وقيل عنه "ما لقينا كتبية فيها علي بن أبي طالب إلا أوصى

بعضنا بعضاً"⁷.

ونجد أنّ من الشعراء العباسيين من جمع بين الإقدام، والحكمة النابعة من الخبرة

والتجربة، لئلا يصبح الإقدام تهوؤاً. وهذا ما يظهره البحرزي في قوله:⁸

مَلِكٌ لَهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ كَرِيهَةٌ إِقْدَامٌ غِرٌّ وَاعْتِزَامٌ مُجَرَّبٌ

فيصف إقدام ممدوحه بإقدام الغر، وهو قليل الخبرة والتجربة⁹، وهذا يكون في الإنسان

في أوّل شبابه، فلا يثنيه شيء، ولا يردّه خوف، فالحرب تحتاج قوّة الشّبَابِ واندفاعهم، كما

تحتاج التّائِي والتفكير، والبصيرة المبنية على الخبرة والتجربة.

¹ كعب بن مامة بن عمرو بن ثعلبة الإيادي، أبو دؤاد، كريم جاهلي يضرب به المثل في حسن الجوار . الزركلي، خير

الدين: الأعلام، ط5، بيروت، دار العلم للملايين، 2002، ج5، ص229

² ابن الساعاتي: الديوان، ج1، ص193.

³ ابن الرومي: الديوان، ج1، ص307.

⁴ سلّكى: الطعنة المستقيمة تلقاء الوجه. لسان العرب مادة (سَلَّكَ) .

⁵ والطعنة المخلوجة التي في الجانب، لسان العرب مادة (خَلَجَ) .

⁶ الأبشيهي: المستطرف في كل فن مستظرف، ج1، ص472 .

⁷ نفسه، ج1، ص472 .

⁸ البحرزي: الديوان، ص81 . الصولي: أخبار أبي تمام، ص80 . القاضي الجرجاني: الوساطة، ص219 . الأمدي:

الموازنه، ج2، ص327 .

⁹ لسان العرب، مادة (عَرَّرَ) .

وهذا المعنى استخدمه المتنبي في وصف ممدوحه، فربط بين الرأي والتدبير والإقدام في

الحرب، فقال:¹

تَدْبِيرُ ذِي حَنَكٍ يُفَكِّرُ فِي غَدٍ وَهَجُومٌ غِرٌّ لَا يَخَافُ عَوَاقِبَا

والمدقق في بيت المتنبي يجد أنه يحمل معنى قول العباس بن مرداس وهو أشجع بيت

قالته العرب:²

أَشْدُّ عَلَى الْكَتِيبَةِ لَا أَبَالِي أَحْتَفِي كَانَ فِيهَا أَمْ سِوَاهَا

فبيتا البحري والمنتبي السابقان جاءا بعكس معنى بيت قطري بن الفجاءة الذي يقول

فيه:³

ثُمَّ انْتَهَيْتُ وَقَدْ أَصَبْتُ وَلَمْ أَصَبْ جَذَعَ الْبَصِيرَةَ قَارِحَ الْإِقْدَامِ

وقد ردّ الجرجاني على من يقول إن معنى بيتي البحري والمنتبي مأخوذ من قول

قطري بن الفجاءة، بقوله: "وليس هو عندي كذلك، لأنّ قطرياً زعم أنّ إقدامه إقدام قارح،

وبصيرته بصيرة جذع، والقارح أتمّ سنّاً من الجذع، وهؤلاء زعموا أنّ إقدامهم إقدام غرّ،

وتجاربهم تجارب كهل محنك، فهو ضد ذلك المعنى، اللهم إلّا أنّ يُقال قلبه، فلا يبعد ذلك عن

الصواب"⁴. وهذا الكلام صحيح لأنّ العرب تفضل القارح على الجذع⁵. ويفهم من قول

الجرجاني أنّ معنى بيتي البحري والمنتبي عكس معنى بيت قطري ويؤكد ذلك الأمدي في

قوله: "وقد ذهب البحري إلى ما ذهب إليه أبو تمام وعكس بيت قطري بن الفجاءة"⁶.

¹ المتنبي: الديوان، ص112. الجرجاني: الوساطة، ص 219 .

² النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، ج 3، ص 209 .

³ الأمدي: الموازنة، ج 3، ص 313 . الجرجاني: الوساطة بين المتنبي وخصومه، ص 219. وقد جاء فيه لفظ (أصيبُ ولم أصيب) .

⁴ الجرجاني: الوساطة، ص 219 .

⁵ الجذع هو الحدث النشيط بينما القارح هو العاقل المجرب، فالقارح من الخيل الذي تناهت سنّه وكملت قوته. اليوسفي، الحسن بن مسعود: زهرة الأكم في الأمثال والحكم، تحقيق محمد صبحي، ط1، الدار البيضاء، دار الثقافة، 1981، ج 3، ص 31 .

⁶ الأمدي: الموازنة، ج 3، ص 313 .

وقد طرق أبو فراس هذا المعنى في مناظرته الدمستق، فجمع بين الرأي والإقدام، وهذا في نظره ما يكمل الفتى الشجاع، يقول:¹

وَلَا أَرْضَى الْفَتَى مَا لَمْ يَكْمَلْ بِرَأْيِ الْكَهْلِ إِقْدَامَ الْغُلَامِ

- وصف المعركة

شهد العصر العباسي حروباً كثيرة، سواء أكانت داخلية أم خارجية، فألقى ذلك بظلاله على الشعر وأثر فيه تأثيراً كبيراً، فتميز شعر المدح فيه بوصف المعارك، والقادة وهم يقاتلون فيها ويدافعون عن البلاد ويحمون الثغور بالسيوف والرماح، كما يقول بشار في مدح جعفر بن برمك:²

وَتَغَرَّ كَأَفْوَاهِ الْأَسْوَدِ سَدَّتَهُ بِسُمْرِ الْقَتَا وَالْبَيْضِ الْقَرَحِ الْجُرْدِ

ومثله قول دعبل الخزاعي:³

هُوَ الْجَاعِلُ الْبَيْضَ الْقَوَاطِعَ وَالْقَتَا كِعَاماً⁴ لِأَفْوَاهِ الثُّغُورِ الْقَوَاغِرِ

وممدوح أبي تمام مفتاح الثغور وقفلها، فبه تصبح منيعة، يقول في مدح أبي سعيد الثغري:⁵

أَصْبَحْتَ مِفْتَاحَ الثُّغُورِ وَقُفْلَهَا وَسِدَادَ تُلْمَتِهَا الَّتِي لَمْ تُسَدِّدِ

جوّ المعركة

ولقد وصف الشعراء اللحظات الأولى للمعركة، وصوروها أحسن تصوير، فوصفوا جوّها، وتلاحم الجيوش وحركة السلاح من سيوفٍ ورماحٍ وتحدثوا عن شدة الضرب والطعن،

¹ أبو فراس: الديوان، ص 306.

² بشار بن برد: الديوان، ج 3، ص 125.

³ الخزاعي، دعبل: الديوان، ص 82.

⁴ الكعام شيء يجعل على فم البعير فيشدّه عند هياجه؛ لتلا يعضّ أو يأكل، وقد يجعل على فم الكلب لتلا ينبح . لسان العرب مادة (كَعَمَ)

⁵ أبو تمام: الديوان، ج1، ص302.

فبالغوا في الوصف، فظهر في شعرهم وصف بارعٌ للمعارك والحروب، على شاكلة قول بشار بن برد في وصف مشهد الحرب، يقول في مدح مروان بن محمد:¹

كَأَنَّ مَثَارَ النَّقْعِ فَوْقَ رُؤُوسِهِمْ وَأَسْيَافُنَا لَيْلٌ تَهَاوَى كَوَاكِبَهُ

يصف بشار جو المعركة، فيرسم صورةً للغبار الذي تثيره حركة الجيش والخيل، ولمعان السيوف في أيدي المقاتلين، فهو مشهد كالليل الذي تتهاوى كواكبه. وقد جمع بشار تشبيهين في بيت واحد. ويذكر ابن أبي عون أنَّ بشاراً جمع التشبيهين بعد سماعه قول امرئ القيس² الذي يقول فيه:³

كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْبًا وَيَابِسًا لَدَى وَكْرِهَا الْعِنَابُ وَالْحَشْفُ الْبَالِي

وقد أورد الأصفهاني هذا القول على لسان بشار: "لم أزل منذ سمعت قول امرئ القيس في تشبيه شيئين في بيت واحد... أعمل نفسي في تشبيه شيئين لشيئين في بيت واحد حتى قلت"⁴ وأنشد بيته.

ولقد كان لبيت بشار صدى كبير عند قدامى النقاد؛ لأنه ترك أثراً في نفوسهم، فأخذوا يقارنون بينه وبين بيت امرئ القيس، فأبو هلال العسكري فضل بيت امرئ القيس على قول بشار "لأنَّ قلوب الطَّيْرِ رطْباً وَيَابِساً أشبه بالعنَّاب والحشف من السيوف بالكواكب"⁵. ويرى عبد القاهر الجرجاني أنَّ قيمة تشبيه امرئ القيس أقلَّ من تشبيه بشار؛ لأنَّ تشبيه بشار يقوم على صورةٍ مركَّبة متجانسة، وتشبيه امرئ القيس لم يجعل بين الشيئين اتصالاً وتجانساً، وإنما قصد إلى الجمع بينهما في مكانٍ واحد، فاستحقَّ امرؤ القيس الفضيلة من حيث اختصار اللفظ، والترتيب الجيد، فتشبيه امرئ القيس يمكن أن يُفصل بين التشبيهين، فيكون (الرَّطْب من قلوب

¹ بشار بن برد: الديوان، ج 1، ص 335. الثعالبي: خاص الخاص، ص 156. الجرجاني: الوساطة، ص 263، وورد عنده (رؤوسنا) بدل (رؤوسهم).

² ابن أبي عون: التشبيهات، ص 152.

³ امرؤ القيس: الديوان، ص 38.

⁴ الأصفهاني: الأغاني، ج 3، ص 190. ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة، ص 248.

⁵ العسكري، أبو هلال: الصناعتين، ص 250.

الطَّيرِ عَنَابٍ، وَالْيَابِسَ مِنْهَا حَشْفٌ بِالٍ)، وَأَمَّا تَشْبِيهِ بَشَارٍ فَلَا يُمْكِنُ الْفَصْلَ بَيْنَ التَّشْبِيهِينَ؛ لِأَنَّهُمَا مُتَدَاخِلَانِ، وَالْفَصْلُ يُوْدِي إِلَى تَضَائِلٍ بِلَاغَتِهِ¹. وَيُوَدِّدُ جَابِرٌ عَصْفُورَ رَأْيِ الْجِرْجَانِيِّ، وَيُرَى أَنَّ نَظْرَةَ الْجِرْجَانِيِّ تَكْشِفُ عَنِ فَهْمِهِ لِلتَّشْبِيهِ بِصُورَةِ أَنْضَجٍ مِنْ فَهْمِ الْمَبْرَدِ، وَهِيَ نَظْرَةٌ نَابِعَةٌ مِنْ مَفْهُومِ النِّظْمِ عِنْدَهُ². وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّ الْجِرْجَانِيَّ قَدْ أوردَ بَيْتَ بَشَارٍ وَبَيْتَ امْرِئِ الْقَيْسِ وَعَدَّهُمَا "مِمَّا نَدَرَ وَلَطْفَ مَأْخِذِهِ، وَدَقَّ نَظْرَ وَاضِعِهِ، وَحَلَا لَكَ عَنِ شَأْوٍ قَدْ تَحْتَسِرُ دُونَهُ الْعَتَاقُ"³.

وَيَقْدَمُ الْجِرْجَانِيُّ تَفْسِيرًا، يُمْكِنُ الرَّدُّ بِهِ عَلَى الْعَسْكَرِيِّ الَّذِي نَفَى وَجُودَ الشَّبْهِ بَيْنَ السِّيُوفِ وَالْكُوكَبِ، فَهُوَ يَرَى أَنَّ اسْتِخْدَامَ بَشَارٍ لِكَلِمَةِ (تَهَاوَى) جَعَلَ الشَّبْهِ بَيْنَ الْكُوكَبِ الْمُتَهَاوِيَةِ، وَالسِّيُوفِ الْمُضْطَرِبَةِ فِي الْحَرْبِ كَبِيرًا جَدًّا؛ لِأَنَّ الْكُوكَبَ إِذَا تَهَاوَتْ اخْتَلَفَتْ جِهَاتُ حَرَكَتِهَا، وَكَانَ لَهَا مِنْ هَذَا التَّهَاوِيِّ تَدَاخُلٌ يَكْسِبُهَا اسْتِطَالَةً مِثْلَ السِّيُوفِ⁴.

وقد استخدم بشار الصورة نفسها في قوله:⁵

خَلَقْنَا سَمَاءً فَوْقَنَا بِنُجُومِهَا سِيُوفًا وَنَقَعًا يَقْبِضُ الطَّرْفَ أَقْتَمَا

ولكن البيت السابق تظهر فيه البراعة في التشبيه والتصوير؛ لأنَّ القارئ يرى الصورة أمامه رأي العين، ويحس بالغبار القاتم والسيف تتهاوَى، وكأنَّها كواكبٌ تتساقط في جوٍّ مملوء بالحركة، وكأنَّه يصنع جوَّ المعركة⁶.

وما أثار الاستغراب من تصوير بشار لجوَّ المعركة، أنَّ بشارًا وُلِدَ أكمه ولم يرَ النُّورَ، فلم يرَ هذا المشهد حتى يصفه. والذي يؤكد ما قلناه قول الثعالبي يصف بشارًا بقوله: "أستاذ

¹ الجرجاني: أسرار البلاغة، ص 192 وما بعدها .

² عصفور، جابر: الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، ط3، بيروت، المركز الثقافي العربي، 1993، ص 181.

³ الجرجاني، عبد القاهر: دلائل الإعجاز، قرأه وعلَّق عليه محمود محمد شاكر، ط5، القاهرة، مكتبة الخانجي، 2004 ، ص 95،96.

⁴ الجرجاني، عبد القاهر: أسرار البلاغة، ص 174.

⁵ بشار بن برد: الديوان، ج 4، ص 58 . الأمدي: الموازنة، ج 3، ص 285 . وقد أورد (جعلنا) بدل (خلقنا)

⁶ درويش، العربي حسن: الشعراء المحدثون في العصر العباسي، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1989، ص 47.

المحدثين وبدرهم وصددهم وأعجوبة الدنيا؛ لأنه أعمى أكمه¹ وذكر بيت بشار(كأن مثار النقع). ويرى ابن المعتز أنّ تشبيهات بشار مع أنه أعمى أفضل من تشبيهات غيره من المبصرين²، وقد ذكر بيت بشار نفسه. ويرى الأمدي أنّ بيت بشار "لا يدانيه معنى ولا يتعلق به"³، ويظهر الأصمعيّ إعجابه ببيت بشار لأنه ولد أعمى ولم يرَ الدنيا قط، وكان يشبه الأشياء في شعره فيأتي بما يعجز عنه المبصرون⁴.

وقد سئل بشار "من أين لك هذا ولم ترَ الدنيا قط؟ فكان جوابه: إنَّ عدم النظر يقوي ذكاء القلب، ويقطع عنه الشغل بما يُنظر إليه من الأشياء، فيتوقّد حسّه وتتفتّق قريحته"⁵ وقد أجاب بشار عن السؤال السابق بقوله:⁶

إذا وُلِدَ المَوْلُودُ أعمى وَجَدْتَهُ وَجَدْتُكَ أَهْدَى مِنْ بَصِيرٍ وَأَجْوَلَا
عَمِيَتْ جَنِينَا وَالدُّكَاؤُ مِنَ العَمَى فَجِئْتُ عَجِيبَ الظَّنِّ لِلْعِلْمِ مَعْقِلَا
وَغَاضَ ضِيَاءُ العَيْنِ لِلْقَلْبِ فَأَغْتَدَى بِقَلْبٍ إِذَا مَا ضَمَّعَ النَّاسُ حَصَلَا

وقد كان بشار يعتمد على سمعه في الشعر ليعوّض عن فقد البصر، حتى الجمال كان يعرف عنده عن طريق الأذن، وهو عنده أفضل مما يعرف بالعين⁷، يقول بشار:⁸

يَا قَوْمُ أَدْنَى لِبَعْضِ الحَيِّ عَاشِقَةٌ وَالْأذُنُ تَعْشَقُ قَبْلَ العَيْنِ أحياناً
قَالُوا بِمَنْ لَا تَرَى تَهْذِي فَقُلْتُ لَهُمْ الْأَذُنُ كَالعَيْنِ تُوتِي القَلْبَ مَا كَانَا

والملاحظ من الأقوال السابقة أنّ علة بشار كان لها الفضل في جودة التشبيه عنده، وهذا ماجعله يتفوق على امرئ القيس في تشبيهه.

¹ الثعالبي: خاص الخاص، ص 156 .

² ابن المعتز: طبقات الشعراء، ص 26 .

³ الأمدي: الموازنة، ج 3، ص 285 .

⁴ الأصفهاني: الأغاني، ج 3، ص 135 .

⁵ الأصفهاني: الأغاني، ج 3، ص 136 .

⁶ بشار: الديوان، ج 4، ص 136 .

⁷ فروخ، عمر: تاريخ الأدب العربي في العصر العباسية، ط1، دار العلم للملايين، ط1، 1968، ص 95 .

⁸ بشار بن برد: الديوان، ج 4، ص 194 .

ويرى هاشم مناع أنّ بشاراً جاء بهذه الصورة، واستطاع أن يُميّز بين الألوان من خلال تمكّنه من اللغة، إلى جانب ما يحفظ من الشعر، وبفضل ثقافته الواسعة التي اكتسبها من التراث الأدبي القديم، إضافة إلى سعة خياله. وقد استعان بشار بقالب الصورة التي جاء بها امرؤ القيس، فأصبح جاهزاً لرصف المادة الفنية، ووقع في أذنه ممن شاهد عن طريق العين، فأجاد في تطبيق الصورة¹. وقد أخذ هاشم مناع عدة مآخذ على تشبيه بشار، فتشبيه بشار - كما يقول مناع - لغبار المعركة، ولمعان السيوف بليلٍ تتهاوى كواكبه، افتراضٌ تخيليٌّ إيهاميٌّ لا حقيقة فيه، فليس هناك ليل تتهاوى كواكبه إلّا يوم الحشر، والأمر الثاني أنّ السيوف لا تقتصر على عملية التساقط، بل تتناوب فيها الحركة صعوداً وهبوطاً، وحركة الكواكب المتهاوية تكون من أعلى إلى أسفل، وأمرٌ ثالث هو أنّ الغبار المتصاعد في سماء المعركة من كثافة الجيش وكرّ الفرسان يتلاحق على شكل موجاتٍ وكتلٍ تختلف كثافتها من مكانٍ إلى آخر، على حين أنّ الليل سرمدٌ متشاكل².

فكلام مناع السابق بحاجة إلى إعادة النظر؛ لأنّ عدم حصول المشهد لا يمنع من استخدامه، فهذا المشهد قد ورد في القرآن الكريم في الحديث عن عظمة يوم القيامة، يقول تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ﴾³، والحديث عن الصورة التي لم تُرَ بعد يجعل الخيال واسعاً في تخيل المشهد، وإلّا كيف استطاع بشار أن يرسم صورة لما لم يره قط؟ والعبارات في وصف الحرب يجب أن تفخّم وتهوّل فيها الأوصاف⁴، وهذا ما أراده بشار من خلال رسم صورته. وأما قول مناع: إنّ السيوف تتناوب بها الحركة من أعلى إلى أسفل صعوداً وهبوطاً، فحركة السيوف في المعركة لا تقتصر على الصعود والهبوط، بل إنّ حركتها في جميع الاتجاهات، بالاعوجاج والاستقامة والارتفاع والانخفاض، فقد استطاع بشار أن ينظم هذه

¹ مناع، هاشم: بشار حياته من شعره، ط 1، بيروت، دار الفكر العربي، 1994، ص 13 .

² نفسه، ص 83 .

³ سورة الانفطار، الايتان (1،2) .

⁴ حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص 306 .

الصورة بلفظةٍ واحد كما يرى الجرجاني وهي (تتهوى)، لأنَّ الكواكب إذا تهاوت اختلفت جهات حركتها، وكان لها من تهاويها تواقعٌ وتداخل¹.

ولقد كان لقول بشار السابق تأثير كبير في مجموعة من الشعراء الذين استخدموا هذا المعنى، فأخذه منصور النمرى فقال:²

لَيْلٌ مِنَ النَّقْعِ لَا شَمْسٌ وَلَا قَمَرٌ إِلَّا جَبِينُكَ وَالْمَدْرَوِبَةُ الشَّرْعُ

ولكن منصور النمرى زاد في بيته لمعان جبين ممدوحه في وسط غبار المعركة مع لمعان السيوف. وأخذه العتابي فقال:³

بَيْنِي سَنَابِكُهَا مِنْ فَوْقِ هَامِهِمْ لَيْلًا كَوَاكِبُهُ الْبَيْضُ الْمَآثِيرُ

وللبحتري في هذا المعنى أقوالٌ عدة، منها قوله يمدح بني ناجية:⁴

فَالنَّقْعُ لَيْلٌ وَالسِّيُوفُ كَوَاكِبٌ تَنْقُضُ فَوْقَ جَمَاجِمِ الْأَقْرَانِ

إن قول البحتري شبيهه بقول بشار السابق، ولكن صورة بشار تصف حركة السيوف وصفاً دقيقاً، وهي تتحرك في جميع الاتجاهات، والبحتري اقتصر وصفه على حركة السيوف باتجاه واحد من أعلى إلى أسفل. وفي موضع آخر يصف البحتري حركة السيوف في غبار المعركة صعوداً وهبوطاً، ولكنه لم يذكر لمعانها، فيقول:⁵

وَقَفَّتْ مَشْكُورَ الْمَكَانِ كَرِيمَهُ وَالْبَيْضُ تَعْلُو فِي الْغُبَارِ وَتَرَسُّبُ

ويقول البحتري في مدح أبي نهشل محمد بن حميد الطوسي:⁶

فِي نَهَارٍ مِنَ السِّيُوفِ مُضِيٍّ تَحْتَ لَيْلٍ مِنْ مُسْتَتَارِ الصَّعِيدِ

¹ الجرجاني: أسرار البلاغة، ص 174 .

² الخالديان: المختار من شعر بشار، ص 1 .

³ نفسه، ص 2.

⁴ البحتري: الديوان، ص 2380.

⁵ نفسه، ص 75.

⁶ نفسه، ص 770 .

فيمزج البحرّي بين الليل والنّهار، فيجعل النّهار يضيء من لمعان السيوف تحت الليل الذي شكّله الغبار المتطاير من أرض المعركة. ويرى أنّ لمعان السيوف يردُّ الليل نهاراً، فيقول في مدح أبي سلم بن أبي حميد الطائي:¹

إِذَا ارْتَدَّ يَوْمُ الْحَرْبِ لَيْلًا رَدَدْتَهُ نَهَارًا بِأَلَاءِ السُّيُوفِ الصَّوَارِمِ

وقد أخذ المتنبي هذا المعنى ولكنه ذكر لمعان الرماح بدلاً من السيوف، فقال:²

فَكَأَنَّمَا كُسِيَ النَّهَارُ بِهَا دُجَى لَيْلٍ وَأُظْلَعَتِ الرَّمَاحُ كَوَاكِبًا

فاكتفى المتنبي في هذا البيت بوصف منظر الليل والرماح فيه مضيئة ثابتة مكانها. ويقول في موضع آخر:³

يَزُورُ الْأَعَادِي فِي سَمَاءٍ عَجَاجَةٍ أَسِنَّتُهَا فِي جَانِبَيْهَا كَوَاكِبُ

ويأتي المتنبي بصورة يصف فيها غبار المعركة، وهو يغطّي الحديد والسلاح، فيظهر لمعانها من بين الغبار، فيقول في مدح بدر بن عمار:⁴

وَعَجَاجَةٌ تَرَكَ الْحَدِيدَ سَوَادُهَا زَنْجًا تَبَسَّمَ أَوْ قَذَالًا شَانِبًا

فالعجاجة الكثيفة يتخللها بريق الحديد والسلاح، مثل زنجي تبسم فظهر بياض أسنانه، أو أنه مثل شيب يشتعل في شعر مؤخرة الرأس فيختلط السواد بالبياض. وهاتان الصورتان تكشفان عن كثافة الغبار في أرض المعركة فهو "يعطي المشهد عمقاً ويزيده عنفاً، وميض السيوف البيضاء المبرقة في ظلمة العجاج الدامس يزيده رهبةً وهلعاً"⁵.

ويصف أسامة بن منقذ جوَّ المعركة، فيجعل السيوف شهباً، والغبار ليلاً أسود، فيقول:⁶

¹ نفسه، ص 1972 .

² المتنبي: الديوان، ص 111.الثعالبي: أبو الطيب ما له وما عليه، ص 53 .

³ المتنبي، الديوان، ص 75. الجرجاني: الواسطة، ص 263.

⁴ المتنبي: الديوان، ص 111 .

⁵ سلطان، منير: البديع في شعر المتنبي، ص 327.

⁶ أسامة بن منقذ: الديوان، ص 260 .

مَوْقِفٌ تَوَدِيعٌ تَرَى الْبَيْضَ بِهِ شُهْبًا وَهَابِ النَّقْعِ لَيْلًا أَسْوَدًا

ويستحضر أسامة صورة الشعر الأسود الفاحم، ليعبر عن كثافة الغبار، فهو يحول

المكان إلى لونٍ أسود، فيقول في مدح الملك الصالح:¹

إِذَا أَرْسَلْتَ فَرَعًا مِّنَ النَّقْعِ فَاحِمًا أَثِيثًا فَأَسْنَانُ الرِّمَاحِ لَهَا مِشْطٌ

إنَّ أغلب الأوصاف والتشبيهات لغبار المعركة ولونه الأسود جاء في صورة الليل

والدخان، وهذا أنسب للصورة، ولكنَّ أسامة خرج عن هذا المعنى فجاء بصورة الشعر الأسود، وكأنَّه في موضوع غزليّ.

هول المعركة

ويصف أبو تمام يوماً من أيام الحرب، وهو يومٌ شديد مثل نار السموم، ولكنه بردٌ وسلامٌ

على المسلمين، فيقول:²

يَوْمٌ وَسَمَتْ بِهِ الزَّمَانُ وَوَقَعَةٌ بَرَدَتْ عَلَى الْإِسْلَامِ وَهِيَ سَمُومٌ
لَمَعَتْ أَسِنَّتُهُ فَهِنَّ مَعَ الضُّحَى شَمْسٌ وَهِنَّ مَعَ الظُّلَامِ نُجُومٌ

ونلاحظ في هذه الأبيات أنَّ أبا تمام استعان في رسم صورته بقصة سيدنا إبراهيم عليه

السلام، عندما ألقى في النار، فجعلها الله برداً وسلاماً عليه، ويظهر هذا في قوله

تعالى: ﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾³، ثمَّ يصف أبو تمام لمعان الأسننة، فهي

كالشمس في وقت الضحى وكالنجوم في ظلمة الليل، وهذا يدلُّ على شدَّة لمعانها ووضوحها، فقد

وضع أبو تمام مع كلِّ وقتٍ ما يناسبه، فالشمس تكون واضحةً وقت الضحى، والنجوم لا تظهر

في هذا الوقت، وإنما تظهر في الظلام.

¹ نفسه، ص 227 .

² أبو تمام: الديوان، ج 2، ص 146 .

³ سورة الأنبياء، الآية (69) .

وقد حوّل أبو تمام فتح عمورية إلى ملحمة كبرى، فأظهر فيها بطولات ممدوحه

المعتصم، وعظمة الفتح، فقال:¹

فَتَحُ الْفُتُوحِ تَعَالَى أَنْ يُحِيطَ بِهِ نَظْمٌ مِنَ الشِّعْرِ أَوْ نَثْرٌ مِنَ الْخُطَبِ
فَتَحُّ تَفْتَحُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ لَهُ وَتَبْرُرُ الْأَرْضُ فِي أَثْوَابِهَا الْقُشْبِ
إِنْ كَانَ بَيْنَ صُرُوفِ الدَّهْرِ مِنْ رَجْمٍ مَوْصُولَةٍ أَوْ ذِمَامٍ غَيْرِ مُنْعَضِبِ
فَبَيْنَ أَيَّامِكَ اللَّاتِي نَصِرْتَ بِهَا وَبَيْنَ أَيَّامِ بَدْرٍ أَقْرَبِ النَّسَبِ

إنه فتح يعجز عن وصفه الشعراء، وكأنّ أبا تمام يقدّم تبريراً لنفسه إن قصر في وصفه، فمهما وصف ذلك اليوم فلا يمكنه أن يحيط بتفاصيله أو أن يعطيه حقه؛ لأنه يومٌ عظيم تفتح فيه أبواب السماء، ويلجأ أبو تمام في وصفه فتح عمورية إلى الإحالة التاريخية، فيربط بينه وبين معركة بدر، وهذا يزيد من عظمته وأهميته؛ لأنّ الإحالة إلى التاريخ والربط بين الأحداث التاريخية مطلوبٌ في وصف المعارك كما ذكرَ حازم القرطاجني في قوله: "وتحسن الإحالة على التواريخ في مثل هذه المواضع"²، فصار هذا الفتح يشبه الملحمة القصيرة، وقد تحقّق كل ما تمنّوه من الانتصارات³، فأبو تمام توسّع في توظيف ثقافته التاريخية والتراثية في مدائحه متباهياً بها، وبإلمامه بالأحداث التاريخية وأخبار الأمم والقبائل والأعلام.⁴

ويستخدم أبو تمام أيام العرب في الجاهلية في وصفه معركة بين الروم وممدوحه أبي

سعيد محمد بن يوسف، فيقول:⁵

يَوْمُ حَلَقِ اللَّمَاتِ ذَاكَ وَهَذَا ال يَوْمُ فِي الرُّومِ يَوْمُ حَلَقِ الْخُلُوقِ

¹ أبو تمام: الديوان، ج 1، ص 39 .

² حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص 306 .

³ الموسوي، محمد وشاكر العامري: مظاهر الإبداع في مدائح أبي تمام، مجلة دراسات في اللغة العربية، العدد5، 2011، ص172.

⁴ عيسى فوزي: في الشعر العباسي، ص 43.

⁵ أبو تمام: الديوان، ج 1، ص 457 .

ولكنّ أبا تمام غير من تسمية ذلك اليوم من يوم حلق اللّم إلى يوم تحلاق الحلو؛ لكثرة ما قتل ممدوحه من الروم.

ويفصّل البحتري شدة المعركة، فيقول:¹

وَالأَرْضُ خَاشِعَةٌ تَمِيدُ بِثِقَلِهَا وَالجَوُّ مُعْتَكِرُ الجَوَانِبِ أَغْبَرُ
وَالشَّمْسُ مَائِعَةٌ تَوَقَّدُ فِي الضُّحَى طَوْرًا وَيُطْفِئُهَا العِجَاجُ الأَكْدَرُ

فوصف البحتري وصف دقيق لأرض المعركة وأجوائها، فالأرض يابسة لا حياة فيها، وهذا يناسب أجواء المعركة التي يسود فيها القتل، وهي تميل وتتحرك من شدة المعركة.

ويرى المتنبي الأرض من شدة الطعن في المعركة مضطربة، وكأنّ فيها فزعا وجبنا،

يقول:²

وَالطَّعْنُ شَزْرٌ³ وَالأَرْضُ واجِفَةٌ كَأَنَّما فِي فُؤادِها وَجَلٌ⁴
قَدْ صَبَغَتْ خَدَّها الدِّماءُ كَمَا يَصْبِغُ خَدَّ الخَريْدَةِ⁵ الخَجَلُ

فيشخص المتنبي الأرض، ويجعل لها خدّاً يُصبغ بالدماء التي تسيل، وكأنّه خدّ فتاة بكر احمرّ من شدة الخجل، ونلاحظ في تشبيه المتنبي الدقة في اختيار التشبيهات، فالدم يصبغ وجه الأرض باللون الأحمر من شدة، وخدّ الفتاة يحمرّ من الدم المتدفق إليه من شدة الخجل، فهذا تشبيه محكم، ويدل على الإتقان في اختيار الصورة.

ويتحدّث أبو فراس عن حادثة أسره، فيصف ذلك اليوم وما فيه من هول شبيه بأهوال

يوم القيامة، فيقول:⁶

¹ البحتري: الديوان، ص 1072 .

² المتنبي: الديوان، ص 137.

³ الشزر: الشدة والصعوبة، لسان العرب مادة (شَزْر).

⁴ الوجل: الضعف والجبين والفرع، لسان العرب مادة (وَجَل).

⁵ الخريدة: الفتاة البكر التي لم تمس قط، لسان العرب مادة (خَرَد).

⁶ أبو فراس: الديوان، ص 132 .

وَيَوْمَ كَانَ الْأَرْضَ شَابَتْ لِهَوْلِهِ قَطَعَتْ بِخَيْلٍ حَشَوُ فُرْسَانِهَا صَبْرُ

ويبدو أبو فراس متأثراً بقوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾¹ فالأرض تشيب لهوله كما يشيب الوليد من أهوال يوم القيامة، فلا يطيقه إلا الفارس الذي يتحلّى بالصبر على الشدائد.

ويأتي أسامة بصورة، فيصوّر النقع، ولمعان السيوف بالسحاب المتراكم الذي يتخلّله البرق، ويكمل الصورة فيجعل الدّم الذي يراق في أرض المعركة مطراً شديداً كثيفاً يروي نباتاً على وجه الأرض، وهي الجماجم المتطايرة، فيقول:²

فَلِنَّقَعِ سُحْبٌ وَالسُّيُوفُ بَوَارِقٌ وَلِلدَّمِ وَبَلٌّ وَالنَّبَاتُ جَمَاجِمٌ

ويقارب أسامة بين تلاحم العسكر في أرض المعركة والبحر الهائج المتلاطم الأمواج، فيقول:³

وَمَا زَالَتْ الْحَرْبُ الْعَوَانُ أَشَدَّهَا إِذَا تَلَاقَى الْعَسْكَرُ الْمُتَصَارِمُ
يُشَبِّهُهُمْ مَنْ لَاحَ جَمْعُهُمْ لَهُ بِلَجَّةٍ بَحْرٍ مَوْجُهَا مُتَلَاظِمٌ

وصف الجيش

لم يترك الشعراء العباسيون شيئاً يتعلّق بالشجاعة إلا وتحدثوا عنه وذكروه في أشعارهم، فوصفوا جوّ المعركة وهولها كما رأينا، ووصفوا الجيش الذي يخوضها، فوصفوا كثافته واندفاعه إلى الحرب؛ ليصلوا إلى وصف شجاعة القائد الذي يقوده بنفسه، أو يبعث من ينوب عنه، فالقائد لا يغيب عن المشهد. فأبو نواس في وصف الجيش يذكر القائد وشجاعته قبل وصفه الجيش، يقول في مدح الفضل بن يحيى:⁴

تَرَدَّى لَهُ الْفَضْلُ بْنُ يَحْيَى بْنِ خَالِدٍ بِمَاضِي الظُّبَى يَزْهَاهُ طَوْلُ نِجَادٍ

¹ سورة المزمل، الآية (17) .

² أسامة بن منقذ: الديوان، ص 275 .

³ نفسه، ص 272 .

⁴ أبو نواس: الديوان، ج 1، ص 74 .

أَمَامَ خَمَيْسٍ أَرْجُونَ كَأَنَّهُ قَمِيصٌ مَخُوكُ مِن قَنَا وَجِيَادٍ

وأبو تمام يجعل ممدوحه رأس الجيش، فيقول في مدح المأمون:¹

فَنَهَضَتْ تَسْحَبُ ذَيْلَ جَيْشٍ سَاقَهُ حُسْنُ الْيَقِينِ وَقَادَهُ الْإِقْدَامُ

وممدوح المتنبي غرّة الجيش، يقول في مدح سيف الدولة:²

وَصَدَمْتَهُمْ بِخَمَيْسٍ أَنْتَ غُرَّتُهُ وَسَمَّهَرِيَّتُهُ فِي وَجْهِهِ غَمَمٌ

ووصف الشعراء العباسيون كثافة الجيش، والرغبة التي يبعثها في قلوب الأعداء،

جامعين ما استطاعوا من أوصاف؛ ليحققوا هذه الغاية.

ويطالعنا بشار بصورة يصف فيها الجيش وأثره على العدو، فيقول في مدح مروان بن

محمد:³

وَأَرَعَنَ⁴ يَعْشَى الشَّمْسَ لَوْنُ حَدِيدِهِ وَتَخْلِسُ أَبْصَارَ الْكُمَاةِ كَتَائِبِهِ

تَغْصُ بِهِ الْأَرْضُ الْفَضَاءُ إِذَا غَدَا تُزَاحِمُ أَرْكَانَ الْجِبَالِ مَنَاكِبِهِ

كَأَنَّ جَنَابَاوِيهِ مِنْ حَمْسِ الْوَعَى شَمَامٌ وَسَلْمَى أَوْ أَجَأٌ⁵ وَكَوَاكِبِهِ

تَرَكَنَا بِهِ كَلْبًا وَقَحْطَانَ تَبْتَغِي مُجِيرًا مِنْ الْقَتْلِ الْمُطِلِّ مَقَانِبِهِ

فمشهد الجيش - كما يصفه بشار - يترك أثرا على الأعداء، فهم يرون نهايتهم أكيدة،

فيدفعهم ذلك إلى البحث عن مجير يحميهم من المصير المحتوم الذي ينتظرهم.

وشبيهة بقول بشار قول البحري في وصف الجيش:⁶

بِجَيْشٍ تُسْتَبَاحُ بِهِ الضَّوَاحِي وَتَعْتَصِمُ الْعَوَاصِمُ وَالتُّغُورُ

يَحِينُ رَدَى الْعِدَا فِيهِ وَيُهْدَى لَهَا الْيَوْمُ الْعَبُوسُ الْقَمْطَرِيرُ

¹ أبو تمام: الديوان، ج 2، ص 75.

² المتنبي: الديوان، ص 423 .

³ بشار بن برد: الديوان، ج 1، ص 337 .

⁴ الأرعن: الجيش المضطرب لكثرتة، وشبهه بالرعن من الجبل، لسان العرب مادة (رَعَن).

⁵ أجأ وسلمى جبلان لطيء. لسان العرب مادة (أجأ). وشمام اسم جبل بالعالية، لسان العرب مادة (شَمَم).

⁶ البحري: الديوان، ص 914 .

ويُظهِرُ البحتري أثر الجيش على العدو، فهو يجلب معه الموت، فيكون يوم الحرب عليهم شديداً وعصبياً، وقد استعان البحتري في وصف شدة ذلك اليوم بقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبَّنَا يَوْمًا عَبَّوسًا قَمَطِرًا﴾¹، واليوم العبوس القمطير من أشدّ الأيام وأطولها في البلاء والشدة²، وهذا من أفضل الأوصاف لشدة يوم المعركة على العدو، إذ جعله شبيهاً بيوم القيامة، وما فيه من أهوال. ويكمل البحتري وصفه الجيش وهو يسير على جانبي نهر الفرات، وكأنّ جبال تهامة العالية تسير، ومقدّمة الجيش تحاكي جبل ثبير، والمؤخرة جبل تبيع، يقول:³

كَأَنَّ عَلَى الْفَرَاتِ وَجِيزَتَيْهِ جِبَالٌ تَهَامَةٌ ارْتَفَعَتْ تَسِيرُ
يُتَلَى فِي أَوَاخِرِهَا تَبِيعٌ وَيَقْدُمُ فِي أَوَائِلِهَا ثَبِيرُ

ويصورّ مسلم بن الوليد الجيش، فيصفه بالليل، والسيوف والرماح نجومّ تضيء ظلمته؛ لشدة لمعانها، فيقول:⁴

فِي عَسْكَرٍ تُشْرِقُ الْأَرْضُ الْفَضَاءُ بِهِ كَاللَّيْلِ أَنْجُمُهُ الْقُضْبَانُ وَالْأَسَلُ
وتشبيهه الجيش بالليل دليلٌ على كثافته وكثرتة ورهبتة؛ لأنّ الليل له هيبّة ورهبة.

ويستخدم ابن المعتز الصورة نفسها في وصف الجيش، ويضيف إلى هذه الصورة أثر الجيش على الأعداء، ففيه هلاكهم، فيقول:⁵

وَجَيْشٍ كَمَثَلِ اللَّيْلِ تَسْوَدُّ شَمْسُهُ وَيَحْمَرُّ مِنْ أَعْدَائِهِ الْبَرُّ وَالْبَحْرُ

وقد أخذ أبو فراس المعنى نفسه، فوصف الجيش بالليل البهيم، يقول في مدح سيف الدولة:⁶

¹ سورة الإنسان، الآية (10) .

² الطبري، محمد بن جرير: تفسير الطبري، ج24، ص 100.

³ البحتري: الديوان، ص 914.

⁴ مسلم بن الوليد: الديوان، ص 251. الأمدي: الوساطة، ص 301. الخالديين: المختار من شعر بشار، ص 1. وقد ورد فيه (جفل) بدل (عسكر) .

⁵ ابن المعتز: الديوان، ص 263 .

⁶ أبو فراس: الديوان، ص 85 .

وَأُرْوَعُ جَيْشُهُ لَيْلٌ بِهِيْمٌ وَغُرَّتُهُ عَمُودٌ مِنْ صَبَاحِ
صَفُوحٍ عِنْدَ قُدْرَتِهِ كَرِيمٍ قَلِيلُ الصَّفْحِ مَا بَيْنَ الصِّفَاحِ

وفي القصيدة نفسها يصف أبو فراس ثبات الجيش، وشدته، وكثرة فرسانه، فيقول:¹

عَلَوْنَا جَوْشَنَا بِأَشَدِّ مِنْهُ وَأَثَبْتَ عِنْدَ مُشْتَجِرِ الرِّمَاحِ
بِجَيْشٍ جَاشٍ بِالْفُرْسَانِ حَتَّى ظَنَنْتَ الْبَرَّ بَحْرًا مِنْ سِلَاحِ

فالجيش في نظره أشد من الجبل وأثبت منه، وكأنَّ البرَّ الذي يسير عليه بحرٌ ماؤه سلاح

الفرسان.

وقد سبقه البحتري في استخدام صورة الجبل في وصف الجيش، يقول البحتري:²

لَعَمْرِي لَقَدْ زُرْتُ الْمُصَلَّى بِجَحْفَلٍ يُرْفَرِفُ فِي أَثْنَاءِ رَايَاتِهِ النَّصْرُ
جِبَالٌ حديدٌ تَحْتَهَا النَّاسُ فِي الْوَعَى وَفِيهَا الضَّرَابُ الْهَبْرُ³ وَالْعَدَدُ الدَّثْرُ⁴

وفي وصف كثافة الجيش واجتماعه يقول أبو نواس:⁵

أَمَامَ خَمَيْسٍ أَرْجُوانٍ كَأَنَّهُ قَمِيصٌ مَحْوُكٌ مِنْ قَنَا وَجِيَادِ

فكثافة الجيش مثل القميص المنسوج من الرِّمَاحِ والخيل بدلاً من الخيوط، فهذه الصَّوْرَةُ معبِّرةٌ تُظْهِرُ كثافة الجيش وتزاحمه. ولكنَّ الأُمْدِيَّ يعترض على استخدام أبي نواس لفظ (القميص)، ويرى أنَّ استبدال لفظ الثوب به أفضل، ويقترح بدلاً من قوله قولاً آخر هو (ليس فيه فضاضةٌ كثوبٍ محوكٍ)⁶. ولكنَّ الأُمْدِيَّ لم يقدِّم تعليلاً يؤكد رأيه، فلا يوجد ما يمنع استخدام لفظ لفظ القميص، فهو ورد في القرآن الكريم غير مرة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَجَاؤُوا عَلَى قَمِيصِهِ

¹ نفسه، ص 85 .

² البحتري: الديوان، ص 993 .

³ الضراب الهبر: الذي يقطع اللحم، لسان العرب مادة (هبر) .

⁴ الدثر: الكثير من كل شيء، لسان العرب مادة (دثر) .

⁵ أبو نواس: الديوان، ص 74 .

⁶ الأُمْدِيَّ: الموازنة، ج 3، ص 279 .

بِدَمٍ كَذِبٍ¹، وقوله تعالى: ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ﴾²، وقوله تعالى: ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا وَالْقَوْهَ عَلَى وَجْهِ أَبِي﴾³، والقميص هو الثوب الذي يُلبس ويمكن أن يُقصد به الدرع⁴، وهذا قد قد يجعل لفظ (قميص) أنسب من لفظ (ثوب)، ولذلك فإنّ اعتراض الأمدي لا مبرر له، سواء أكان من جهة اللفظ أم المعنى.

ويصف أبو تمام جيش المأمون الذي قاده خلفه مثل الذيل متحلّياً باليقين والإقدام، فيقول:⁵

فَهَضَّتْ تَسْحَبُ ذَيْلَ جَيْشٍ سَاقَهُ حُسْنُ الْيَقِينِ وَقَادَهُ الْإِقْدَامُ
مُتَعَجِّرٍ⁶ لَجِبٍ تَرَى سُلَافَهُ⁷ وَلَهُمْ بِمُنْخَرِقِ الْفَضَاءِ زِحَامُ
مَلَأَ الْمَلَأَ عَصَبًا فَكَادَ بِأَنْ يُرَى لَا خَلْفَ فِيهِ وَلَا لَهُ قُدَامُ

فجاء أبو تمام بصورة السيل المنذفع؛ ليصف جيش المأمون. وهذا المعنى موجودٌ عند العرب، وقد تناوله كثير من الشعراء.⁸ والأفضل من ذلك في عظم الجيش وكثرته وانتشاره - كما يقول الأمدي-⁹ قول مالك بن الربيع:¹⁰

بِجَيْشٍ لُغَامٍ يَشْغَلُ الْأَرْضَ جَمْعَهُ عَلَى الطَّيْرِ حَتَّى مَا يَجِدُنَ مَنَازِلًا

¹ سورة يوسف، الآية (18) .

² سورة يوسف، الآية (25) .

³ سورة يوسف، الآية (93) .

⁴ لسان العرب مادة (قَمِصٌ).

⁵ أبو تمام: الديوان، ج 2، ص 75.

⁶ متعجّر: السيل الكثير، لسان العرب مادة (تَعَجَّرَ).

⁷ السلاف: المتقدمون، لسان العرب مادة (سَلَفَ) .

⁸ ينظر أوس بن حجر: الديوان، تحقيق وشرح محمد يوسف نجم، بيروت، دار بيروت للطباعة والنشر، 1980، ص

121. الأمدي: الموازنة، ج 3، ص 274. قوله: (ترى الأرض منّا بالفضاء مريضة معضلة منّا بجمع عَرْمَرَم)

وينظر النابغة الذبياني: الديوان، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط2، القاهرة، دار المعارف، (د.ت)، ص 58. الأمدي:

الموازنة، ص 274. قوله: (مَجْرٌ يَظَلُّ بِهِ الْفَضَاءُ مُعَضَّلًا يَدْرُ الْإِمَامَ كَأَنَّهُنَّ صَحَارِي)

⁹ الأمدي: الموازنة، ج 3، ص 279 .

¹⁰ مالك بن الربيع: الديوان، تحقيق نوري حمودي القيسي، معهد المخطوطات العربية، د.ت، ص 102. الأمدي:

الموازنة، ج 3، ص 279.

وهذا من أفضل الأبيات التي تدل على كثرة الجيش وكثافته، بحيث لا يترك مكاناً تقيم فيه الطيور بيوتها. وقد أخذ ابن الرومي معنى مالك بن الريب السابق، فوصف كثرة الجيش وسعة انتشاره، فقال:¹

بِمَجْرٍ² تَضِيقُ الْأَرْضُ مِنْ زَفْرَاتِهِ لَهُ زَجَلٌ³ يَنْفِي الْوَحُوشَ وَهَزْمَجٌ⁴
إِذَا شِيمٌ⁵ بِالْأَبْصَارِ أَبْرَقَ بِيضُهُ بَوَارِقَ لَا يَسْتَطِيعُهُنَّ الْمُحَمَّجُ⁶

فالأرض تضيق بهذا الجيش الكثيف الذي يصدر أصوات مخيفة تبعد الوحوش، ولمعان سيوفه لا يستطيع رؤيتها الناظر مهما حاول تصغير عينيه؛ لشدة لمعانها.

ويصف أسامة بن منقذ كثافة الجيش وكثرته واندفاع فرسانه إلى الحرب، فهم مثل السيل المندفَع، وقد ضاقت به الأرض، فلا يستطيع العدو السير فيها فيقول:⁷

بِمِثْلِ أَتَى السَّيْلِ ضَاقَ بِهِ الْفَضَا وَضَاقَ عَلَى الْأَعْدَاءِ مِنْهُ الْمَخَارِمُ⁸
يُبَارِينَ شُهَبَ الْقَذْفِ يَحْمِلْنَ مِثْلَهَا مِنْ الْحَتْفِ لِلْبَاغِي الرَّجِيمِ رَوَاجِمُ
سَرَايَا كَمَوْجِ الْبَحْرِ فِي لَيْلٍ عَثِيرٍ بِهِ مِنْ عَوَالِيهِمْ نُجُومٌ نَوَاجِمُ

فالخيول المندفعة تباري الشهب؛ لأنها تحمل شهباً مثلها، في إشارة إلى الرماح التي يحملها الفرسان، فيرجمون بها العدو الباغي، كما ترجم الشياطين بالشهب، وهذا من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾⁹. ويصف ابن منقذ سرايا

¹ ابن الرومي: الديوان، ج1، ص 308 .

² المجر: الجيش الكثير جداً العظيم المجتمع، لسان العرب مادة (مَجْر).

³ الزجل: الرمي، لسان العرب مادة (زَجَل).

⁴ الهزجة: اختلاط الصوت، لسان العرب مادة (هَزْمَج).

⁵ الشيم: النظر إلى النار، وشام السحاب والبرق شيماً نظراً إليه أين يقصد وأين يمطر . لسان العرب مادة (شيم)

⁶ التحميج: تصغير العينين لتمكين النظر . لسان العرب مادة (حمج)

⁷ أسامة بن منقذ: الديوان، ص 274.

⁸ المخارم: جمع مفردة مخرم وهو الطريق في الجبل أو الرمل، لسان العرب مادة (خَرَم)

⁹ سورة الملك، الآية 5

سرايا الجيش، فهي كموج البحر الهادر في ليلٍ مظلم قاتم، ورؤوس الرماح المشرعة نجومٌ تتوقّد في ظلمة الليل. وهذه صورة تكرر استخدامها في وصف الرماح.

ومن الصور التي وُصِف بها الجيش قول المتنبي في مدح سيف الدولة:¹

وَرُبَّ جَوَابٍ عَنِ كِتَابٍ بَعَثْتَهُ وَعِنَاؤُهُ لِلنَّاطِرِينَ قَتَامُ
تَضِيقُ بِهِ الْبَيْدَاءُ مِنْ قَبْلِ نَشْرِهِ وَمَا فُضَّ بِالْبَيْدَاءِ عَنْهُ خِتَامُ
حُرُوفُ هِجَاءِ النَّاسِ فِيهِ ثَلَاثَةٌ جَوَادٌ وَرُمُحٌ ذَابِلٌ وَحُسَامُ

فجعل المتنبي الجيش جواباً عن كتاب، فيه ما يكون للكتاب من العنوان والحروف والختام والنشر، فالعنوان هو القتام؛ لأنه يدل على سير الجيش، مثل العنوان الذي يدل على الكتاب، فيعرف المرسل والمرسل إليه، والبيداء تضيق بالجيش وهو مجتمعٌ قبل أن يتفرق، وهذا شبيهةً باجتماع الكتاب في حال طيّه، وحروفه الخيل والرماح والسيوف. وبهذا استوفى المتنبي الصنعة، وأعطى الاستعارة حقّها، وهذا مما أحسن فيه المتنبي.²

وصف حال العدو في المعركة

وصف الشعراء العباسيون حال العدو، وفصلوا في ذكر هزيمته، وما وصل إليه من عجز وانكسار، بسبب ضربات الممدوح القويّة، التي تصيب أهدافها بدقة، فأبو تمام يجعل مدوحه نوح ابن عمر ينظّم الفرسان برمحه، كما ينظّم اللؤلؤ بالخيط، فيقول:³

لَوْ أَنَّ طَوْلَ قَنَاتِهِ يَوْمَ الْوَعَى مِثْلُ إِذْنِ نَظْمِ الْفَوَارِسِ مَيْلًا

وهذا من مبالغات أبي تمام في وصف شجاعة ممدوحه، إذ جعل منه بطلاً أسطورياً. وهذا ما دفع الكفراوي إلى القول: "أمّا صاحب الطائيّ فلا نؤمن ببطلته إلّا بقدر ما نؤمن

¹ المتنبي: الديوان، ص 392. الخالدين: المختار من شعر بشار، ص 4 .

² النعالي: أبو الطيب المتنبي ما له وما عليه، ص 117. الخالدين: المختار من شعر بشار، ص 5 .

³ أبو تمام: الديوان، ص 121 .

برحلات (جلفر) في أرض الأقرام¹. وهذا المعنى شبيهه بقول بكر بن النطاح في مدح أبي دلف، بعد أن نظم فارسين بطعنة واحدة، يقول:²

قَالُوا وَيَنْظُمُ فَارِسَيْنِ بِطَعْنَةٍ يَوْمَ اللَّقَاءِ وَلَا يَرَاهُ جَلِيلًا
لَا تَعَجَّبُوا لَوْ أَنَّ طَوْلَ قَنَاتِهِ مِثْلُ إِذَنْ نَظَّمَ الْفَوَارِسَ مِيلًا

وفي الحديث عن إصابة مقتل العدو، يقول البحتري مفتخرًا بقومه:³

قَوْمٌ تَرَى أَرْمَاحَهُمْ يَوْمَ الْوَعَى مَشْغُوفَةً بِمَوَاطِنِ الْكِتْمَانِ

أراد القلب فلم يعبر عنه مباشرةً فعمد إلى الكناية، فذكر موضع الكتمان. وهذا شبيهه بقوله في موضع آخر:⁴

فَأَوْجَرْتُهُ أُخْرَى فَأَضَلَّتْ نَصْلَهُ بِحَيْثُ يَكُونُ اللَّبُّ وَالرُّعْبُ وَالْحَقْدُ

وهذا ما أسماه ابن سنان الخفاجي الإرداف، وهو استخدام الكناية بدل التعبير المباشر، فعدل عن ذكر القلب وذكر ما يكون فيه من اللبِّ والرعب والحقد. وهذا برأيه أحسن؛ لأنه دلَّ على شرف هذا الجزء وتميُّزه عن جميع الجسد، فأصاب أشرف موضع منه وهو القلب.⁵

وأقوال البحتري السابقة مأخوذة من قول عمرو بن معد يكرب الزبيدي:⁶

وَالضَّارِبِينَ بِكُلِّ أَبْيَضٍ مُرْهَفٍ وَالطَّاعِنِينَ مَجَامِعِ الْأَضْغَانِ

¹ الكفراوي، محمد عبد العزيز: الشعر العربي بين الجمود والتطور، ص 183 .

² ابن حمدون، محمد بن الحسن بن محمد: التذكرة الحمدونية، تحقيق إحسان عباس ويكر عباس، ط1، بيروت، دار صادر، 1996، ج1، ص272. عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، ص58. البكري، عبدالله بن عبد العزيز بن محمد: سمط اللآلئ في شرح أمالي القالي، تحقيق عبد العزيز الميمني، بيروت، دار الكتب العلمية، دت، ج1، ص561. الضامن، حاتم صالح: شعر بكر بن النطاح، بغداد، مطبعة المعارف، 1975، ص32

³ البحتري: الديوان، ص 2365 .

⁴ نفسه، ص744. ابن سنان الخفاجي: سر الفصاحة، ص 232. الأمدي: الموازنة، ج2، ص 316 .

⁵ ابن سنان الخفاجي: سر الفصاحة، ص 232 .

⁶ الأمدي: الموازنة، ج 3، ص 216 .

وهذا القول في غاية الجودة والإصابة كما يقول الأمدى؛ لأنه قال (الطاعنين مجامع الأضغان) فَطَعْنُ الأعداء لا يكون إلا بسبب أضغانهم، فإذا وقع الطعن في هذا الموضع يكون قد أصاب المطلوب¹.

وقد لجأ المتنبي إلى استخدام الكناية؛ لوصف مكان الطعنة، يقول في مدح بدر بن عمار:²

فَيَا بَنَ الطَّاعِنِينَ بِكُلِّ لَدْنٍ مواضِعَ يَشْتَكِي البَطْلُ السُّعَالَا

أراد المتنبي الصدر أو النحر، فعدل إلى الكناية عنهما بموضع السعال، فالسعال يكون من الصدر أو النحر، فيكون قد أصاب المقتل.

وفي موضع آخر يجعل المتنبي ممدوحه يصيب أهدافه بدقة، فيقول في مدح أبي أيوب أحمد ابن عمران:³

لَوْ مَرَّ يَرْكُضُ فِي سَطُورِ كِتَابِهِ أَحْصَى بِحَافِرِ مُهْرِهِ مِيمَاتِهَا
يَضَعُ السَّنَانَ بِحَيْثُ شَاءَ مُجَاوِلًا حَتَّى مِنْ الأَذَانِ فِي أُخْرَاتِهَا

فممدوحه يُصَرِّفُ المهر الرِّيِّضَ على قدر اختياره، فكيف إذا كان الحصان من الخيول المدربة؟ وقوله أيضاً يضع السنان مجاؤلاً فهو يصيب أهدافه وهو يجول في أرض المعركة، فكيف يكون إذا كان آمناً مطمئناً في الميدان؟⁴

ويستطيع علي بن محمد أن يصيب هدفه مهما كان ضيقاً وفي ظلمة الليل، يقول المتنبي:⁵

وَيُنْفِذُهُ فِي العِقْدِ وَهُوَ مُضَيِّقٌ مِنْ الشَّعْرَةِ السَّوْدَاءِ وَاللَّيْلِ مُسْوَدُّ

¹ نفسه، ج 3، ص 216.

² المتنبي: الديوان، ص 141.

³ المتنبي: الديوان، ص 187 .

⁴ ابن جني: تفسير أبيات المعاني، ص 78، 79 .

⁵ المتنبي: الديوان، ص 200 .

وفي وصف شدة الطعن والضرب، فيستطيع ممدوح ابن الرومي أن يُدخِل النبل في
الدرع التي أُحْكِمَ نَسْجُهَا، بحيث لو وضع الماء بين حلقاتها لما رشح من شدة تقاربها، فيقول في
مدح إسماعيل بن بلبل:¹

يُغْلَغِلُ النَّبْلَ فِي الدَّرْعِ الَّتِي رُتِقَتْ رَتَقًا فَلَوْ صَبَّ الْمَاءُ فِيهَا مَا رَشَحَا

فهذه الضربات كان أثرها واضحا على العدو، فركّز الشعراء العباسيون على وصف
حال العدو قبل المعركة وبعدها. يظهر ذلك جلياً في شعر بشار بن برد في وصف جيش العدو
في أرض المعركة، فضخّم قوّته وشجاعته، ووصف كثافته، فقال:²

وَجَيْشٍ كَجُنْحِ اللَّيْلِ يَزْحَفُ بِالْحَصَى وَبِالشَّوْكِ وَالْخَطِيءِ³ حُمُرٌ تَعَالِبُهُ⁴

فجيش العدو قطعة من الليل؛ لكثافته واكتناظه، ويسير واثقاً بقوته، فلا يعيقه شيء،
والرّماح الخطيئة مصبوغة بالدماء، من كثرة الحروب التي خاضها، فأكسبته خبرة وقوة وصبرا
على القتال. والهدف من تضخيم قوّة جيش العدو، وبسالته، إظهار قوة ممدوحه من خلال تحقيق
النصر على الجيش الموصوف، فيكون النصر مدعاة للفخر، فلو كان الأعداء من القلة والضعف
لما كان للانتصار عليهم أيّ فخر.⁵

وينتقل بشار إلى وصف حال جيش العدو بعد المعركة، ليصل إلى هدفه، وهو بيان أثر
ضربات الممدوح وجيشه على هذا العدو، فيقول:⁶

غَدَوْنَا لَهُ وَالشَّمْسُ فِي خِذْرِ أُمَّهَا تَطَالِعُنَا وَالطَّلُّ لَمْ يَجْرِ ذَائِبُهُ
بِضَرْبِ يَذُوقِ الْمَوْتِ مَنْ ذَاقَ طَعْمَهُ وَتَدْرِكُ مَنْ نَجَى الْفِرَارُ مَتَالِبُهُ¹

¹ ابن الرومي: الديوان، ج 1، ص 317 .

² بشار: الديوان، ج 1، ص 335 .

³ الخطي: الرمح المنسوب إلى الخط وهو موضع في اليمامة تنسب إليه الرماح الخطية؛ لأنها تُحمَلُ من بلاد الهند فتقوم
به . لسان العرب مادة (خَطَطَ).

⁴ تعالبه: الثعلب طرف الرمح الداخل في السنان . لسان العرب مادة (تَعَلَبَ).

⁵ الشمري، نائر سمير وكمال عبد الفتاح السامرائي: إبحاء الكلمات في الشعر العباسي دراسة تأويلية في قصيدة الإختيار
ورمزية التعبير، مجلة مركز بابل للدراسات الإنسانية، المجلد4، العدد 2، ص 166 .

⁶ بشار بن برد: الديوان، ج 1، ص 335 .

فخروجهم للقاء جيش العدو في وقت مبكر قبل شروق الشمس، والذي يدل على ذلك قوله (والشمس في خدر أمها). ونجد أن بعض الباحثين جعلوا من الخروج المبكر دليلاً على الشجاعة أكثر من أي وقت، وخاصة إذا كان الخروج في وقت الشتاء، واستدلوا على أن وقت الخروج كان في وقت الشتاء من قول بشار (والطلّ لم يجرِ ذائبه) أي وجود الندى، فالندى - حسب رأيهم - لا يكون إلا في الشتاء، فيكون البرد شديداً². وهذا الكلام مبالغ فيه، فوجود الندى لا يقتصر على الشتاء، بل يكون في فصل الربيع وفصل الصيف أيضاً، فاختيار الوقت المبكر قد يكون تفادياً لحرارة الشمس، فيتمكن الجيش من قطع المسافة قبل اشتداد الحر، وهذا لا ينفي الشجاعة عنهم؛ لأنّ الشجاعة لا تتطلب من الإنسان أن يُلقي نفسه في الهلاك لإثبات شجاعته، وهذا اختيار يجعل طاقة الجيش كلها تنصب في مواجهة جيش العدو بدلاً من إهدارها في مواجهة حرّ الصحراء الملتهية. ثم ينتقل بشار إلى وصف الضرب الذي يلاقون به جيش العدو، فهو يأتي بالموت، ويجلب العار لمن يهزم من أرض المعركة.

ثم يقسم بشار جيش العدو إلى أقسام عدة، بين قتيل وأسير وهارب، فيقول:³

فَرَاخُوا فَرِيقاً فِي الْإِسَارِ وَمِثْلُهُ قَتِيلٌ وَمِثْلٌ لَأَذَ بِالْبَحْرِ هَارِبُهُ

ويرى ابن رشيق أنّ بشاراً في هذا البيت استقصى الأقسام جميعها؛ لأنّ الهزيمة تكون بهذه الأمور الثلاثة، ولا زيادة على ما ذكره بشار⁴. وبشار في مواضع أخرى لم يأت بهذا التقسيم، فمرةً قسمهم إلى فريقين: المقتول والهارب، ولم يذكر الأسير، فقال في مدح عقبة بن سلم:⁵

كَانُوا فَرِيقَيْنِ فَمِنْ هَارِبٍ وَمُقْعَسٍ⁶ بِالطَّعْنِ لَمْ يَهْرُبِ

¹ مثالبه: عيوبه . لسان العرب مادة (تَلَبَّ)

² الشمري، نائر سمير، وكمال عبد الفتاح السامرائي: إحياء الكلمات في الشعر العباسي، ص 166 .

³ بشار بن برد: الديوان، ج 1، ص 336 .

⁴ ابن رشيق: العمدة، ص 21.

⁵ بشار بن برد: الديوان، ج 2، ص 138.

⁶ مقعس: ثابت لا يتحرك من مكانه، لسان العرب مادة (قَعَسَ).

ومرّة أخرى يذكر بشار القتلى والأسرى، ولم يذكر الهاربين، فيقول في مدح محمد بن

العباس:¹

فَأَصْبَحَتِ النُّعْمَى عَلَيْنَا وَأَصْبَحُوا قَتِيلًا وَمَحْمُولًا إِلَيْكَ مُصَفِّدًا

ولقد أكثر الشعراء العبّاسيون من استخدام هذا التقسيم، فالبحتري في مدح أحمد بن عبد

العزیز قسّم العدو إلى فريقين، فقال:²

فَهُمْ فَرِيقَانِ بَيْنَ قَتِيلٍ قُنِصَتْ نَفْسُهُ بِحَدِّ الْحَدِيدِ
وَأَسِيرٍ غَدَالُهُ السَّجْنُ لِحَدًّا فَهُوَ حَيٌّ فِي حَالَةِ الْمَحْوَدِ

وفي موضع آخر يجعل البحتري الأعداء ثلاثة أقسام: قتيلاً، وشريداً، وأسيراً، فيقول في

مدح أبي نهشل محمد بن حميد الطوسي:³

فَلَمْ يَبْقَ مِنْ أَعْدَائِهِمْ غَيْرُ مَوْغِلٍ بِهِ الْخَوْفُ أَوْ نَائِي الْمَحَلِّ شَرِيدٍ
يُمَزَّقُهُمْ وَقَعُ الصَّفِيحِ فَمَوْثِقٌ أَسِيرٌ وَمَسْلُوبُ الْحَشَاشَةِ مُودٍ

وفي مدح محمد بن صفوان يقسّم البحتري الأعداء بين قتيل وأسير، فيقول:⁴

كَمْ مَقْعَصٍ مِنْهُمْ تُدْمِي تَرَائِبُهُ وَلَا حِجَّ فِي وَثَاقِ الْأَسْرِ قَدْ رَسَفَا

ويضيف البحتري إلى تقسيمه العدو قسماً جديداً وهم الجرحى، فيقول في مدح الهيثم بن

عثمان الغنوي:⁵

غَادَرْتَهُمْ بَيْنَ مَجْرُوحٍ وَمُقْتَسِرٍ عَانَ وَمُطْرَحٍ لَحْمًا عَلَى وَضَمٍ
أَسْرَى وَجَرَحَى وَقَتَلَى فِي دِيَارِهِمْ كَأَنَّمَا لَبَسُوا قُمْصًا مِنَ الْأَدَمِ

¹ بشار: الديوان، ج 3، ص 38.

² البحتري: الديوان، ص 808.

³ البحتري: الديوان، ص 779.

⁴ نفسه، ص 1439.

⁵ نفسه، ص 2129-2130.

ويأتي أبو تمام بتقسيم آخر يختلف عن تقسيم بشار والبحثري، حين يقسم القتلى إلى فريقين حسب أداة القتل، فقسم جعلهم للرماح، وقسم للنار يحرقون بها، فيقول في مدح محمد بن يوسف: ¹

قَسَمْنَاهُمْ فَشَطْرٌ لِلْعَوَالِي وَأَخْرُ فِي لُظَى حَرَقِ الْوَقُودِ
كَأَنَّ جَهَنَّمَ انضَمَّتْ عَلَيْهِمْ كِلَاهَا غَيْرَ تَبْدِيلِ الْجُودِ

ومن حسن التقسيم ما جاء به المتنبي في حديثه عن حال العدو، حين جعل أرض العدو ملكاً لمدوحه، فيقول: ²

الدَّهْرُ مُعْتَذِرٌ وَالسَّيْفُ مُنْتَظِرٌ وَأَرْضَهُمْ لَكَ مُصْطَافٌ وَمُرْتَبِعٌ
لِلسَّبِيِّ مَا نَكَحُوا وَالْقَتْلِ مَا وَدُوا وَالنَّهْبِ مَا جَمَعُوا وَالنَّارِ مَا زَرَعُوا

فقد جعل المتنبي أرض العدو خالصة لمدوحه، يتصرف فيها كيف يشاء، فالنساء للسبي، والأولاد للقتل، والأموال للنهب، والزرع للحرق. وهذا ما يسميه ابن الناظم الجمع مع التقسيم. ³

ويوزع أسامة بن منقذ العدو بين قتيل وأسير، وهذا فيه فناؤهم، فلا ينجو منهم أحد، فيقول: ⁴

فَأَفْنَيْتَهُمْ قَتْلًا وَأَسْرًا بِأَسْرِهِمْ فَنَاجِيَهُمْ مُسْتَسْلِمًا أَوْ مُسَالِمًا
فَلَمَّا أَبَادْتَهُمْ سُيُوفُكَ وَأَنْجَأْتِ عَنِ الْأَرْضِ مِنْهُمْ ظُلْمَةً وَمَظَالِمًا

وفي موضع آخر يصف أسامة بن منقذ فرار قائد العدو من أرض المعركة، تاركاً فرسانه للقتل أو الأسر، فيقول: ¹

¹ أبو تمام: الديوان، ص 254.

² المتنبي: الديوان، شرح أبي البقاء العكبري، ضبطه وصححه مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، بيروت، دار المعرفة، ج 2، ص 233. ابن الناظم: المصباح في المعاني، ص 248. ابن رشيق: العمدة في محاسن الشعر، ج 2، ص 26.

³ ابن الناظم: المصباح في المعاني، ص 248.

⁴ أسامة بن منقذ: الديوان، ص 275.

فَوَلَّى يُبَارِي عَائِرَاتِ سِهَامِنَا وَفِي سَمْعِهِ مِنْ وَقَعِ أَسْيَافِنَا وَقَرُّ
وَحَلَّى لَنَا فُرْسَانَهُ وَحَمَاتَهُ فَشَطْرَ لَهُ قَتْلٌ وَشَطْرَ لَهُ أَسْرُ

ولجأ بعض الشعراء في وصفهم حال العدو إلى الموازنة بين حالتين للأعداء، فقد تحول حالهم من الأحسن إلى الأسوأ؛ بسبب ما يلاقونه في الحرب. فنجد أبا تمام يصفهم بالأسد الغضاب، ولكنهم تحولوا إلى أنعام، فانقلبت شجاعتهم إلى جبن، فيقول في مدح إسحاق بن إبراهيم²:

سَمَاهُمْ الْبَطْرُ الْأَسَدَ الْغَضَابَ فَلَمْ تَهَجَّعْ سَيْوْفُكَ حَتَّى صُيِّرُوا نَعْمَا
وَلَّتْ شَيَاطِينُهُمْ عَنْ حَدِّ مَلْحَمَةٍ كَانَتْ نُجُومُ الْقَتَا فِيهَا لَهُمْ رُجْمَا

والفرق كبير بين الحالتين، فكانت النتيجة أنهم هربوا من أرض المعركة، والرماح خلفهم مثل النجوم التي تُقذفُ بها الشياطين. وهذا المعنى مأخوذ من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾³.

ويكمل أبو تمام المشهد السابق في وصف حال العدو قائلاً⁴:

لَقَدْ بَيَّضَتْ رُحْمُ الْهَيْجَا جَمَاجِمَهُمْ حَتَّى لَقَدْ تَرَكَتْهَا تُشْبِهُ الرِّخْمَا

فقد أصبحوا طعاماً لطائر الرخم، تأكل رؤوسهم، وصارت جماجمهم شبيهة ببنانيتها وقذارتها.

ويتحدث أبو تمام عن التحول في حياة العدو من النعيم إلى الشقاء، فيقول في مدح

إسحاق ابن إبراهيم⁵:

غَادَيْتَهُمْ بِالْمَشْرِقَيْنِ بَوَقْعَةٍ صَدَعَتْ صَوَاعِقُهَا جِبَالُ الرُّومِ

¹ نفسه، ص 254 .

² أبو تمام: الديوان، ج 2، ص 84 .

³ سورة الملك، الآية (5) .

⁴ أبو تمام: الديوان، ج 2، ص 84 .

⁵ نفسه، ج 2، ص 134 .

أَخْرَجْتَهُمْ بَلْ أَخْرَجْتَهُمْ فِتْنَةً سَأَبَتْهُمْ مِنْ نَضْرَةٍ وَنَعِيمٍ
نُقِلُوا مِنَ الْمَاءِ النَّمِيرِ¹ وَعَيْشَةٍ رَغَدٍ إِلَى الْغَسْلِينَ وَالزَّقُومِ

بدا أثر المعركة واضحا على الأعداء، إذ حوّلهم من حياة النعيم وشرب الماء النمير، إلى حياة أهل الجحيم، طعامهم فيها الزقوم والغسلين، وهذا طعام أهل النار كما جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُومِ طَعَامُ الْأَثِيمِ﴾²، وقوله تعالى: ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينَ﴾³. فقد استطاع أبو تمام من خلال التناص مع المفردات القرآنية (الماء النمير) و (الغسلين والزقوم) أن يصف حال العدو، والتحول في حياتهم بعد المعركة، فهم نُقِلُوا من النعيم إلى الشقاء.

ويصف المنتبّي حال قائد جيش العدو أثناء قدومه إلى المعركة، وحاله بعد خروجه منها، فهو يزار مثل الأسود، ولكن هذا الزيتير يتحوّل إلى أنين من ثقل الجراح التي أصيب بها في المعركة، يقول أبو تمام:⁴

لِقَاكَ بِابِكَ وَهُوَ يَزَارُ فَاتْتَنَى وَزَيْرُهُ قَدْ عَادَ وَهُوَ أَنْينُ
لَمَّا رَأَى عَمِيكَ وَلَّى هَارِباً وَلِكْفَرِهِ طَرْفٌ عَلَيْهِ سَخِينُ

وقد علق الأمدّي على هذه الأبيات قائلاً: "وهذا كله معنى ولفظاً لا مطّعن عليهما في الصّحة والاستقامة والحسن"⁵.

ويجري ابن المعتز مقارناتٍ عدة بين أحوالٍ مختلفة للعدو في مدحه المعتصم، فالأعداء يفرحون في حالة السلم مع الممدوح، وممدوحه يجهّز للغزو والحرب فلا يركن للسلم، يقول ابن المعتز:⁶

فَرِحَ الْأَعْدَاءُ بِالسَّلْمِ مِنْهُ وَهُوَ فِي السَّلْمِ يَخُذُ السَّلَاحَ

¹ الماء النمير الصالح للشرب والري أو الماء الكثير، لسان العرب مادة (نَمَرَ)

² سورة الدخان، الأيتان (43، 44) .

³ سورة الحاقة، الآية (36) .

⁴ أبو تمام: الديوان، ج 2، ص 161.

⁵ الأمدّي: الموازنة، ج 3، ص 355 .

⁶ ابن المعتز: الديوان، ص 468 .

فمدوحه دائم التيقظ والاستعداد والجاهزية التامة للحرب، وهذا دفع الأعداء إلى رمي

أموالهم بعد أن كانوا حريصين عليها ويخلون بها، يقول ابن المعتز:¹

وَرَمَتْ أَيْدِيهِمُ الْمَالَ خَوْفًا وَلَقَدْ كَانُوا عَلَيْهِ شِحَا حَا

وشجاعة ممدوح ابن المعتز في الحرب أخرست الأعداء، بعد أن كان الضحك والمرح

لا يفارقان أفواههم، يقول ابن المعتز:²

خَاطَ أَفْوَاهَهُمْ وَقَدِيمًا مَزَقُوها ضَحِكًا وَمِرَا حَا

وَعَوَّوْا شَكْوَى إِلَيْهِ وَكَانُوا مَلَّوْا دُورَ الْمُلُوكِ نَبَا حَا

فالأعداء رأوا من الممدوح جولات الحرب مرة تلو الأخرى، فهو ينتقل من حرب إلى

أخرى دون كلل أو ملل، يقول ابن المعتز:³

أَيَّقَتُوا مِنْهُ بِحَرْبِ عَوَانٍ وَرَجَالٍ يُخَضُّ بُونَ الرَّمَاحَا

ويصف المتنبى إقدام جيش العدو إلى الحرب وخروجه منها، فهو يقدم إقدام الأسد واثقاً

متبخرتاً معتزاً بشجاعته، وعندما يدخل المعركة يفرُّ فرار الوعل مسرعاً مذعوراً، فيقول:⁴

فَأَتَيْتَ مُعْتَزِمًا وَلَا أَسَدًا وَمَضَيْتَ مُعْتَزِمًا وَلَا وَعْلًا

وهذا من حسن التشبيه من غير استخدام أداة التشبيه كما يقول الثعالبي، فالتشبيه بغير

أداة التشبيه يكون أقوى بالشبه⁵

وفي موضع آخر يصف المتنبى إقدام الأعداء، وفرارهم من أرض المعركة من خلال

وصف الخيل الزاحفة إلى الحرب، فيقول:⁶

ضُرِبْنَ إِلَيْتَا بِالسَّيَاطِ جَهَالَةً فَلَمَّا تَعَارَفْنَا ضُرِبْنَ بِهَا عَنَّا

¹ نفسه، ص 468.

² نفسه، ص 468.

³ ابن المعتز: الديوان، ص 468 .

⁴ المتنبى: الديوان، ص 316 .

⁵ الثعالبي: أبو الطيب المتنبى ما له وما عليه، ص 101.

⁶ المتنبى: الديوان، ص 316. ابن رشيق: العمدة، ص 9.

ويعلق ابن رشيقي على هذا البيت قائلاً: "مقولته (ضُرِبْنَ إلينا) مجيء إقدام وقوله: (ضُرِبْنَ بها عناً) زهاب فرار، وهما ضدان"¹. ففي الحالتين تُضْرَبُ الخيل، ولكنها في المرة الأولى تضرب حثاً على الإقدام إلى المعركة، ويكرّر الضرب إسراعاً بالفرار من هول ما رآوه في المعركة.

ويتحدث أبو فراس عن تأديب بني قشير بعد خروجهم عليه، وكانوا يفوقون جيشه بالعدد، ولكنّ أبا فراس وجيشه بشجاعتهم وثباتهم يحولون كثرة الأعداء إلى قلة، بعد أن أعملوا فيهم الرماح والسيوف قتلاً، يقول:²

أَيَا عَجَبًا لِأَمْرِ بَنِي قَشِيرٍ أَرَاعُونَا وَقَالُوا الْقَوْمُ قُلُ
وَكَانُوا الْكَثْرَ يَوْمَئِذٍ وَلَكِنْ كَثُرْنَا إِذْ تَعَارَكْنَا وَقَلُّوا
فَوَلَّوْا لِلْقَتَا وَالْبَيْضِ فِيهِمْ وَفِي جِيرَانِهِمْ نَهْلٌ وَعَلٌ³

وتحدث الشعراء العباسيون عن هرب قادة العدو، وتفرّق شمل جيوشهم أمام شجاعة خصمهم، فأبو تمام يجعل الفرار أخاً لبابك الخرمي، فيلازمه في كل وقت، ويتخذ مخرجاً من الشدائد، فيقول:⁴

اتَّخَذَ الْفِرَارَ أَخًا وَأَيَّقَنَ أَنَّهُ صِرِّي عَزْمٍ مِنْ أَبِي سَمَالٍ

ويؤكد أبو تمام إصرار ممدوحه على التخلّص من عدوّه بابك، وقد استعان بالمثل القائل "صري عزم من أبي سمّال"⁵، وهذا المثل يضرب للرجل يصدق عزمه على الشيء، فلا ينتهي عنه حتى يناله. وأصل المثل أنّ أبا سمّال الأسدي كان متّهماً في دينه، فضلت ناقته فحلف لا يُصَلِّي أو يردّها الله، فأصابها وقد علق زمامها بشجرة، فقال: علم الله أنّها صرّي، أي أصررت

¹ ابن رشيقي: العمدة، ص 9.

² أبو فراس: الديوان، ص 232.

³ النهل: الشرب مرة واحدة، لسان العرب مادة (نهل). والعلة: الشرب مرة بعد مرة، لسان العرب مادة (علل).

⁴ أبو تمام: الديوان، ج 2، ص 64. العسكري، أبو هلال: جمهرة الأمثال، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم وعبد المجيد قطامش، ط2، القاهرة، دار الفكر العربي، 1988، ج 1، ص 572.

⁵ أبو هلال العسكري: جمهرة الأمثال، ج 1، ص 572.

على يميني فردّها. فَضْرِبْ به المثل"¹. فلما علم بابك إصرار الممدوح على النيل منه ولّى هارباً من أرض المعركة.

ويصف أبو فراس فرار الدمستق من أمام سيف الدولة وهو مصاب، تاركاً ابنه خلفه في الأسر، فيقول في مدح سيف الدولة:²

وَوَلَّى عَلَى الرَّسْمِ الدَّمَسْتَقُ هَارِباً وَفِي وَجْهِهِ عُدْرٌ مِنَ السَّيْفِ عَاذِرُ
فَدَى نَفْسَهُ بِأَبْنٍ عَلَيْهِ كَنَفْسِهِ وَلِلشَّدَّةِ الصَّمَاءِ تُقْنَى الذَّخَائِرُ
وَقَدْ يُقَطِّعُ العُضْوُ النَّفِيسَ لِغَيْرِهِ وَتُدْفَعُ بِالْأَمْرِ الكَبِيرِ الكَبَائِرُ

ويضع أبو فراس أعذاراً لفرار الدمستق من أرض المعركة بأسلوب تهكمي، فعذر الدمستق موجودٌ في وجهه من ضربات السيوف، وقد افتدى نفسه بابنه، وكان الدمستق قد أعدّه للشدائد ليُسَلِّمَهُ لها ويُوَلِّي هارباً منها. فالعضو النَّفِيسُ قد يُقَطِّعُ لبيقى غيره، وأمرٌ آخر هو أن الكبائر لا تُدْفَعُ إلّا بالأمر الكبير. كلُّ هذا من باب السخرية من فرار الدمستق من المعركة.

ويضع المتنبي أعداء سيف الدولة أمام خيارين فيهما الهلاك، فيضطرون إلى اختيار أحدهما، فيقول في مدح سيف الدولة:³

إِذَا فَاتُوا الرَّمَاحَ تَتَاوَلَتْهُمْ بِأَرْمَاحِ مِنَ العَطَشِ القِفَارُ
يَرُونَ المَوْتَ قُدَّامًا وَخَلْفًا فَيَخْتَارُونَ وَالمَوْتَ اضْطِرَارُ
فَلَزَّهُمُ الطَّرَادُ إِلَى قِتَالِ أَحَدُ سِلَاحِهِمْ فِيهِ الفِرَارُ

فقد يكون موتهم طعناً برماح سيف الدولة وجيشه، أو الموت برماح القفار، وهي العطش والجوع، فالهارب منهم يرى الموت من خلفه وهو جيش الممدوح، وأمامه موتٌ آخر وهو حرّ الصحراء، فيختارون الفرار، لأنّه أمضى سلاحٍ معهم يقاتلون فيه.

¹ نفسه، ج1، ص 572.

² أبو فراس: الديوان، ص 150.

³ المتنبي: الديوان، ص 401، 400.

ومن الصور التي استخدمها الشعراء العباسيون في وصف حال العدو في المعركة، قول مسلم بن الوليد:¹

يَكْسُو السُّيُوفَ نَفُوسَ النَّاكِثِينَ بِهِ وَيَجْعَلُ الهَامَ تِجَانِ القَنَا الذُّبُلِ

فالسيف تغمد في نفوس أعدائهم وكأن أجسادهم أغمادها، وهاماتهم تيجان توضع على رؤوس الرماح. وهذا مأخوذ من قول جرير:²

كَأَنَّ رُؤُوسَ القَوْمِ فَوْقَ رِمَاحِنَا غَدَاةَ الوَغَى تِجَانُ كِسْرَى وَقَيْصَرَا

فقد جعل جرير رؤوس القوم فوق الرماح مثل تيجان كسرى وقيصر، ولكن مسلماً وضع للرماح تيجان تلبسها وكأنها من الملوك، وتيجانها رؤوس الأعداء.

وقريب من قول مسلم قول أبي تمام في مدح إسحاق بن أبي إبراهيم:³

بَدَّأَتْ أَرْؤُسَهُمْ يَوْمَ الكَرِيهَةِ مِنْ قَنَا الظَّهْورِ قَنَا الخَطِيِّ مُدَعَمَا
مِنْ كُلِّ ذِي لِمَةٍ غَطَّتْ ظَفَائِرُهَا صَدْرَ القَنَاةِ فَقَدْ كَادَتْ تُرَى عِلْمَا

إن ممدوح أبي تمام قد غير الأجساد التي تحمل رؤوس الأعداء، فاستبدلها بالرمح. وقد عدّ الأمدى قول أبي تمام هذا من سرقاته التي أخذها من مسلم بن الوليد، أو أن مسلماً وأبا تمام أخذوا المعنى من جرير⁴. ولكن الجرجاني لا يرى في ذلك سرقة "لأنه ليس أكثر من رفع الرؤوس على القنا، وهذا معنى مشترك لا يسرق، فأما إبدال القنا بقنا الظهر فلم يعرض له مسلم ولا جرير"⁵ وكلام الجرجاني أقرب إلى الصواب من قول الأمدى، لأن هذا المعنى من المعاني العامة التي لا تحتاج إلى جهد ابتكار واختراع.

¹ مسلم بن الوليد: الديوان، ص 11. الجرجاني: الوساطة، ص 196.

² الجرجاني: الوساطة، ص 196.

³ أبو تمام: الديوان، ج 2، ص 83.

⁴ الأمدى: الموازنة، ج 1، ص 81.

⁵ الجرجاني: الوساطة، ص 197.

ويستخدم البحري هذا المعنى مفتخراً بقومه، فهم إذا دخلوا الحرب جعلوا رؤوس
أقرانهم رؤوساً للرماح، يقول:¹

قَوْمٌ إِذَا شَهِدُوا الْكَرْيَةَ صَيَّرُوا كُمَّ الرَّمَا حَ جَمَاجِمَ الْأَقْرَانِ

وشبيهه بقول البحري قول المتنبي في هذا المعنى:²

مُبْرِقِي خَيْلِهِمْ بِالْبَيْضِ مُتَّخِذِي هَامَ الْكُمَاةِ عَلَى أَرْمَاحِهِمْ عَذَابًا³

وقد تناول أبو فراس هذا المعنى في وصفه رأس القرمطي، الذي عاد به جيش سيف
الدولة بعد انتصاره على الخارجين، فقال مهنئاً سيف الدولة:⁴

وَأَبَ وَرَأْسُ الْقُرْمُطِيِّ أَمَامَهُ لَهُ جَسَدٌ مِنْ أَكْعَبِ الرُّمْحِ ضَامِرٌ

ولقد اتكأ بعض الشعراء العباسيين على التاريخ في وصفهم حال العدو، فاستحضروا
قصص الأقبام السابقة وما حلَّ بهم من عذاب، كقوم عادٍ وثمود. ومن ذلك قول أبي تمام في
مدح محمد بن يوسف:⁵

كَأَنَّهُمْ مَعَاشِرٌ أَهْلَكُوا مِنْ بَقَايَا قَوْمِ عَادٍ أَوْ ثَمُودٍ

وفي موضع آخر يصف أبو تمام حال بلاد الروم، وكأنها أهلكت بالصيحة، فيقول في
مدح خالد بن يزيد الشيباني:⁶

كَأَنَّ بِلَادَ الرُّومِ عُمَّتْ بِصَيْحَةٍ فَضَمَّتْ حَشَاهَا أَوْ رَغَى وَسَطَهَا السَّقْبُ

فاستخدام أبي تمام الصيحة أحالنا إلى تاريخ الأمم السابقة التي أهلكت بها، وهم قوم
ثمود، وأهل مدين، وأصحاب القرية، ويظهر ذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ

¹ البحري: الديوان، ص 2366.

² المتنبي: الديوان، ص 99. الجرجاني: الوساطة، ص 197.

³ العذب من كل شيء طرفه أو مقدمته. لسان العرب مادة (عَذَبَ).

⁴ أبو فراس: الديوان، ص 151.

⁵ أبو تمام: الديوان، ج1، ص 253.

⁶ نفسه، ج1، ص 107.

فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَائِمِينَ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ تَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِتَمُودَ¹، وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَائِمِينَ²، وقوله تعالى في وصف عذاب أهل القرية: ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ³. ومن هنا تظهر براعة أبي تمام في اختيار الألفاظ التي توحى بالمعاني الكثيرة، ففي استخدامه كلمة الصيحة أحالنا إلى ثلاثة أحداث تاريخية. وقد استخدم ابن المعتز هذا المعنى في وصف حال الأعداء الذين أصبحو كالزَّرْعِ الحصيد، فصاروا قصصاً تتناقلتها الأجيال عبر التاريخ مثل عادٍ وثمود، فقال:⁴

فَلَقَدْ أَصْبَحَ أَغْدَاؤُكَ كَالزَّرْعِ الحَصِيدِ
ثُمَّ قَدْ صَارُوا حَدِيثًا مِثْلَ عَادٍ وَتَمُودِ

ويرى أبو تمام أنَّ ممدوحه إسحاق بن إبراهيم قد جعل أعداءه أحاديث وسيراً لو كتبت لما بقي على وجه الأرض قرطاس ولا قلم، فقال:⁵

تَرَكْتَهُمْ سِيراً لَوْ أَنَّهُا كُتِبَتْ لَمْ تَبْقَ فِي الأَرْضِ قِرطَاسًا وَلَا قَلَمًا

فقد لجأ أبو تمام في هذا البيت إلى المبالغة بقوله: (لم تبق قرطاساً ولا قلماً)، لتعميق الصورة، وإظهار هول ما فعله الممدوح بالعدو، فهم أصبحوا عبرة تتناقلها الأجيال.

لقد دخل الشعراء العباسيون في أدق تفاصيل المعركة، فصوّروا جثث قتلى العدو، التي تغطّي أرض المعركة، ووصفوا انتشار الموت في صفوفه على يد ممدوحهم وجيوشهم. ويظهر ذلك في قول بشار في مدح مروان بن محمد:⁶

أَحَلَّتْ بِهِ أُمُّ المَنَايَا بِنَاتِهَا بِأَسْيَافِنَا إِنَّا رَدَى مِنْ نُحَارِبِهِ

¹ سورة هود، الآيتان (67-68) .

² سورة هود، الآية (94) .

³ سورة يس، الآية (29) .

⁴ ابن المعتز: الديوان، ص 474.

⁵ أبو تمام: الديوان، ج 2، ص 83 .

⁶ بشار بن برد: الديوان، ج 1، ص 334 .

اعتمد بشار على التجسيد فجعل للمنايا أمًا تنتثر بناتها على جيش العدو فتصيبهم، ولا يكون ذلك إلا بسيف الممدوح وقومه، كما يوضح بشار بقولة (بأسيفنا).

ويثبت مسلم بن الوليد شجاعة ممدوحه يزيد بن مزيد الشيباني من خلال كرمه، جامعاً بين شيمتي الشجاعة والكرم، فيقول:¹

يُقْرِي الْمَنِيَّةَ أَرْوَاحَ الْكُمَاةِ كَمَا يُقْرِي الضُّيُوفَ شُحُومَ الْكَوْمِ وَالْبُزْلَ

ويتكئ مسلم في هذا البيت على التشخيص، فقد جعل من المنية إنساناً يحتاج إلى الطعام، وطعامه أرواح الأبطال الشجعان، فالممدوح يقدم هذه الأرواح طعاماً للموت بعد أن يزهقها بحد سيفه. وهذا العمل يوازي إكرامه لضيوفه وإطعامهم لحم الإبل المكتنزة بالشحم.

ويفخر دعبل الخزاعي بقومه الذين يجمعون بين كرمهم وشجاعتهم، فالكرم يجري على أيديهم، ونفوس الأعداء تجري على سيوفهم، وهذا دليلٌ على كثرة ما يقتلون من الأعداء، لأن مهج الأعداء تجري على سيوفهم كما يجري النهر أو السيل، يقول:²

فَعَلَى أَيْمَانِنَا يَجْرِي النَّدَى وَعَلَى أَسْيَافِنَا تَجْرِي الْمَهَجُ

وممدوح أبي تمام مطلعٌ على الآجال، فهو يشارك في توزيعها على النفوس بسيفه، يقول في مدح محمد بن سعيد الثغري:³

مُطِِّلٌ عَلَى الْآجَالِ حَتَّى كَأَنَّهُ لِيَصْرِفَ الْمَنَايَا فِي النَّفُوسِ مُشَارِكُ

فهذا غلوّ يعمد أبو تمام من خلاله إلى إبراز شجاعة ممدوحه. فممدوحه يتصف بقوة خارقة يسلب فيها روح كل جبارٍ ممتنع⁴، والذي يخفف من حدة غلوّه استخدامه (كأنّ)، وهذا ما جعل غلوّه مقبولاً وقريباً من الحقيقة.

¹ مسلم بن الوليد: الديوان، ص11. الحصري: زهرة الآداب، ج 4، ص 181 .

² الخزاعي، دعبل: الديوان، ص 52 .

³ أبو تمام: الديوان، ج 1، ص 468 .

⁴ المرامحي، قابل نافع: صورة البطل في شعر أبي تمام، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 1435 هـ، ص 180.

والخيل تسير على جثث القتلى دون أن تصل حوافرها الأرض، وهذا دليل على كثرتها،
ويُتضح ذلك في قول المتنبي:¹

حَتَّى أَتَهَى الْفَرَسُ الْجَارِي وَمَا وَقَعَتْ فِي الْأَرْضِ مِنْ جِيْفِ الْقَتْلِ حَوَافِرُهُ

فهذه الجثث الكثيرة في أرض المعركة، سقطت بسيف الممدوح، الذي ترك أرض
المعركة تخوض في بحرٍ من الدّم، يقول المتنبي:²

فَخَاضَ بِالسَّيْفِ بَحْرَ الْمَوْتِ خَلْفَهُمْ وَكَانَ مِنْهُ إِلَى الْكَعْبَيْنِ زَاخِرُهُ

ويتهكم المتنبي حين يصف الأعداء بالثبات في أرض المعركة، ولكنه ثبات الأجساد دون
الأرواح، التي تنهزم مولية تاركة الأجساد خلفها جثثاً هامدة، يقول في مدح سيف الدولة:³

فَكَانَ أَثْبَتُ مَا فِيهِمْ جُسُومَهُمْ يَسْقُطْنَ حَوْلَكَ وَالْأَرْوَاحُ تَنْهَزِمُ

وفي موضعٍ آخر يتحدث المتنبي عن كثرة ما قتل سيف الدولة من الأعداء، فيقول:⁴

نَهَبَتْ مِنَ الْأَعْمَارِ مَا لَوْ حَوَيْتَهُ لَهَيَّتِ الدُّنْيَا بِأَنَّكَ خَالِدٌ

ويعلق ابن جنّي على هذا البيت بقوله: " لو لم يمدح أبو الطيب سيف الدولة إلباً بهذا البيت
وحده، لكان قد بقي فيه ما لا يُخلِّقه الزّمان، وهذا هو المدح الموجّه؛ لأنّه بنى البيت على ذكر
كثرة ما استباحه من أعمار أعدائه، ثم تلقّاه في آخر البيت بذكر سرور الدّنيا ببقائه، واتّصال
أيّامه"⁵. ويصف الثعالبي هذا البيت بالثّوب " له وجهان ما منهما إلباً حسن"⁶، وقد أورد ابن سنان
سنان هذا البيت للتّدايل على الحشو غير المؤثّر " لأن قوله (لهيئت الدنيا) حشو؛ لأنّ المعنى يتم

¹ المتنبي: الديوان، ص 43.

² نفسه، ص 43.

³ نفسه، ص 423 .

⁴ المتنبي: الديوان، ص 321 .

⁵ الثعالبي: أبو الطيب المتنبي ما له وما عليه، ص 205 .

⁶ نفسه، ص 104.

دونه، ولكن حاجته إلى ألفاظ يستقيم بها الوزن جاء بقوله (لهنئت الدنيا) وهذا زيادة في المدح، وهذا هو الحشو المحمود المختار¹.

ومن الملاحظ تركيز الشعراء في تعبيرهم عن كثرة القتلى من الأعداء على ضرب الرقاب، وقطع الرؤوس، وهذا لا يكون إلا باستخدام السيف، والمقاتل بالسيف يكون أقرب ما يكون إلى العدو، وهذا يحتاج إلى الشجاعة، وقوة القلب أكثر من استخدام الأسلحة الأخرى. وفي هذا المعنى يقول أبو تمام في مدح أبي دلف:²

أَغَشَيْتَ بَارِقَةَ الْأَعْمَادِ أَرْؤُسَهُمْ ضَرْبًا طَلْخَفًا³ يُنْسِي الْجَانِفَ الْجَنَفًا⁴
بَرْقٌ إِذَا بَرِقَ غَيْثٌ بَاتَ مُخْتَطِفًا لِلطَّرْفِ أَصْبَحَ لِلْأَعْنَاقِ مُخْتَطِفًا

ويستحضر أبو تمام صورة البرق وما به من قوة وسرعة وشدة؛ للتعبير عن شجاعة ممدوحه وسرعته في قتل أعدائه، فيصور لمعان سيف ممدوحه بلمعان البرق، ويعقد مقارنة بين أثر كل منهما، فالبرق يخطف الأبصار، وهذا من قوله تعالى: ﴿يَكَاذُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾⁵، وأما لمعان السيف فيختطف أعناق الأعداء، بضرب شديد ينسي الظالم ظلمه وميله عن الحق. وهذا شبيهة بقول عنتر في وصف سيفه الذي يداوي الصداع بقطع الرؤوس، يقول:⁶

وَسَيِّفِي كَانَ فِي الْهَيْجَا طَبِيبًا يُدَاوِي رَأْسَ مَنْ يَشْكُو الصَّدَاعَا

ويشبهه البحرني قطع رؤوس الأعداء بحصاد الزرع؛ لكثرة ما يقتل ممدوحه منهم، فيقول في مدح أبي سعيد محمد بن يوسف الثغري:⁷

¹ ابن سنان الخفاجي: المتنبّي: الديوان، ص 147.

² أبو تمام: الديوان، ص 424.

³ ضرباً طلخفاً: الشديد من الضرب والطعن. لسان العرب مادة (طَلَخَفَ).

⁴ الجنف: الميل والظلم. لسان العرب مادة (جَنَفَ).

⁵ سورة النور، الآية (43).

⁶ ابن شداد، عنتر: الديوان، ص 135.

⁷ البحرني: الديوان، ص 10.

مَا أَنْفَكَ سَيْفُكَ غَادِيًا أَوْ رَائِحًا فِي حَصْدِ هَامَاتٍ وَسَفْكَ دِمَاءِ

ويكرّر البحتري هذا المعنى في مدح المعتزّ بالله، فيقول:¹

بَطَعْنِ دِرَاكٍ² فِي النُّحُورِ تَحْطُّهُمُ نَشَاوِي³ وَضَرْبِ فِي جَمَاجِمِهِمْ هَبْرٍ⁴
فَلَسْتُ تَرَى إِلَّا رُؤُوسًا مُطَاحَةً يُجِيدُ المَوَالِي نَحْرَهَا أَوْ دَمًا يَجْرِي

وقول البحتري (يجيد الموالى نحرها) حشو؛ لأنه لو قال (رؤوساً مطاحةً أو دماً يجري) لكان المعنى تاماً، ولكنّ البيت احتاج إلى إتمام الوزن، فجاء البحتري بالحشو، فزاد في مدح جيش ممدوحه، فهم يجيدون قطع الرؤوس، وهذا من الحشو المحمود؛ لأنه جلب زيادة في المعنى.

ويتكئ البحتري على الطباق في حديثه عن كثرة القتلى من الأعداء بضرب رقابهم وإطاحة رؤوسهم، فيقول في مدح أبي مسلم الكجّي:⁵

إِنْ غَلَّتِ الأرواحُ أَرْخَصْتَ سَوْفَهَا هُنَالِكَ فِي سَوْقِ مِنَ المَوْتِ قَاتِمُ
بِضَرْبِ يَشِيدُ المَجْدَ فِي كُلِّ مَوْقِفٍ وَيُسْرِعُ فِي هَدْمِ الطُّلِي⁶ وَالجَمَاجِمِ

فاستخدم البحتري الطباق بين الفعلين (غلت وأرخصت)، وكأنّ الأرواح سلعةً تباع في سوق الموت، فلكثرة الأرواح التي تفارق الأجساد فإنها تصبح رخيصةً فيه، ويأتي الطباق بين (يشيد وهدم) فيوضح البحتري من خلاله أثر الضرب الذي يصدر من سيف ممدوحه، فهو يبني مجداً وعزاً للممدوح، ويهدم رقاب أعدائه وجماجمهم. فهما بيتان وصفها الأمدى بأنّها من الحسن الجيد لفظه ومعناه.⁷

¹ نفسه، ص 1006 .

² الدراك اتباع الشيء بعضه على بعض في الأشياء كلها، والمقصود بالطعن الدراك هو المتتابع . لسان العرب مادة (دراك).

³ نشاوى :جمع مفردة نشوان ونشوى، وهو السكران . لسان العرب مادة (نشو).

⁴ الهبر : قطع اللحم، والضرب الهبر الذي يلقي قطعة من اللحم . لسان العرب مادة (هبر) .

⁵ الأمدى: الموازنة، ج 3، ص 321 .

⁶ الطلي: جمع مفردة طلية وهي صفحة العنق . لسان العرب مادة (طلي) .

⁷ الأمدى: الموازنة، ج 3، ص 321 .

وفي موضع آخر يقول البحتري:¹

إِذَا افْتَرَقَتْ أَسْيَافُهُ فِي وَسْطِ جَحْفَلٍ تَفَرَّقَ عَنْهُ هَامُهُ وَسَوَاعِدُهُ

ويعلّق الأمدي على هذا البيت قائلاً: "وهذا غاية في الحسن والصحة، ولو كان أبو تمام القائل لهذا، لقال: (إذا اجتمعت أسيافه وسط جحفل) ليكون الاجتماع والتفرّق طباقاً، والبحتري لا يقصد هذا في كل الأحوال، وإنما قصده أن يُجيد اللفظ والسبك"². وإذا عدنا إلى البيتين السابقين نلاحظ استخدام البحتري للطباق مرتين، مع أنه كان بإمكانه الاستغناء عن أحدهما بقوله (حصد) بدلاً من (هدم)، فلماذا لم يفعل البحتري ذلك وجاء بالفعل (هدم) ليكون الطباق؟ والجواب عن هذا السؤال هو أن الطباق في هذا الموضع لا يؤثر على المعنى الذي أراده البحتري، فلذلك لا مانع من استخدامه لتأكيد المعنى، بينما استخدام (اجتمعت) بدلاً من (افترقت) يؤثر في المعنى الذي أراده، فاستخدام البحتري جمع القلة (أسياف) يدل على قلة عدد جيش ممدوحه، أمام جحفل من العدو، فهذا وصف يدل على شجاعة ممدوحه، و اجتماع القلة في وسط جيش كثير العدد لا فائدة منه؛ لأن ذلك يمكن جيش العدو من محاصرتهم، والإطباق عليهم، بينما تفرّقهم في وسط الجيش يُمزّقه ويفصل أجزاءه بعضها عن بعض، وهذا ما أراده البحتري، ولا أظن أن أبا تمام يغفل عن ذلك فيستخدم (اجتمعت) من أجل الطباق.

ومن الصور الجميلة التي رسمها الشعراء العباسيون لمفارقة الرؤوس الأبدان، قول ابن

المعترز يفتخر بقومه:³

قَوْمٌ إِذَا غَضِبُوا عَلَى أَعْدَائِهِمْ جَرُّوا الْحَدِيدَ أَزِجَّةً وَدُرُوعًا
حَتَّى تَفَارِقَ هَامُهُمْ أَجْسَامَهُمْ ضَرْبًا يُفَجِّرُ مِنْ دَمٍ يَنْبُوعًا
وَكَأَنَّ أَيْدِينَا تُنْفِرُ عَنْهُمْ طَيْرًا عَلَى الْأَبْدَانِ كُنَّ وَقُوعًا

¹ البحتري: الديوان، ص 586 .

² الأمدي: الموازنة، ص 317 .

³ ابن المعترز: الديوان، ص 269.

فهو يصور تطاير رؤوس الأعداء في المعركة بالطيور التي نُفرت فطارت ذعراً وخوفاً، فاستخدامه الفعل (تُتَفَّر) يدل على سرعة تطاير الرؤوس، فالطير عندما يُنْفَر يطير مسرعاً خوفاً وذُعراً، ومجموعة من الطير إذا نُفرت فإن هروبها يكون عشوائياً، وبتجاهاتٍ مختلفة، بسبب خوفها، وهذا أشبه ما يكون بتناثر رؤوس الأعداء في الجهات كلّها.

وقد أجاد المتنبي في تصويره ضرب السيوف هامات الأعداء، فجعل هاماتهم عيوناً، وسيف ممدوحه مصنوعاً من الرقاد، فالرقاد أول ما يظهر أثره في العيون، ولذلك جعل سيف ممدوحه يحلّ في هام أعدائه مثلما يحلّ النوم في العيون، يقول في مدح إبراهيم التتوحي:¹

كَأَنَّ الْهَامَ فِي الْهَيْجَا عَيْونٌ وَقَدْ طُبِعَتْ سُيُوفُكَ مِنْ رُقَادٍ
وَقَدْ صُغَّتَ الْأَسِنَّةَ مِنْ هُمومٍ فَمَا يَخْطُرْنَ إِلَّا فِي الْفُؤَادِ

فإذا كانت السيوف تُطيح رؤوس الأعداء، فإنّ الرّماح تستقرّ في قلوبهم، مثل الهموم التي تسكن القلب، وفي الحالتين يكون مقتل العدو.

ومن شديد غلو المتنبي في وصف أثر سيف ممدوحه على رأس عدوّه قوله في مدح محمد ابن زريق الطوسي:²

أَوْ كَانَ صَادَفَ رَأْسَ عَازِرَ سَيْفِهِ فِي يَوْمِ مَعْرَكَةٍ لَأَعْيَا عَيْسَى

فالمتنبي يؤكّد شدة ضربات سيف ممدوحه التي تأتي بالموت للعدو، فتطير رؤوسهم. وقد اتكأ على التاريخ لإثبات ذلك، فجاء بشخصية عازر الذي أحياه سيدنا عيسى عليه السلام³، فغالى كثيراً في هذا المعنى، ممّا أثار عليه انتقادات كثيرة من قدامى النقاد، فابن رشيق يرى أنّ المتنبي أكثر الناس غلواً في هذا البيت، وما جاء بعده من أبيات⁴. ويعلّق الثعالبي على بيت المتنبي قائلاً: "وكان المعاني أعينّه حتى التجأ إلى استصغار أمور الأنبياء"⁵. ويرى ابن الناظم أنّ

¹ المتنبي: الديوان، ص 86 .

² نفسه، ص 59.

³ القرطبي، محمد بن أحمد الأنصاري : الجامع في أحكام القرآن تفسير القرطبي، المجلد الأول، ص 91.

⁴ ابن رشيق : العمدة ، ص 63.

⁵ الثعالبي : بيتيمة الدهر، ج 1 ، ص 169. الثعالبي: أبو الطيب المتنبي وما له وما عليه، ص 89 .

المتنبي أكثر من غلوه "حتى تعلق عليه بما له عنه غنى"¹. ففي قول المتنبي تطاول على القدرة الإلهية، فعيسى عليه السلام يُحيي الموتى بإذن الله، والبحر انشق على يد موسى عليه السلام بقدرة الله. ولذلك لو ترك المتنبي هذه المعاني لكان ذلك أفضل، إلا إذا كان يقصد من وراء ذلك شخصيات الأنبياء البشرية دون قدرة الله ونحن لا نستطيع الحكم على ذلك، ففي تركها راحة له وصفاء لذهنه.

ولأبي فراس صورة بليغة في وصف ضرب السيوف هامات الملوك، إذ جعل سيف ممدوحه خطيباً بليغاً ضالماً في أمور اللغة، وجعل هامات الملوك منابراً، فقال في مدح سيف الدولة:²

جَلاها وَقَدْ ضاقَ الخِناقُ بِضَرْبِها
لَها مِن يَدِها في المُلوكِ نَظائِرُ
بِحيثُ الحُسامِ الهِنديّ خَاطِبُ
بليغٌ وَهاماتُ المُلوكِ مَنابِرُ

وقد عبر أسامة بن منقذ عن أهمية السيوف، ودورها في قطع رؤوس الأعداء بقوله مادحاً الملك الصالح:³

وَحَسْبُكَ إِن لَمْ يَبْقَ في القَوْمِ فارسٌ
مِنَ الجِيشِ إِلا وَهُوَ لِلرُمحِ حَاطِمٌ
وَعادوا إِلى السُّيوفِ فَقَطَّعتْ
رُؤوسٌ وَحَزَّتْ لِلْفِرانِجِ غَلاصِمٌ⁴

فالفرسان يَنخَلونَ عن الرماح ويحطّمونها ويعودون إلى حَمَلِ السيوف لحصد رقاب الأعداء.

ومن الإشارات التي استخدمها الشعراء للإشارة إلى كثرة قتلى الأعداء، مصاحبة الطير والوحوش جيش الممدوح، لتفتتها بالنصر الذي سيحققه، مخلفاً الكثير من جنث القتلى في أرض المعركة التي ستصبح طعاماً لها.¹

¹ ابن الناظم: المصباح في المعاني، ص 139 .

² أبو فراس: الديوان، ص 145.

³ أسامة بن منقذ: الديوان، ص 272.

⁴ الغلاصم: جمع مفردة غلصم وهو رأس الحلقوم، أو هو اللحم الذي بين الرأس والعنق، أو متصل الحلقوم بالحلق. لسان العرب مادة (غلصم).

وقد جاء أبو نواس بهذا المعنى في مدح الرشيد، فقال:²

تَتَأبَى الطَّيْرُ غَدَوَتَهُ ثَقَّةً بِالشَّعْبِ مِنْ جَزْرِهِ

فالطيور تنتظر ذهاب ممدوحه إلى الحرب، لتقتها بأنها ستشبع من جثث قتلى العدو التي سيحصدها في المعركة، فهي تعرف من شجاعة الممدوح الشيء الكثير، وهذا ما يعزز ثقته به.

ويورد عبد القاهر الجرجاني في كتابه دلائل الإعجاز عن المزرباني قوله: "حدثني عمرو الوراق قال: رأيت أبا نواس ينشد قصيدته التي أولها (أيها المنتاب عن عقره) فحسدته، فلما بلغ إلى قوله: (تتأبى الطير غدوته) قلت له: ما تركت للنابغة شيئاً حيث يقول: (إذا ما غدا بالجيش)، فقال: اسكت فلئن كان سبق فما أسأت الإتياع"³. واتخذ الجرجاني من قول أبي نواس (فما أسأت الإتياع) دليلاً على أن المعنى يُنقل من صورة إلى أخرى، ويرى أن أبا نواس نقل الصورة التي جاء بها النابغة إلى صورة أخرى، لأنه جاء بمعنيين: أحدهما أصل وهو علم الطير أن الممدوح إذا غزا عدواً كان له الظفر، والآخر فرع، وهو طمع الطير في أن تتسع عليها المطاعم من لحوم القتلى⁴، وهذا زيادة على ما جاء به النابغة؛ لأن النابغة اكتفى بذكر علم الطير بأن الممدوح سينتصر.

وقد استخدم مسلم بن الوليد هذا المعنى، فقال:⁵

قَدْ عَوَدَ الطَّيْرَ عَادَاتٍ وَتَقَنَّ بِهَا فَهَنْ يَتَّبَعُهُ فِي كُلِّ مُرْتَحَلٍ

وشبيهه بقول مسلم قول أبي تمام يمدح الأفسين في حرب بابك:⁶

¹ وهذا المعنى قديم ذكره المتقدمون من الشعراء، فأول من سبق إليه الأفوه الأودي . ينظر الأفوه الأودي: الديوان، تحقيق محمد التونسي، ط1، بيروت، دار صادر، 1998. ص 77. وجاء بعده النابغة فتبعه في هذا المعنى . ينظر النابغة الذبياني:

الديوان، تحقيق كرم البستاني، بيروت، دار صادر، 1963، ص 10 .

² أبو نواس: الديوان، ج 1، ص 69. الأمدي: الموازنة، ج 1، ص 67 .

³ الجرجاني، عبد القاهر: دلائل الإعجاز، ص 502 .

⁴ الجرجاني، عبد القاهر: دلائل الإعجاز، ص 502 .

⁵ مسلم بن الوليد: الديوان، ج 2، ص 12 .

⁶ أبو تمام: الديوان، ج 2، ص 40 .

وَقَدْ ظَلَّتْ عُقْبَانُ أَعْلَامِهِ ضُحَى بَعُقْبَانَ طَيْرٍ فِي الدِّمَاءِ نَوَاهِلِ
أَقَامَتْ مَعَ الرِّيَّاتِ حَتَّى كَانَهَا مِنْ الْجَيْشِ إِلَّا أَنَّهُا لَمْ تُقَاتِلِ

فقد جعل أبو تمام الطيور في السماء تظللهم، وتطير فوق رؤوسهم طمعاً في جثث قتلى العدو التي سياتركونها على الأرض، لأنهم منشغلون عنها بالهرب. ويرى الأمدي أنّ أبا تمام "أتى في المعنى بزيادة وجاء به في بيتين، وأخطأ أيضاً في المعنى بقوله (في الدماء نواهل)، والنهل هو الشرب الأول... والعقبان لا تشرب الدماء وإنما تأكل اللحم"¹، وقد ذكر الأمدي هذه هذه الأبيات في سرقات أبي تمام².

وما عدّه الأمدي خطأً في قول أبي تمام (في الدماء نواهل) يراه الجرجاني أحسن من الزيادة التي جاء بها في قوله (إلا أنها لم تقاتل)، وإقامة الطير مقام الرايات، يتمم حسن قوله (أنها لم تقاتل)³. فالطيور الجارحة تجذبها رائحة الدم، وتبدأ أكل فريستها من مكان الجرح، ليسهل عليها الوصول إلى اللحم، فتبدو كأنها تشرب الدماء؛ لوجود أثر الدم على فمها، ولعل هذا ما جعل أبا تمام يستخدم النهل في وصف أكل الطيور. ونرى المتنبي يستخدم الاستسقاء للتعبير عن طلب الطيور الطعام من الممدوح، فيقول في مدح سيف الدولة⁴:

سَحَابٌ مِنَ الْعُقْبَانِ يَزْحَفُ تَحْتَهَا سَحَابٌ إِذَا اسْتَسْقَتْ سَقَّتْهَا صَوَارِمُهُ

ومن أجود ما افتخر به محدث كما يرى ابن الناظم⁵ قول أبي تمام⁶:

لَئِنْ ذَمَّتِ الْأَعْدَاءُ سُوءَ صَبَاحِهَا فَلَيْسَ يُؤَدِّي شُكْرَهَا الذُّنْبُ وَالنَّسْرُ

وهذا البيت كما يقول الأمدي⁷ مأخوذ من بيت مسلم بن الوليد⁸:

¹ الأمدي: الموازنة، ج 1، ص 66.

² نفسه، ج 3، ص 33.

³ الجرجاني، عبد العزيز: الوساطة بين المتنبي وخصومه، ص 232

⁴ المتنبي: الديوان، ص 259 .

⁵ ابن الناظم: ديوان المعاني، ص 83 .

⁶ الأمدي: الموازنة، ج 1، ص 133. ابن الناظم: ديوان المعاني، ص 83 .

⁷ الأمدي: الموازنة، ج 1، ص 133.

⁸ مسلم بن الوليد: الديوان، ص 233.

لَوْ حَاكَمْتَكِ فَطَالَبْتُكَ بِذَحْلِهَا¹ شَهَدْتُ عَلَيْكَ ثَعَالِبٌ وَنَسُورٌ

ولكنَّ الأَمَدِي يفرق بين معنى أبي تمام ومعنى مسلم بن الوليد "لأنَّ مسلماً قال لممدوحه (لو حاكمتك) يريد الفرقَ أو العُصَبَ التي لقيتكَ في مطالبتك بمن قتلت منها، لشهدت عليك الثعالب والنسور، وأبو تمام قال على سبيل الاستهزاء: لئن ذمَّت الأعداء سوء صباحها، فليس يؤدِّي الذئب والنسر شكرها، لكثرة ما أكلها منها، وهذا المعنى غير ذاك"².

وللبحتري في هذا المعنى قولٌ يمدح به أحمد بن عبد العزيز، يقول:³

يَعْتَدِي جَيْشُهُ فَتَغْدُو الْمَائِيَا بَيْنَ رَايَاتِهِ وَبَيْنَ الْبُنُودِ
ضَامِنًا رِزْقَ كُلِّ طَيْرٍ كَمَا ضَمَّ نَ أَرْزَاقَ كُلِّ ضَابِعٍ وَسَيْدِ⁴

فخروج الممدوح مع جيشه إلى الحرب ضمن الطعام لكل الطيور، كما ضمنها للسباع. ويذهب المتنبّي إلى أبعد مما جاء به البحتري من ضمان رزق الطير، فجعل سلاح ممدوحه ينوب عن مخالِب الطيور؛ لأنَّه يغنيها عن الصيد بما يوفر لها من الطعام من جنث القتلى، يقول في مدح سيف الدولة:⁵

يَقْتَدِي أَتَمُّ الطَّيْرِ عُمْرًا سِلَاحُهُ نُسُورُ الْفَلَا أَحْدَاثُهَا وَالْقَشَاعِمُ
وَمَا ضَرَّهَا خَلْقٌ بَغَيْرِ مَخَالِبٍ وَقَدْ خُلِقَتْ أَسْيَافُهُ وَالْقَوَائِمُ

فالنسور كبارها وصغارها تفتدي سيف الدولة بأرواحها لما يوفره لها من أشلاء، فمخالِبها لم تعد لها حاجة، فلو خلقت بدونها ما ضرَّها ذلك؛ لأنَّ سلاح سيف الدولة يقدِّم لها ما

¹ الذحل: النَّار. لسان العرب مادة (ذحل) .

² الأَمَدِي: الموازنة، ج 1، ص 133.

³ البحتري: الديوان، ص 810 .

⁴ السيد: الذئب وفي لغة هذيل الأسد . لسان العرب مادة (سَيِّد) .

⁵ المتنبّي: الديوان، ص 385 .

تريد من القوت والمؤونه¹. وتبقى الطيور في حديث دائم عن الممدوح لما يقدمه لها من الطعام، يقول المتنبي في مدح محمد بن سيار التميمي:²

وَمَا سَكَنِي سِوَى قَتْلِ الْأَعَادِي فَهَلْ مِنْ زُورَةٍ تَشْفِي الْقُلُوبَا
تَظَلُّ الطَّيْرُ مِنْهَا فِي حَدِيثٍ تَرُدُّ بِهِ الصَّرَاصِرَ³ وَالنَّعِيْبَا
وَقَدْ لَبَسَتْ دِمَاؤُهُمْ عَلَيْهِمْ حِدَادًا لَمْ تُشَقَّ لَهُ جُيُوبَا

ويجعل المتنبي دماء الأعداء التي غطتهم، فتحول لونها إلى الأسود لباس حدادٍ يلبسونه حزناً على قتلهم، وقد استدعت الصورة ما يناسبها، وهو شق الجيوب⁴.

ويغالي المتنبي في وصف الطير، وهي تأكل جنث قتلى العدو، وتريد أكل لحوم الأحياء منهم، فيقول:⁵

يَطْمَعُ الطَّيْرُ فِيهِمْ طَوْلَ أَكْلِهِمْ حَتَّى تَكَادُ عَلَى أَحْيَائِهِمْ تَقَعُ

والذي يخفف من حدة هذا الغلو ويقرب البيت إلى الصحة استخدامه الفعل كاد⁶.

ويجمع المتنبي بين الشجاعة والكرم، فيجعل قتل الأعداء اتقاءً لإخلاف ما ترجوه الذئاب، يقول في مدح بدر بن عمار:⁷

مَا بِهِ قَتْلُ أَعَادِيهِ وَلَكِنْ يَتَّقِي إِخْلَافَ مَا تَرْجُو الذَّنَابُ

وفي موضع آخر يجعل المتنبي كرم ممدوحه بدر بن عمار سبباً في قتل الأعداء، لأنَّ الطير التي تأكل جنثهم من بعض عياله، فهو مسؤولٌ عنها، فيقول:⁸

¹ ضيف، شوقي: البطولة في الشعر العربي، ص 73.

² المتنبي: الديوان، ص 193.

³ الصراصير: صوت الطائر وخص بعضهم به البازي والصقر. لسان العرب مادة (صرر).

⁴ عبدالله، مصطفى عبد الهادي: ظاهرة العدول في شعر المتنبي، ط1، المجموعة العربية للتدريب والنشر، 2010، ص 104.

⁵ المتنبي: الديوان، ص 312. ابن سنان الخفاجي: سر الفصاحة، ص 272.

⁶ ابن سنان الخفاجي: سر الفصاحة، ص 272.

⁷ المتنبي: الديوان، ص 143.

⁸ نفسه، ص 155.

سَفَكَ الدِّمَاءَ بِجُودِهِ لَا بِأَسِيهِ كَرَمًا لِأَنَّ الطَّيْرَ بَعْضُ عِيَالِهِ

ويذكر أبو فراس كثرة ما قتل من العدو، فقد أشبع كل طائر وذئب، فيقول:¹

فَأَشْبَعَ مِنْ أَبْطَالِهِ كُلَّ طَيْرٍ وَذَنْبِ غَدَا يَطْوِي البَسِيطَةَ أَغْفَرَا

ويكرر أبو فراس هذا المعنى في حديثه عن واقعة أسره فيقول:²

فَأَظْمَأَ حَتَّى تَرْتَوِي البَيْضُ وَالْقَنَا وَأَسْعَبُ حَتَّى يَشْبَعَ الذَّنْبُ وَالنَّسْرُ

فهو يؤثر غيره على نفسه، فيضحّي بها من أجل الآخرين، وهذه قمة الشجاعة. ويُقسّم

أسامة بن منقذ نتيجة المعركة بينهم وبين الطير، وكأنّه يوزع الغنائم، فيجعل النصر لهم، وجنث

الأعداء طعاماً للطيور الجارحة التي تلازم جيشهم لنتقتها بشجاعتهم، يقول:³

نَسِيرُ إِلَى الأَعْدَاءِ وَالطَّيْرُ فَوْقَنَا لَهَا القُوَّةُ مِنْ أَعْدَانِنَا وَنَا النُّصْرُ

- أدوات الحرب

اهتم الشعراء في حديثهم عن الشجاعة والفروسية بوصف أدوات الحرب، من سيوفٍ

ورماحٍ وسهامٍ ونبالٍ وقسيّ، فهي عدة الفارس الشجاع في الحرب، ليصلوا من خلال وصفها إلى

ذكر الشجاعة عند الفرسان؛ لأنّ هذه الأدوات لا فائدة منها دونهم، وهذا ما أوضحه المتنبي في

مدح سيف الدولة، يقول:⁴

إِنَّ السِّلَاحَ جَمِيعُ النَّاسِ تَحْمِلُهُ وَلا يَسُ كُلُّ نَوَاتِ المِخْلَبِ السَّبْعُ

فقد يحمل السلاح إنسان جبان، ولا فائدة من حمله له، وإن كان السلاح حاداً، وهذا ما

يؤكدّه المتنبي في قوله:⁵

تَلَقَى الحُسَامَ عَلَى جَرَاءَةِ حَدِّهِ مِثْلَ الجَبَانِ بِكَفِّ كُلِّ جَبَانٍ

¹ أبو فراس: الديوان، ص 119.

² نفسه، ص 128.

³ أسامة بن منقذ: الديوان ؛ ص 253.

⁴ المتنبي: الديوان، ص 315.

⁵ نفسه، ص 418.

ويجعل البحري السيف زينة إذا لم يكن بيد فارس شجاع، فيقول في مدح الفتح بن

خاقان:¹

وَمَا السَّيْفُ إِلَّا بَزُّ غَادٍ لَزِينَةٍ إِذَا لَمْ يَكُنْ أَمْضَى مِنَ السَّيْفِ حَامِلُهُ

ويؤكد البحري هذا المعنى في موضع آخر في مدح إسحاق بن إسماعيل، يقول:²

وَرِثْتُ سُيُوفَهُمْ وَمَضَوْا كِرَامًا وَمَا نَفَعُ السَّيُوفَ بِلَا رِجَالٍ

وبهذا تكون شدة الفتك بالأعداء هي من أثر الفارس الذي يحمله ويضرب به الأعداء،

وقد أشار البحري إلى ذلك في مدح أبي عيسى العلاء بن صاعد، يقول:³

فَلَا تَعْلِينَ بِالسَّيْفِ كُلِّ غَلَاثِهِ لِيَمْضَى فَإِنَّ الْقَلْبَ لَا السَّيْفَ يَقْطَعُ

ويري المنتبي أن الأثر للفارس لا للسيف، فلا فرق بين السيوف وأجفانها لولا مضاء

سيف الدولة، يقول:⁴

لَوْ لَا سَمِيَّ سَيْوْفِهِ وَمَضَاؤُهُ لَمَّا سُلِّنَ لَكُنَّ كَالْأَجْفَانِ

وهذا من حسن التصرف في مدح سيف الدولة بجنس السيوف كما يقول الثعالبي⁵،

ويؤكد المنتبي أن الفضل لليد التي تحمل السلاح، فيقول:⁶

إِذَا الْهِنْدُ سَوَتْ بَيْنَ سَيْفِي كَرِيهَةٍ فَسَيْفُكَ فِي كَفِّ تَزِيلِ التَّسَاوِيَا

فالسيف متساوية في صفاتها عند الصانع، ولكن التساوي يزول في الميدان، فيكون

السيف على قدر شجاعة حامله.

¹ البحري: الديوان، ص 1612.

² نفسه، ص 1848.

³ نفسه، ص 1270. عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص 449. وقد وردت الكف بدل القلب .

⁴ المنتبي: الديوان، ص 414.

⁵ الثعالبي: أبو الطيب المنتبي ما له وما عليه، ص 105.

⁶ المنتبي: الديوان، ص 445. عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص 496 .

وما يؤكد أنّ الأهمية للفارس الذي يحمل السلاح، ما أورده ابن قتيبة صاحب عيون الأخبار في قوله: "ضرب الزبير بن العوام يوم الخندق عثمان بن عبد الله بن المغيرة، فقطعه إلى القربوس¹، فقالوا: ما أجود سيفك ! الفغضب، يريد أن العمل ليده لا لسيفه"².

وإعداد السلاح واقتناؤه أمرٌ حثَّ عليه الله سبحانه وتعالى من أجل إرهاب العدو، فقال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾³.

ولهذا نجد ابن الرومي في مدح الأتراك يستفيد من الآية السابقة، فيبين أنهم عملوا بأمر الله، فيعدون العدة الكافية التي تكفيهم لقتال عدوهم، يقول:⁴

لَهُمْ عُدَّةٌ تَكْفِيهِمْ كُلَّ عُدَّةٍ بَنَاتُ الْمَنَائِيَا وَالْحَنِيِّ الْمُدَثَّرُ
هِيَ الْقُوَّةُ الْحَقُّ الْمُسَمَّاءُ قُوَّةً بِتَسْمِيَةِ الْقُرْآنِ فِيمَا يُفَسَّرُ

ويجعل بشار خزائن الأبطال الشجعان مملوءة بالسيوف، والرماح، والدروع، على عكس الإنسان البخيل الذي يخزن المال، فيقول:⁵

إِذَا خَزَنَ الْمَالَ الْبَخِيلُ فَإِنَّمَا خَزَائِنُهُ خَطِيئَةٌ وَدُرُوعُ
وَبَيْضٌ بِهَا مِسْكٌ مَكَانَ بَنَائِهِ وَلَكِنَّهَا رِيحُ الدِّمَاءِ تَضُوعُ

وقد أخذ بشار قوله (ريح الدماء تضيع) من قول الرسول صلى الله عليه وسلم: "والذي نفسي بيده لا يكلم أحد في سبيل الله إلّا جاء يوم القيامة واللون لون الدّم والريّح ريح المسك"⁶.

وشبيهه بقول بشار قول المتنبي في رثاء أبي شجاع، يقول:⁷

كُنَّا نَظُنُّ دِيَارَهُ مَمْلُوءَةً ذَهَبًا فَمَاتَ وَكُلُّ دَارٍ بَلْقَعُ¹

¹ القربوس: حنو السرج، أي قسمه المقوس المرتفع من أمام المقعد ومن مؤخره . لسان العرب مادة (قربس).

² ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم : عيون الأخبار، ج1، ص 129.

³ سورة الأنفال، الآية (60).

⁴ ابن الرومي: الديوان ، ج2، ص 58.

⁵ بشار بن برد: الديوان، ج 4، ص 105 .

⁶ العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج7، ص64.

⁷ المتنبي: الديوان، ص 491، 492.

وَإِذَا الْمَكَارِمُ وَالصَّوَارِمُ وَالْقَنَا وَبَنَاتُ أَعْوَجَ كُلُّ شَيْءٍ يُجْمَعُ

والأسلحة أنواعٌ عدة، يعرفها الفارس الشجاع، ويعرف أهمية كل منها في الحرب، وما يؤكد هذا القول أنّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه سأل عمرو بن معد يكرب عن أنواع الأسلحة، فأجابته: الرمح أخوك وربما خانك، والنبل منايا تخطئ وتصيب، والترس هو الدائر وعليه تدور الدوائر، والسيف هو العدة عند الشدائد².

السيف

ومن الواضح أنّ السيف هو أفضل الأسلحة، فهو سلاح الشجاع يقا تل به الأعداء من مسافة لا تتجاوز طول السيف، ولذلك نجد الشعراء العباسيين في حديثهم عن الشجاعة ذكروا السلاح، وخصّوا السيف بصفات؛ لأهميته ودوره في المعركة، ولأنّه السلاح الذي يحتاج إلى الشجاعة واليسالة والجرأة ورباطة الجأش وصرامة القلب. ولذلك سنبدأ في حديثنا عن الأسلحة بتناول الأشعار التي ذكرت السيف.

فالسيف فيه القوة والصلابة والإرادة، وهو عزيمة ترفض الهزيمة، وهو مفتاح النصر كما يقول المتنبي في مدح سيف الدولة:³

حَقَّرَتِ الرَّؤْيِيَّاتِ حَتَّى طَرَحَتْهَا وَحَتَّى كَأَنَّ السَّيْفَ لِلرَّمْحِ شَاتِمٌ
وَمَنْ طَلَبَ الْفَتْحَ الْجَلِيلَ فَاتِمَا مَفَاتِحُهُ الْبَيْضُ الْخِفَافُ الصَّوَارِمُ

فتحقيق النصر يحتاج شجاعة وإقدام، ولا يكون ذلك إلا باستخدام السيف، فالممدوح يترك الرمح، ويحمل السيف، فولد ذلك شعور الاستعلاء على الرماح عند السيوف التي تنال من الرماح بالتصغير، فالسيوف هي مفاتيح أقال النصر⁴.

¹ المكان البلقع: الخالي، والبلقع الأرض الكفر لا شيء فيها . لسان العرب مادة (بلقع).

² الأبشيهي: المستطرف في كل فن مستطرف، ج 1، ص 475 .

³ المتنبي: الديوان، ص 388.

⁴ ضيف، شوقي: البطولة في الشعر العربي، ص 77.

ولقد اهتمّ العرب بالسيف أيّما اهتمام، وتناوله الشعراء بالوصف، فوصفوه بالحركة الدائمة والحدّة، وله لمعان مثل البرق أو يتوقد مثل النار، أو له لمعان الذهب. فأبو نواس يصف حركة السيف التي توقظ الموت، فيقول في مدح ابن الرشيد:¹

وَإِنَّ لِلَّهِ سَيْفًا فَوْقَ هَامِهِمْ بِكَفِّ أَبْلَجٍ² لَا ضِرْعٍ³ وَلَا وَاوٍ⁴
يَسْتَيْقِظُ الْمَوْتُ مِنْهُ عِنْدَ هَزَّتِهِ فَأَلْمَوْتُ مِنْ نَائِمٍ فِيهِ وَيَقْظَانِ

ونسب أبو نواس السيف لله عزّ وجلّ، ليؤكد أنّ ممدوحه مؤيد من الله سبحانه وتعالى، وذكر حامل السيف وهو الممدوح؛ لأنّ العبرة باليد التي تحمله.

ويصف أبو تمام بياض السيف، فهو كلون الملح لشدة بياضه وشفاء حديده وشدة لمعانه، وهو حادّ قاطع، فيقول:⁵

وَكَيْفَ يَنَامُ اللَّيْلَ مَنْ جُلَّ هَمُّهُ حُسَامٌ كَلَوْنَ الْمِلْحِ أْبْيَضُ صَارِمٌ

ويعقد أبو تمام مقارنةً بين السيف وكتب المنجّمين، فيصف فتح عمورية، ويمدح المعتصم:⁶

السَّيْفُ أَصْدَقُ إِنْبَاءٍ مِنَ الْكُتُبِ فِي حَدِّهِ الْحَدُّ بَيْنَ الْجِدِّ وَاللَّعِبِ⁷
بِيضُ الصَّقَائِحِ لَا سَوْدُ الصَّحَائِفِ فِي مُتَوْنِهِنَّ جَلَاءُ الشُّكِّ وَالرَّيْبِ
وَالْعِلْمُ فِي شُهْبِ الْأَرْمَاحِ لَامِعَةً بَيْنَ الْخَمِيسَيْنِ لَا فِي السَّبْعَةِ الشُّهْبِ

وقد جاءت هذه الأبيات ردّاً على المنجّمين، الذين حكموا بأنّ المعتصم لا يفتح عمورية، وقد بعثت له الروم برسائل تشير إلى أنّ كتب المنجّمين تقول أنّ مدينتهم لا تُفتح إلا في وقت

¹ أبو نواس: الديوان، ص 66.

² الأبلج: الأبيض الحسن الواسع الوجه . لسان العرب مادة (بَلَج).

³ الضرع: الصغير والضعيف من كل شيء . لسان العرب مادة (ض ر ع)

⁴ الوائي: ضعيف البدن . لسان العرب مادة (وَيْ).

⁵ ابن أبي عون: التشبيهات، ص 141.

⁶ أبو تمام: الديوان، ج 1، ص 32،33 .

⁷ يرى الأمدي أنّ هذا البيت مأخوذ من قول الكميت الأكبر، وهو الكميت بن ثعلبة: (لا تُكثِّروا فيها الضَّجَاجَ فَإِنَّهُ مَحَا السَّيْفُ مَا قَالَ ابْنُ دَارَةَ أَجْمَعًا) . ينظر الأمدي: الموازنة، ج1، ص 59 .

التين والعنب¹. وقد حكم الروم أن المعتصم لا يرجع من وجهته². ولكنه فَتَحَ عَمُورِيَّةً، فكذَّبَ منجميهم وعلمهم القائم على النجوم.

وقصيدة أبي تمام في فتح عمورية تميّزت بالمطلع الفخم والجزل، وإحكام السبك، وجودة التعبير، وهذا ما عدّه ابن السراج من حسن الابتداء³. وهذه الأبيات تظهر انعكاس الثقافة الفلسفية الفلسفية عند أبي تمام في نصّه الشعريّ، فهو يلجأ أحياناً إلى تأييد أفكاره بالحجج والبراهين المنطقية والعقلية، فاتّخذ أبو تمام من الموازنة سبيلاً لحججه المنطقية، فوازن بين السيّف والكتب من حيث صدق النّبأ وكذبه، وبيض الصّقائح، وسود الصحائف، والعلم والشك والريب، ويرسم أبو تمام لفكرته السياق المنطقي القائم على المناظرات والمقابلات، التي يريد منها الوصول إلى البرهان الساطع والمنطق القاطع⁴. فأبياته السابقة تؤكد بعضها بعضاً، كل بيت يحمل معنى البيت الآخر ولكن بصورة مختلفة. فنثائية أبي تمام في هذه القصيدة تقوم على حلّين هما: الحلّ الإسلامي الذي يعتمد القوّة والصدق والجد، وحلّ غير إسلامي قائم على الكذب واللّهو واللعب، ويعتمد على النجوم، وقد اختار أبو تمام الحل القائم على حدّ السيّف⁵.

ويرى شوقي ضيف أنّ أبا تمام يعلن في مطلع القصيدة أنّ القوّة فوق العقل، مبرراً ذلك أنّ العقل لا يأخذ حظّه من الحياة والازدهار دون قوّة ترعاه⁶، ويؤيّد في ذلك صالح إبراهيم نجم نجم الذي عقد موازنة بين فلسفة أبي تمام والمنتبي، فيرى أنّ أبا تمام قد جمع بين القوّة والرأي،

¹ الأمدي: الموازنة، ج 1، ص 59 .

² ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج 2، ص 23 .

³ ابن السراج: جواهر الأدب، ص 377 .

⁴ صدام، أزهار فنجان وحنان بندر علي: أثر الثقافة الفلسفية في شعر أبي تمام، مجلة أبحاث البصرة، المجلد 36، العدد4، 2011، ص5، 27

⁵ يونس، أحمد قتيبة: قنيّة قصيدة المدح عند أبي تمام (فتح عمورية نموذجاً)، مجلة دراسات موصلية، العدد16، 2007، ص 100.

⁶ ضيف، شوقي: البطولة في الشعر العربي، ص 67.

فقدّم القوة على الرأي، وجمع المنتبّي بينهما في قوله (الرأي قبل شجاعة الشجعان) فقدّم الرأي على القوة¹.

اعتمد رأي شوقي ضيف وصالح نجم على أخذ المعنى بحرفيته، فالكتب في رأيهم تمثل العقل والعلم. ولكنّ عبد الكريم الباقي يرى أنّ السيف في بيت أبي تمام رمز القوة والحريّة، والكتب رمز علم التنجيم²، وهذا التفسير ينفي ما قاله شوقي ضيف ونجم، فرأي عبد الكريم الباقي مقنع أكثر من رأي شوقي ونجم، يؤكد ذلك أنّ أبا تمام يوضح أنّ العلم المقصود هو علم التنجيم بقوله (لا بالسبعة الشهب).

ويصف البحترى السيوف، فيجعل لونها قبل المعركة مثل بياض الفضة، ومن شدة ضرب الأعداء يصبح لونها أصفر يميل إلى الحمرة، وقد اكتسبت هذا اللون من دماء الأعداء، فيقول مفتخراً³:

غَدَتْ بِيضُنَا مِثْلُ الْجَيْنِ ابْيَاضُهَا وَرَاحَتْ مِنْ التُّضْرَابِ كَالذَّهَبِ التَّبَرِ

ومنّ أحسن ما وُصِفَ به السِّيفُ دون تشبيهه - كما يرى ابن أبي عون⁴ - ما قاله البحترى

البحترى في مدح محمد بن علي بن عيسى، يقول⁵:

يَتَنَاوَلُ الرُّوحَ البَعِيدَ مَنَالَهُ عَفْوًا وَيَفْتَحُ فِي الفَضَاءِ المُقْفَلِ
مَاضٍ وَإِنْ لَمْ تَمْضِهِ يَدُ فَارِسٍ بَطْلٍ وَمَصْقُولٍ وَإِنْ لَمْ يُصْقَلِ
يَعْشَى الوَغَى فَالتُّرْسُ لَيْسَ بِجَنَّةٍ مِنْ حَدِّهِ وَالدَّرْعُ لَيْسَ بِمَعْقَلِ
مُصْنَعٍ إِلَى حُكْمِ الرَّدَى فَإِذَا مَضَى لَمْ يَلْتَفِتْ وَإِذَا قَضَى لَمْ يَعْدِلِ

¹ النجم، صالح إبراهيم: جدلية الهدم والبناء في شعر أبي تمام، مجلة جامعة تشرين، 2007، ص 81 .

² الباقي، عبد الكريم: دراسات فنية في الأدب العربي، ط1 بيروت، مكتبة لبنان، 1996، ص 71 .

³ البحترى: الديوان، ص 1083 .

⁴ ابن أبي عون: التشبيهات، ص 143 .

⁵ البحترى: الديوان، ص 1751 .

فالسيف الذي يصفه البحتري ماضٍ من غير صقل، ومضاؤه غير عادي؛ لأنَّ الدرع لا يحمي جسد لابسه من ضرباته. وقد علقَّ الأمدي على هذه الأبيات قائلاً: "ولكنَّ الذي وصف السيف وأبرَّ فيه على كل محسن ممن تقدّم وتأخر البحتري"¹. ج

والسيف يُنزل المنايا في الأعداء، وإنَّ احتموا بالجبال العالية، فيوقع بهم الموت، ويتحول لونه إلى الأحمر والأسود، من الدماء القديمة التي تجفُّ قبل أن تُمسحُ عنه؛ لأنَّ حامله مشغولٌ عن تنظيفه بقتل الأعداء، يقول البحتري:²

مُتَوَقِّدٌ يَبْرِي بِأَوَّلِ ضَرْبَةٍ مَا أَدْرَكَتْ وَوَأَنَّهَا مِنْ يَذْبُلِ
وَإِذَا أَصَابَ فَكُلُّ شَيْءٍ مَقْتَلٌ وَإِذَا أُصِيبَ فَمَا لَهُ مِنْ مَقْتَلِ
وَكَأَنَّما سُودُ النَّمَالِ³ وَحُمْرُهَا دَبَّتْ بِأَيْدِي فِي قَرَاهُ وَأَرْجُلِ

والسيوف لها لمعان يُدخل الرعب في قلوب الأعداء، ووقعها يوقع بهم الموت، وشدة لمعانها كشعلة النار المتقدة في يد الممدوحه، يقول البحتري:⁴

وَسُيُوفًا إِيْمَاضُهَا أَوْجَالٌ لِلْأَعْيَادِي وَوَقَعُهَا آجَالٌ
مُرْهَفَاتٍ لَهَا إِذَا أَظْلَمَ النَّقْعُ عَلَيْهَا تَوَقُّدٌ وَاشْتِعَالٌ

ويجعل ابن الرومي السيف أحياناً له في المعركة معتمداً على التشخيص، فيقول مفتخراً:⁵

مفتخراً:⁵

أَخِي دُونَ إِخْوَانِي إِذَا الْحَرْبُ شَمَرَتْ حُسَامٌ بِحَدَّيْهِ فُلُولٌ مِنَ الضَّرْبِ
لَهُ حِينَ يَعْلُو قَوْسٌ⁶ الْقِرْنِ هَبَّةٌ تُوَاصِلُ مَا بَيْنَ الدُّوَابَةِ وَالْعَجَبِ⁷

¹ الأمدي: الموازنة، ج 3، ص 325 .

² البحتري: الديوان، ص 1751 .

³ النمال جمع مفردة نملة وهي حشرة معروفة . لسان العرب مادة (نمل) .

⁴ البحتري، الديوان ، ص 1813 .

⁵ ابن الرومي: الديوان، ج 1، ص 130 .

⁶ القونس: ما بين الأذنين، لسان العرب مادة (قَنَس) . والمقصود في البيت الخوذة التي توضع على الرأس .

⁷ العُجْب: العظم في أسفل الصلب عند العجز ، لسان العرب مادة (عُجْب) .

وهذا الحسام تكسّر حده من شدة الضرب، وهي صفةٌ محمودَةٌ في السيف، وهذا المعنى

قديم استخدمه النابغة الذبياني في معرض المدح بما يشبه الدم، بقوله:¹

وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنْ سُيُوفَهُمْ بِهِنَّ فُلُوقٌ مِنْ قِرَاعِ الْكَتَائِبِ

ويصف ابن الرومي ضربة سيفه، فهي تقسم الفارس نصفين، تبدأ من رأسه، من فوق

الخوذة التي يلبسها إلى أن تصل إلى أسفل الصلب.

والسيف لا يدخل جفنه لكثرة استخدامه في الحرب، وضرباته سريعة توقع القتلى في

صفوف الأعداء، وله صوت ولمعان مثل لمعان السراب، فالدرّوع تنوّعت وتلونت لتلائمه، يقول

ابن الرومي:²

حُسَامٌ لَا يَلِيْقُ عَلَيْهِ جَفْنٌ سَرِيْعٌ فِي ضَرِيْبَتِهِ ذَرِيْعٌ
تَرَى وَقَعَاتِهِ أَبَدًا خَطَايَا إِلَى أَنْ يَسْبَطِرَ³ لَهُ صَرِيْعٌ
وَيُرْعِدُ مَتْنَهُ مِنْ غَيْرِ هَزٍّ كَرِيْعَانِ السَّرَابِ زَهَاهُ رِيْعٌ
يَقُولُ الْقَاتِلُونَ إِذَا رَأَوْهُ لِأَمْرِ مَا تُغْوِيَتِ الدُّرُوعُ

ويشبه ابن المعتز الشجعان الذين يسرون معه إلى الحرب ويقطعون الفلوات بالسيف،

فيرسم علاقة قوية بين الشجاعة والسيف، فالشجاع مثل السيف الذي أكسبه الصقل صلابة وقوة،

يقول:⁴

وَفِتْيَانٍ صِدْقٍ قَدْ بَعَثَتْ بِسُدْفَةٍ⁵ سِرَاعٍ إِلَى مِثْلِي إِذَا أَبْطَأَ الْفُسْلُ⁶
خَرَفْتُ بِهِمْ عَرَضَ الْفَلَاةِ كَأَنَّهُمْ صِفَائِحُ هِنْدِيٍّ يُعْتَتُّهَا الصَّقْلُ

¹ النابغة الذبياني: الديوان، ص 32.

² ابن الرومي: الديوان، ج2، ص 343، 344.

³ اسبطر: اضطجع وامتد. لسان العرب مادة (سبطر).

⁴ ابن المعتز: الديوان، ص 384. بدا الشاعر متأثراً بقول أبي نواس: (وَفِتْيَانُ صِدْقٍ قَدْ صَرَفْتُ مَطِيَّهُمْ إِلَى بَيْتِ خَمَارٍ نَزَلْنَا بِهِ ظُهُرًا). ينظر أبو نواس: الديوان، ص 273.

⁵ السدفة: ظلمة الليل. لسان العرب مادة (سدف).

⁶ الفسل: الرذل النذل الذي لا مروءة له ولا جلد. لسان العرب مادة (فسل).

وبشبهه ابن المعتز اهتزاز السيوف بورق الشجر الذي يهزه تساقط المطر عليه، فيقول:¹

فيقول:¹

وسيوفٍ كأنها حين هُزَّتْ ورَقٌ هَزَهُ سُقُوطُ القِطَارِ

ويصف ابن المعتز صفاء الحديد الذي صُنِعَ منه سيفه ونقاؤه، فهو مثل الغدير الذي خلا

ماؤه من الشوائب فصار صافياً، فيقول:²

عَضْبُ المَضَارِبِ كَالغَدِيرِ نَفَى القَذَى حَتَّى صَافَا

فهذا الصفاء والنقاء أكسب السيف لمعان كالنار المشتعلة، يقول ابن المعتز:³

وَقَدْ أَلَقِي بَأْسَ العُدَاةِ عَلَى طِرْفٍ⁴ بَعْضُ كَالنَّارِ تَتَّقِدُ

والمتنبي يجعل العلاقة بين السيف و الغمد علاقة عاطفية، فالأغماد تبكي لفراق الأنصل؛

لأنها تعلم أن النصال لن تعود إليها، وستبقى مجردة تقاتل الأعداء، فيقول:⁵

تَبْكِي عَلَى الأنصُلِ العُموْدُ إِذَا أَنْذَرَهَا أَنَّهُ يُجَرِّدُهَا
لَعَلَّهَا أَنَّهُهَا تَصِيرُ دَمًا وَأَنَّه فِي الرِّقَابِ يُغْمِدُهَا

فيكاء الأغماد هو بكاء الغيرة؛ لأن السيوف ستستبدلها برقاب الأعداء.

ويكمل المتنبي الصورة، فيصور بريق السيوف بالنار المشتعلة التي يُخمدُها ماء الرقاب،

فيسلب لمعانها ويغير لونها، فيقول:⁶

تَنَقِّدُ النِّارُ مِنْ مَضَارِبِهَا وَصَبُّ مَاءِ الرِّقَابِ يُخْمِدُهَا

¹ ابن المعتز: الديوان، ج 1، ص 258 .

² نفسه، ج 1، ص 85 .

³ نفسه، ج 1، ص 250 .

⁴ الطرف (بكسر الطاء) الخيل الكريم العتيق، أو الطويل القوائم والعنق المطرف الأذنين . لسان العرب مادة (طرف)

⁵ المتنبي: الديوان، ص 10 .

⁶ نفسه، ص 10 .

ويشخص المتنبي السيف فيجعل منه إنساناً يشكو شدة يمين الممدوح، والجماجم شهوؤً على ذلك، ويصف الدماء على السيف وقد يبست لانشغال صاحبها عن تنظيفها، فيقول في مدح شجاع بن محمد الطائي:¹

وَصْنِ الحُسَامِ وَلَا تُذَلِّهُ فَإِنَّهُ يَشْكُو يَمِينَكَ وَالْجَمَاجِمُ تَشْهَدُ
يَبِسَ النَّجِيعُ عَلَيْهِ وَهُوَ مُجَرَّدٌ مِنْ غَمْدِهِ وَكَأَنَّهَا هُوَ مُغْمَدُ
رِيَانٍ لَوْ قَذَفَ الَّذِي أَسْقَيْتَهُ لَجَرَى مِنَ الْمُهْجَاةِ بَحْرٌ مُزْبِدُ

ويقيم المتنبي علاقة عشق بيت السيوف والرقاب، جعلت مضارب السيوف رقيقة نحيلة، وكأنها عاشق امتنع عن الطعام والشراب فنحل جسمه، فيقول في مدح بدر بن عمار:²

رَقَّتْ مَضَارِبُهُ فَهِنَّ كَأَنَّهَا يُبْدِينَ مِنْ عَشْقِ الرِّقَابِ نُحُولًا

فالسيف عاشق للرقاب يحلم بها، ويتمنى الوصول إليها ليقضي عليها³، المتنبي في هذا البيت يجمع بين متناقضين: العشق، والقتل، فهو عشق يوصل إلى الموت.

ويصف المتنبي السيف بشمس تشرق من الغمد، وتغرب في هامات الرجال، فيقول:⁴

طَلَعْنَ شُمُوساً وَالْغُمُودُ مَشَارِقُ لَهُنَّ وَهَامَاتُ الرَّجَالِ مَغَارِبُ

فالسيف تهجر الأعماد ولا تعود إليها، وتتمنى أن تكون رقاب الأعداء أعمادها، يقول المتنبي:⁵

بِهَجْرِ سُيُوفِكَ أَعْمَادَهَا تَمَنَّى الطُّلَى أَنْ تَكُونَ الْغُمُودَا

والسيوف تشتدُّ على الأعداء وكأنها من أهل الممدوح وعشيرته، فتغضب لغضبه وترضى لرضاه، يقول في مدح جعفر بن كيغلغ:⁶

¹ المتنبي: الديوان، ص 50 .

² نفسه، ص 145.

³ سلطان، منير: البديع في شعرا المتنبي، ص 189.

⁴ المتنبي: الديوان، ص 75.

⁵ نفسه، ص 134.

⁶ نفسه، ص 42.

تَحْمَى السُّيُوفُ عَلَى أَعْدَائِهِ مَعَهُ كَأَنَّهُنَّ بَنُوهُ أَوْ عَشَائِرُهُ
إِذَا انْتَضَاهَا لِحَرْبٍ لَمْ تَدَعْ جَسَدًا إِلَّا وَبَاطِنَهُ لِلْعَيْنِ ظَاهِرُهُ

ويصف ابن منقذ لمعان السيوف في الظلام الشديد، فيختلط لمعانها بالظلام كما يفشو

البياض في الشعر الأسود، فيقول في مدح الملك الصالح:¹

سَلْنَا بِهَا بَيْضَ السَّيُوفِ فَلَاحَ فِي شَبَابِ الدُّجَى لَمَّا بَدَا لَمَعُهَا وَخَطُ
سُيُوفٍ لَهَا فِي كُلِّ دِرْعٍ وَجَنَّةٍ إِذَا مَا اعْتَلَّتْ قَدًّا أَوْ اعْتَرَضَتْ قَطُّ

ويصف ابن المعتز قوة السيوف ومضاءها، فهي تقدّ الدرع من الأعلى، وتقطعه عرضاً،

وهذا وصف لضربات علي بن أبي طالب كرم الله وجهه "كانت ضرباته أبقاراً، إذا اعتلى قدّاً،
وإذا اعترض قطّاً"².

والسيوف تصقل بقطع أعناق الأعداء فتصبح أكثر حدّة ومضاء، يقول ابن منقذ:³

سَنَلْقَى الْعِدَى عَنْهُمْ بَيْضَ صِقَالِهَا هَدَايَاهُمْ وَالْبَيْتْرُ يُرْهَفُهَا الْبَيْتْرُ

فالسيف في نظر الشعراء له قيمة لا يتحقق جمالها إلا بيد مقاتل شجاع، يغيّر لونه إلى

الأحمر من دماء أعدائه، فلا يُعرف لونه الحقيقي.

الرماح والسهام

الرمح من الأسلحة المهمّة في الحرب، ولكنه لا يصل إلى المرتبة التي بلغها السيف.

ففي الحديث عن الرّماح نجد أبا تمام يقرن بينها وبين الرّأي، فيرى أنّ الرّأي السّديد والرّمح

المسدّد، إذا اجتمعا يزيلان الكرب، فالرّأي يحتاج إلى قوة تنفّذه، يقول:⁴

رَأَى سَدِيدَ الرَّأْيِ وَالرَّمْحَ فِي الْوَعْيِ تَأَزَّرُ بِالْإِقْدَامِ فِيهِ وَيَرْتَدِي

¹ أسامة بن منقذ: الديوان، ص 277.

² الزبيدي، الحسين محب الدين الحنفي: تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق علي رشيد، دمشق، دار الفكر للطباعة والنشر، د.ت، المجلد 10، ص 383. لسان العرب مادة (قَدَدَ) .

³ أسامة بن منقذ: الديوان، ص 256 .

⁴ أبو تمام: الديوان، ج 1، ص 247 .

وَلَيْسَ يُجَلِّي الْكَرْبَ رَأْيٌ مُسَدَّدٌ إِذَا هُوَ لَمْ يُؤْنَسْ بِرُمْحٍ مُسَدَّدٍ

ويعطي أبو تمام الرّماح صفات إنسانية، فيجعلها تتمتع وتتلذذ بقلوب الأعداء ودمائهم،

فيقول في مدح أبي سعيد الثغري:¹

وَأَسْمَرَ مُحَمَّرَ الْعَوَالِي يَوْمُهُ سِنَانٌ بِحَبَّاتِ الْقُلُوبِ مُتَمَّعٌ

مِنَ اللَّائِي يَشْرَبِينَ النَّجِيعَ مِنَ الْكُلَى عَرِيضًا وَيُرْوَى غَيْرَهُنَّ فَيَنْقَعُ

فهذه صورة دائمة التجدد لا يستطيع المتلقي أن يمسك بأطرافها، فهي تظل في مراوغة

وانفلات من بين يديه، وهو يحاول أن يتخيلها، فتعطيه صوراً ودلالات جديدة متجددة.²

وفي موضع آخر يجعل أبو تمام الرّماح تشرب من دماء الأعداء، إلى أن تصل إلى

الحقد والغل الموجودين بداخلهم، فتصل إلى مقاتلهم فتصيبها بدقة. وهي رماح مستقيمة لا عوج

فيها، وهذه صفة الرماح الجيدة، فيقول في مدح أبي سعيد محمد بن يوسف:³

كَأَنَّهَا وَهِيَ فِي الْأَوْدَاجِ⁴ وَالْغَةِ⁵ وَفِي الْكُلَى تَجِدُ الْغَيْظَ الَّذِي تَجِدُ

مِنْ كُلِّ أَرْزَقٍ نَظَّارٍ بِلَا نَظَرٍ إِلَى الْمَقَاتِلِ مَا فِي مَتْنِهِ أَوْدٌ⁶

ويذكر أبو تمام زرقة الرّماح، فهي تفوق زرقة الروم، وسمرتها تفوقت على سمرة

العرب، ودقتها أشد من العاشق الذي نحل من شدة عشقه، يقول:⁷

مُتَقَفَّاتٍ سَلَبْنَ الرُّومَ زُرُقَتَهَا وَالْعَرَبُ سُمِرَتَهَا وَالْعَاشِقُ الْقَضْفَا⁸

¹ أبو تمام: الديوان، ج 1، ص 403 .

² أبو مراد، فتحي: مظاهر الانحراف الأسلوبي في عينية أبي تمام، مجلة جامعة النجاح الوطنية للأبحاث، مجلد 25، 2011، ص 276

³ أبو تمام: الديوان، ج 1، ص 243 .

⁴ الأوداج: عروق في العنق أو في أصل الأذنين يخرج منهما الدم، لسان العرب مادة (وَدَجَ) .

⁵ والغة: الولغ شرب السباع بألسنتها أو شرب الماء أو الدم . لسان العرب مادة (وَلَغَ) .

⁶ الأود: العوج . لسان العرب مادة (أَوَدَ) .

⁷ أبو تمام: الديوان، ج 1، ص 423 . ابن قتيبة: عيون الأخبار، ص 130.

⁸ القذف: الدقة، والقضافة: قلة اللحم، والقضيف الدقيق العظم القليل اللحم، لسان العرب مادة (قَضَفَ).

ويرى ابن أبي عون أنّ أبا تمام أحسن في وصف الرّماح على الرّغم من أنّه لم يأت
بتشبيهه¹، وهذا القول مأخوذ من قول دعبل الذي يصف به الرّمح وما به من سمرة وزرقة،
وكأنّه لسان أفعى، فيقول:²

وَأَسْمَرَ فِي رَأْسِهِ أَرْزَقُ مِثْلُ لِسَانِ الْحَيَّةِ الصَّادِي

ويرسم البحترى صورةً للخوذة مع الرماح، فلمعان الخوذة مثل ماء السّراب في البيداء،
فإذا انعكست عليها صور الرماح صارت مثل خيال الكواكب داخل الماء، يقول في مدح أبي
سعيد محمد بن يوسف الثغري:³

بِيضٌ تَسِيلُ عَلَى الْكُمَاةِ فُضُولُهَا سَائِلُ السَّرَابِ بِقَفْرَةٍ يَبْدَاءُ
فَإِذَا الْأَسِنَّةُ خَالَطَتْهَا خَلَّتْهَا فِيهَا خَيْالَ كَوَاكِبٍ فِي مَاءِ

ويصف البحترى ضربات الرماح التي تصل نحور الأعداء، فهي تتعثر بها، لأنّها في
حالة سكرٍ من دمائهم، يقول في مدح أبي سعيد:⁴

يَتَعَثَّرْنَ فِي النُّحُورِ وَفِي الْأَوْجِهِ سُكْرًا لِمَا شَرِبْنَ مِنَ الدِّمَاءِ

ويأتي المتنبي بصورةً مشابهة لصورة البحترى السابقة، فيجعل الرّماح تتمايل، وكأنّها
تشرب خمراً من دماء الأبطال، يقول في مدح سيف الدولة:⁵

تَبَيَّتْ رِمَاحُهُ فَوْقَ الْهَوَادِي وَقَدْ ضَرَبَ الْعَجَاجُ لَهَا رَوَاقَا
تَمِيلُ كَأَنَّ فِي الْأَبْطَالِ خَمْرًا غُلِنَ بِهَا اصْطِبَاحًا وَاغْتِيَاقَا

ومن الصّور التي تصف الرماح وشدتها وصلابتها قول المتنبي في مدح سيف الدولة:⁶

الدولة:⁶

¹ ابن أبي عون: التشبيهات، ص 145.

² دعبل: الديوان، ص 64. ابن أبي عون: التشبيهات، ص 147.

³ البحترى: الديوان، ص 11 .

⁴ نفسه، ص 18 .

⁵ المتنبي: الديوان، ص 291 .

⁶ نفسه، ص 346 .

نُودِعُهُمْ وَالْبَيْنُ فِينَا كَأَنَّهُ قَنَا ابْنَ أَبِي الْهَيْجَاءِ فِي قَلْبِ فَيْلِقِ
 قَوَاضٍ مَوَاضٍ نَسَجُ دَاوُودَ عِنْدَهَا إِذَا وَقَعَتْ فِيهِ كَنَسَجِ الْخَرْنَدِقِ¹
 هَوَادٍ لِأَمْلَاكِ الْجِيُوشِ كَأَنَّهَا تَخَيَّرُ أَرْوَاحَ الْكُمَاةِ وَتَنْتَقِي
 تَقْدُّ عَلَيْهِمْ كُلَّ دِرْعٍ وَجَوْشَنٍ² وَتَفْرِي إِلَيْهِمْ كُلَّ سَورٍ وَخَنَدِقِ

فتخلص المتنبى من الغزل، وانتقل إلى الموضوع الرئيس للقصيدة، وهو مدح سيف الدولة، فوصف أثر فراق الأحبة عليه، فكأنه رماح الممدوح في قلب الجيش الكبير، وهذا من حسن التخلص وحسن الخروج كما يقول الثعالبي³. ثم يفصل المتنبى في وصف الرماح فهي رماح خارقة، لا يقف في وجهها شيء، فدروع داود⁴ عليه السلام أمامها أوهى من خيوط العنكبوت، على الرغم من قوتها ومتانتها، وحتى الخنادق والأسوار لا تحمي الأعداء منها، لأنها تخترقها وتصل إليهم. وأمر آخر في وصف هذه الرماح فهي تهتدي إلى الملوك والشجعان فتأخذ أرواحهم. ويشخص المتنبى الرماح فيجعل منها إنساناً يبكي، ودموعها الدماء التي تغطيها، وهي دموع تذررها على ما تكسر منها في أرض المعركة، فيقول⁵:

وَيُرْجِعُهَا حُمْرًا كَأَنَّ صَاحِبَهَا يَبْكِي دَمًا مِنْ رَحْمَةِ الْمُتَدَقِّقِ

ويصف أبو فراس الرماح وهي تشق ثياب العدو، وتدخل لتسكن مكان وجود الحقد، كناية عن قلوب الأعداء، يقول⁶:

وَزُرُقُ تَشْقُ الْبُرْدَ عَن مَهْجِ الْعِدَا وَتَسْكُنُ مِنْهُمْ أَيَّمَا سَكَنِ الْحَقْدِ

ويرسم أسامة بن منقذ صورة للرماح، فهي حادة كالمقطعة من الجمر التي لا شعلة فيها،

فيقول¹:

¹ الخرنديق: ذكر العناكب أو العنكبوت دون أن يخص به الذكر . لسان العرب مادة (خرندق).

² الجوشن: الصدر أو الدرع . لسان العرب مادة (جشن).

³ الثعالبي: الوساطة بين المتنبى وخصومه، ص 135.

⁴ هي دروع صنعها داود عليه السلام بأمر من الله كما جاء في قوله تعالى: ﴿ أَنْ اِعْمَلْ صَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ﴾. سورة سبأ الآية (11) . وهي رماح تجمع بين الخفة والحصانة . ينظر القرطبي، محمد بن أحمد: الجامع لأحكام القرآن، ج 14، ص 196 .

⁵ المتنبى: الديوان، ص 346 .

⁶ أبو فراس: الديوان، ص 95.

وَكُلُّ أَسْمَرَ فِيهِ لَهْنٌ ذَرِبٌ كَجُذُوعِ النَّارِ لَمْ تُقْبَسْ وَلَمْ تَقْدِ
إِذَا تَسَدَّدَ دَاوِي كُلُّ ذِي لَدَدٍ وَإِنْ تَأَوَّدَ سَاوِي مَيْلَ ذِي الْأَوْدِ

فهي رماح مستقيمة تداوي الحائر الذي يلتفت شمالاً ويميناً، وإذا أصابها العوج فهي تساوي ميل المتمايل المعوج، فهي في الحالتين تحقق الهدف وتصيبه.

ويقول ابن الرومي في وصف السهم:²

وَكُلُّ ابْنِ رِيحٍ يَسْبِقُ الطَّرْفَ مَعْجَهُ³ تَطَوَّحُهُ⁴ عَطْوَى⁵ مَنوعاً لَدَى الجَدْبِ
صَنِيعٌ مَرِيشٌ قَوْمَ القَيْنِ⁶ مَتْنَهُ فَجَاءَ كَمَا سُلَّ النُّخَاعُ⁷ مِنَ الصُّلْبِ
يُغْلَغَلُهُ فِي الدَّرْعِ نَصْلٌ كَأَنَّهُ لِلسَّنِّ شُجَاعٌ⁸ هَمٌّ بِالسُّبِّ⁹

ويفصل ابن الرومي في وصف السهم تفصيلاً دقيقاً، فيصف سرعته، فهي كلمح البصر، ويصف دقته واستقامته، والنصل الذي يتقدمه، والقوس التي انطلق منها فهي سهلة لينة لا تتكسر عند عطفها وثنيها، وهذا يتناسب مع سرعة السهم؛ لأن سرعته تزداد كلما كان عطف القوس أكبر. ويصف ابن المعتز السهم وسرعته، فهو كالمشط الذي تستعمله النساء لتمشيط شعرهن، فيجري في الشعر بكل سهولة، وهو حادّ السنان وسريع، وهذا من أفضل الصفات، يقول:¹⁰

فَأَوْدَعْتُهُ سَهْمًا كَمِدرِي مَوَاشِيطِ بَعَثْنَا بِهِ فِي مَفْرَقٍ فَتَغَلَّغَا

هذه بعض النماذج التي ذكرت الرمح والسهم، وأكتفي بما ذكر، ونسأل الله الهداية.

¹ أسامة بن منقذ: الديوان، ص 219.

² ابن الرومي: الديوان، ج 1، ص 130.

³ معجه: سرعة مروره، لسان العرب مادة (مَعَج).

⁴ تطوحه: ترسله في الهواء، لسان العرب مادة (طَوَّح).

⁵ عطوى: لينه ليست بكزّة ولا ممتنعة، وهي التي عظمت فلم تكسر. لسان العرب مادة (عَطَو).

⁶ القين: الحداد أو عمال الحديد. لسان العرب مادة (قَيْن).

⁷ النخاع: عرق أبيض في داخل العنق ينقاد في فقار الصلب. لسان العرب مادة (نَخَع).

⁸ الشجاع الحية الدقيقة، وهي أجراء الحيات. لسان العرب مادة (شَجَع).

⁹ اللسب: اللدغ واللسع. لسان العرب مادة (لَسَب).

¹⁰ ابن المعتز: الديوان، ج 2، ص 95. ابن أبي عون: التشبيهات، ص 140.

الخاتمة

شكّلت شيمة الشجاعة وصورها محور هذه الدراسة، فتناولت نماذج شعرية ذكرت الشجاعة، ووصفت الشجعان وبطولاتهم. ويمكن إجمال نتائج البحث فيما يأتي:

- وُضع الشعراء العباسيون أمام تحدٍ كبير؛ لأنّهم سُبِقوا إلى كلّ معنَى لطيف، وهذا دفعهم إلى توليد المعاني واختراعها، والتّصريف في معاني السابقين، واستخدامها في وجوه عدّة، مستخدمين كلّ طاقات اللغة.
- لم يعتمد الشعراء العباسيون الطبع وحده في شعرهم، بل صاروا يُعْمِلون فكرهم في اختيار المعاني واحكامها؛ بسبب اختلاف الذوق النقدي، والتأثر بالفلسفة والمنطق، واتخاذ كثير من الشعراء المدح وسيلة لكسب العطايا من الخلفاء والأمراء.
- لم يترك الشعراء العباسيون مظهرًا من مظاهر الشجاعة إلّا وذكره بتفصيل، ليظهروا شجاعة ومدوحهم.
- أشار الشعراء العباسيون إلى أهميّة الرأي والتدبير، فهي لا تقل عن أهميّة السيف في المعركة، فأثر الرأي يظهر جليًا على الأعداء، وخاصة إذا اقترن بالإقدام، وقد يكون عليهم أشدّ من السيف، لأنّه مثل الشّهب التي تُقذَف بها الشياطين، والخيول التي يقاتل بها الفرسان، فهو ينوب عن صاحبه في المعركة إذا غاب عنها.
- ذكر الشعراء العباسيون الهيبة بلفظ صريح، وأثرها على الأعداء، فهي تجلب لهم الموت، وتزرع في قلوبهم الرعب، الذي ينوب عن الممدوح في المعركة، فيتحقق به النصر. فالهيبة تشكّل حربا نفسية تدور في نفوس الأعداء قبل الحرب بالسلح، وهي تجعل صاحبها حاضرا في المعركة، وإن غاب عنها.
- تحدّث الشعراء عن صبر ومدوحهم في الشدائد، وذكروا إيمانهم بقضاء الله وقدره، وأنّ الحياة متقلّبة بين الرخاء والشّدّة، وهذا يجعلهم أكثر الناس صبرا، وأثبتهم عقلا في الشدائد، فنفسهم تستهون الخطوب، فيزدادون قوّة وصلابة في مواجهتها.

- وظّف الشعراء العباسيون الهيئة النفسية التي تظهر على وجه الشجعان في الحرب؛ لتكون دليلاً على شجاعتهم، ورباطة جأشهم، فهم يتبسّمون في الحرب، وكأنّهم يلهون ويلعبون مع الأهل والأصدقاء؛ لأنّ التبسّم في الحرب أدلّ على الشجاعة من القطوب، فهم يسكنون في الحرب كسكونهم في السلم؛ لتقتنهم بشجاعتهم، فيها يتغلّبون على عدوّهم
- أظهر الشعراء العباسيون الشجاعة في أسمى صورها في بذل النفس وتقديمها للآخرين، فجمعوا بين شيمتيّ الشجاعة والكرم لتلازمهما معاً، فربطوا بين الشجاعة والكرم، والجبن والبخل.
- وثّق الشعراء العباسيون العلاقة بين الشجاع والموت، فهي علاقة قرابة ومحبة، فإقدامه على الموت، مع وجود فرصة التراجع، كصلة الأرحام، وهو أفضل مغنم يعود به المقاتل الشجاع، وهو بديل النصر إذا غاب.
- التفت الشعراء العباسيون إلى ظاهرة تميّز بها الشجعان في القتال، وهي العفة، فهم لا يقاتلون من أجل الغنائم، وإنّما شجاعتهم تفرض عليهم خوض الحرب، ومواجهة الأبطال، فهم متميّزون عن بقية الجيش، فلا نظير لهم في القتال.
- لجأ الشعراء العباسيون إلى استخدام مجموعة من الصور؛ يصفون بها الشجاع، ويظهرون قوّته وعزيمته، وهي مستمدّة من الحيوانات، ومن الطبيعة، ومن أدوات الحرب.
- جاء حديث الشعراء العباسيين عن الأسد، وتشبيه الشجعان به على وجهين: فمنهم من ساوى بين الشجاع والأسد، ومنهم من جعل الشجاع يتفوّق عليه، وقد أخرجوا بعض الصفات المزمومة الموجودة في الأسد، ونفوها عن الشجاع، فأخذوا من الأسد صفة القوّة والأقدام، وتركوا غيرها من الصفات، كقبح المنظر، وثنانة الرائحة، والصفات الحيوانية الأخرى، فصارت صورة الأسد تستخدم في الهجاء بهذه الصفات.
- أدرك الشعراء العباسيون أهميّة السيف في المعركة، فوصفوا الشجاع بمضائه وجرأت حدّه، بل جعلوا الشجاع يتفوّق على السيف في صفائه وشدّته ومضائه، وفي أصله وطبيعته.

- وجد الشعراء العباسيون في الحرب مجالاً واسعاً للحديث عن الشجاعة، فوصفوا المعارك وميادينها، وأدواتها من سيوف ورماح وسهام، فدخلوا بأدق تفاصيلها، فقدّمت لهم مادة دسمة يجردون منها صورهم.
- الحرب في وصف الشعراء العباسيين ضرورة من ضرورات الحياة عند الشجاع، فهي عادة تعودّ عليها، وملذّة ينلذذّ بها، كالطعام والشراب وسائر الملذّات.
- ربط الشعراء العباسيون الإقدام في الحرب بالشجاعة، والتأخّر والفرار بالجبن، فجعلوا إقدام الشجاع فراراً إلى الأمام، وساواوا الفرار من أرض المعركة بالموت، فالشجاع يفضل الموت على الفرار، فطبعه الكريم يمنعه من التأخّر. وقد ركّزوا على القتال بالسيف ليكون دليلاً على الإقدام، لأنّ السيف يحتاج إلى الالتحام بالعدوّ.
- استخدم الشعراء العباسيون الشخصيات التاريخية التي عُرفت بالشجاعة والإقدام، كشخصيّة عليّ بن أبي طالب، وشخصية عمرو بن معد يكرب الزبيدي، لإظهار شجاعة ممدوحهم. وقد جمعوا بين الإقدام والحكمة النابعة من الخبرة والتجربة؛ لئلا يصبح الإقدام تهوراً.
- وصف الشعراء العباسيون اللحظات الأولى للمعركة أحسن وصف، فوصفوا جوّها، وحركة السلاح، وتحدّثوا عن شدّة الطعن والضرب، فصوّروا الغبار المثار من حركة الفرسان، ولمعان السيوف والرماح خلاله بالليل والنجوم، ووجدت بعض الصور النادرة، كتصوير الغبار بالشعر الأسود والرماح مشط يجري فيه.
- بدت المعارك في شعر الشعراء العباسيين شبيهة بأهوال يوم القيامة، يشيب منها الولدان، فحوّلوا المعارك إلى ملاحم بطولية، تظهر فيها شجاعة ممدوحهم.
- وصف الشعراء الجيش، فتحدّثوا عن كثافته، والرهيبة التي يبثها في نفوس الأعداء، فهو مثل الليل في كثافته، والسيوف والرماح نجوم تلمع في ظلمته، وهو سيل مندفع نحو العدو، وثباته مثل الجبال الشاهقة.

- ركّز الشعراء العباسيون على وصف حال العدوّ في المعركة، ففصلوا في ذكر هزيمته، وما وصل إليه من عجز وانكسار، بسبب الضربات التي توجّه إليه من الممدوحين، فوصفوا حاله قبل المعركة، وضحّموا قوّته؛ لتمجيد انتصارات ممدوحهم.
- قسّم الشعراء جيش العدو في المعركة إلى أقسام عدّة: القتيل، والجريح، والمأسور، والهارب. وقد وظّف الشعراء قصص الأمم السابقة، كعاد وثمود وأصحاب القرية؛ لوصف الحالة التي وصل إليها العدو بعد المعركة.
- أشار الشعراء إلى كثرة القتلى من العدو، وانتشار الموت في صفوفهم، بضرب رقابهم بالسيف؛ ليكون هذا دليلاً على شجاعة الممدوح، فالضرب بالسيف يحتاج شجاعة وإقدام ورباطة جأش. وقد استخدم الشعراء العباسيون إشارات تدل على كثرة قتلى العدو بأيدي ممدوحهم، ومنها ملازمة الطير والوحوش جيوشهم، حتّى صارت تنتظر سيرهم إلى الحرب، لثقتها بالنصر الذي سيحقّقونه، وطمعا في جثث القتلى التي ستصبح طعاماً لها، وهذا قد أغناها عن مخالبتها، لأنّها ضمنت رزقها.
- اهتمّ الشعراء العباسيون أثناء حديثهم عن الشجاعة، بوصف أدوات الحرب، لأنّها عدّة الفارس الشجاع فيها، فهي لا تساوي شيئاً دونه. وقد خصّوا السيف بصفات؛ لأهمّيته في حسم المعركة وتحقيق النصر، فوصفوا حركته الدائمة بأيدي الفرسان، وحدّته، ولمعانه الذي يبدوا مثل البرق، أو النار المتقدّة، أو مثل لمعان الذهب، ووصفوا لونه الأبيض الذي يبدو كلون الملح، وتحوّل هذا البياض إلى لون أحمر يميل إلى السواد من دماء الأعداء. والرماح بدت في أشعارهم بصور جميلة، فهي تتلذّد بقلوب الأعداء ودمائهم، وتتعثّر بالنحور؛ لأنّها في حالة سكر دائم من الدماء التي تشربها. ووصفوا السهم وسرعه التي بدت كلمح البصر، ودقّته واستقامته، والنّصل الذي يتقدّمه، والقوس التي انطلق منها.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر

القرآن الكريم

الأبشيهي، أبو الفتح شهاب الدين محمد بن أحمد: **المستطرف في كل فن مستظرف**، تحقيق مفيد قميحة، ط2، بيروت، دار الكتب العلمية، 1986.

ابن الأثير، نجم الدين أحمد بن إسماعيل: **جواهر الكنز**، تحقيق محمد زغلول سلام، منشأة المعارف، الإسكندرية، (د.ت).

ابن أبي الإصبع المصري: **تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن**، تحقيق حفني محمد شرف، لجنة إحياء التراث الإسلامي، (د.ت).

الأصفهاني، أبو الفرج: **الأغاني**، تحقيق سمير جابر، ط2، بيروت دار الفكر، (د.ت).

الأصفهاني، أبو القاسم حسين بن محمد الراغب: **محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء**، بيروت، دار مكتبة الحياة، (د.ت).

الأفوه الأودي: **الديوان**، تحقيق محمد التونجي، ط1، بيروت، دار صادر، 1998.

الأمدي، أبو القاسم الحسن بن بشر: **الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري**، تحقيق أحمد صقر، ط4، القاهرة، دار المعارف، (د.ت).

امرؤ القيس: **الديوان**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط4، القاهرة، دار المعارف.

الأندلسي، ابن حزم أبو محمد علي بن سعيد: **جمهرة أنساب العرب**، تحقيق ليفي يورفنسال، القاهرة، دار المعارف، (د.ت).

أوس بن حجر: **الديوان**، تحقيق وشرح محمد يوسف نجم، بيروت، دار بيروت للطباعة والنشر، 1980.

البحثري: **الديوان**، تحقيق وشرح حسن كامل الصيرفي، ط3، القاهرة، دار المعارف، (د.ت).

البخاري، محمد بن إسماعيل: **صحيح البخاري**، ط3، القاهرة، دارالسلفية، (د.ت).

ابن برد، بشرّ: **الديوان**، تحقيق وشرح محمد الطاهر بن عاشور، وزارة الثقافة الجزائرية، 2007.

البيستي، محمد بن حيان: **كتاب المجروحين من المحدثين**، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي، ط1، دار الصمبغى، 1420هـ.

البصري، صدر الدين علي بن أبي الفرج: **الحماسة البصرية**، تحقيق عادل سليمان جمال، القاهرة، لجنة إحياء التراث الإسلامي، 1978.

البكري، عبدالله بن عبد العزيز بن محمد: **سمط اللآلئ في شرح أمالي القالي**، تحقيق عبد العزيز الميمني، بيروت، دار الكتب العلمية، (د.ت)

البهاء، زهير: **الديوان**، شرح محمد أبو الفضل ومحمد طاهر الجبلاوي، ط2، القاهرة، دار المعارف، (د.ت).

البيهقي، إبراهيم بن محمد: **المحاسن والمساوي**، مصر، مطبعة السعادة، 1906.

أبو تمام، حبيب بن أوس: **الديوان**، تحقيق محمد بك حسن سعيد، مطبعة السلسبيل، (د.ت).

أبو تمام، حبيب بن أوس: **الديوان**، شرح الخطيب التبريزي، تحقيق، محمد عبده عزام، ط4، القاهرة، دار المعارف، (د.ت).

التوحيدي، أبو حيان علي بن محمد: **الإمتاع والمؤانسة**، صححه وطبعه أحمد أمين وأحمد الزين، بيروت، دارمكتبة الحياة (د.ت).

الثعالبي، أبو منصور عبد الملك: **أبو الطيب المتنبي ما له وما عليه**، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة، مكتبة الحسين، (د.ت).

الثعالبي، أبو منصور عبد الملك: **خاص الخاص**، قدم له حسن الأمين، طبعة جديدة ومنقحة، بيروت، دار مكتبة الحياة، (د.ت)

الثعالبي، أبو منصور عبد الملك: **يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر**، شرح وتحقيق مفيد محمد قميحة، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية، 1983.

الجرجاني، أبو الحسن علي عبد العزيز: **الوساطة بين المتنبي وخصومه**، تحقيق وشرح محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد الجاوي، ط1، بيروت، المكتبة العصرية، 2006.

الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن: **أسرار البلاغة**، قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر، جدة، دار المدني، (د.ت).

الجرجاني، عبد القاهر: **دلائل الإعجاز**، علق عليه محمود محمد شاكر، ط1، القاهرة، مطبعة المدني، 1991.

جرير: **الديوان**، بيروت، دار بيروت للطباعة والنشر، 1986.

ابن جعفر، قدامة: **نقد الشعر**، تحقيق وتعليق محمد عبد المنعم خفاجي، بيروت، دار الكتب العلمية، (د.ت).

ابن جني، أبو الفتح عثمان: **تفسير أبيات المعاني ديوان المتنبي أو الشرح الصغير**، تحقيق رضا رجب، ط1، دمشق، رند للطباعة والنشر، 2010.

ابن الجهم، علي: **الديوان**، تحقيق خليل مردم بك، ط2، بيروت، دار الآفاق الجديدة، 1980.

الجوزي، ابن القيم شمس الدين: **الفوائد**، ط2، بيروت، دار الكتب العلمية، بيروت، 1973.

الحاتمي، أبو علي محمد ابن الحسن: **الرسالة الموضحة في ذكر سرقات أبي الطيب المتنبي وساقط شعره**، تحقيق محمد يوسف نجم، بيروت، دار صادر، 1965.

الحافظ بن كثير: **البداية والنهاية**، بيروت، مكتبة المعارف، 1990.

الحصري، أبو إسحاق إبراهيم بن علي القيرواني: **زهر الآداب وثمر الألباب**، ضبط وشرح صلاح الدين الهواري، ط1، بيروت، المكتبة العصرية، 2001.

الحمداني، أبو فراس: **الديوان**، تقديم وشرح عبد القادر محمد، ط1، حلب، دار القلم العربي، 2000.

ابن حمدون، محمد بن الحسن بن محمد: **التذكرة الحمدونية**، تحقيق إحسان عباس وبكر عباس، ط1، بيروت، دار صادر، 1996.

الحموي، ياقوت: **معجم البلدان**، بيروت، دار صادر، (د.ت).

ابن حنبل، أحمد بن محمد: **مسند أحمد**، شرح أحمد شاكر، ط1، القاهرة، دار الحديث، 1995.
الخالديان: **المختار من شعر بشار**، شرح أبي الطاهر إسماعيل بن أحمد، مطبعة الاعتماد، (د.ت).

الخراعي، دعبل بن علي: **الديوان**، شرحه حسن حمد، ط1، بيروت، دار الكتاب العربي، 1994.

الخفاجي، ابن سنان: **سر الفصاحة**، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية، 1982.

ابن خلّكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد: **وفيات الأعيان وأنباء أبناء أهل الزمان**، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار صادر (د.ت).

الخنساء: **الديوان**، تحقيق إبراهيم عوضين، ط1، القاهرة، مطبعة السعادة، 1985.

الذبياني، النابغة: **الديوان**، تحقيق كرم البستاني، بيروت، دار صادر، 1963.

الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان: **سير أعلام النبلاء**، مؤسسة الرسالة، 2001.

الرازي، زين الدين محمد بن أبي بكر: **مغاتي المعاني**، تحقيق محمد زغول سلام، الأسكندرية، منشأة دار المعارف، (د.ت).

- ابن الرومي: **الديوان**، شرح أحمد حسن بسج، ط3، بيروت، دار الكتب العلمية، 2002.
- الزبيدي، الحسين محب الدين الحنفي: **تاج العروس من جواهر القاموس**، تحقيق علي رشيد، دمشق، دار الفكر للطباعة والنشر، (د.ت).
- الزركلي، خير الدين: **الأعلام**، ط5، بيروت، دار العلم للملايين، 2002.
- الزّمخشري، أبو القاسم جار الله: **ربيع الأبرار ونصوص الأخبار**، تحقيق عبد الأمير مهنا، ط1، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، 1992.
- ابن الساعاتي، بهاء الدين علي: **الديوان**، تحقيق أنيس المقدسي، بيروت، المطبعة الأميركانية، 1938.
- ابن السّراج، أبو بكر محمد بن عبد الملك الشنتريني: **جواهر الآداب وذخائر الشعراء والكتّاب**، شرح وتحقيق محمد حسن قزقزان، ط1، دمشق، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، 2008.
- ابن سيد الناس، الحافظ فتح الدين محمد: **عيون الأثر في فنون المغازي والشّمائل والسير**، تعليق إبراهيم محمد رمضان، ط1، بيروت، دار القلم، 1993.
- أبو الشّمقمق: **الديوان**، تحقيق واضح محمد، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية، 1995.
- الصفدي: صلاح الدين خليل بن أيبك، **الوافي بالوفيات**، تحقيق أحمد الأرنؤوط وتركي مصطفى، ط1، بيروت، دار إحياء التراث العربي، 2000.
- الصّولي، أبو بكر محمد بن يحيى: **أخبار أبي تمام**، تحقيق خليل محمود عساكر وآخرين، ط3، بيروت، دار الآفاق الجديدة، 1980.
- الطبري، محمد بن جرير بن يزيد: **جامع البيان من تأويل القرآن**، تحقيق عبد الله بن محسن التركي، ط1، دار هجر للطباعة والنشر، 2001.

ابن عبد ربه، أبو عمر أحمد بن محمد الأندلسي، **العقد الفريد**، شرح وضبط، أحمد أمين وأحمد الزبن وإبراهيم الإبياري، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1968.

العبيدي، محمد بن عبد الرحمن: **التذكرة السعدية في الأشعار العربية**، تحقيق عبد الله الجبوري، النجف، مطابع النعمان، 1972.

أبو العتاهية: **الديوان**، بيروت، دار بيروت للطباعة والنشر، 1986.

العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر: **فتح الباري في شرح صحيح البخاري**، تحقيق قصي محب الدين الخطيب، دار الريان للتراث، 1986.

العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله: **جمهرة الأمثال**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعبد المجيد قطامش، ط2، القاهرة، دار الفكر العربي (د.ت).

العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله: **ديوان المعاني**، شرح أحمد حسن بسج، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية، 1994.

العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله: **الفروق اللغوية**، تحقيق محمد إبراهيم سليم، بيروت، دار العلم والثقافة، (د.ت).

العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله: **المصون في الأدب**، تحقيق عبد السلام هارون، ط2، مطبعة حكومة الكويت، 1984.

العميدي، محمد بن أحمد: **الإبانة عن سرقات المتنبي لفظاً ومعنى**، القاهرة، دار المعارف، 1961

العنّابي، شهاب الدين: **نزهة الأبصار في محاسن الأشعار**، تحقيق مصطفى السنوسي، وعبد اللطيف أحمد، ط1، الكويت، دار القلم للنشر، 1986.

ابن أبي عون: **التشبيهات**، صححه محمد عبد المعيد خان، كامبردج، مطبعة جامعة كامبردج، 1950.

القالى، أبو على إسماعىل بن القاسم: الأمالى، بىروت، دار الكتب العلمىة، (د.ت).

ابن قنبله، عبء الله بن مسلم: عىون الأخبار، أأقق لآنة بءار الكتب المصرىة، ط2، القاهره، دار الكتب المصرىة، 1996.

القرشى، أبو زىء محمد بن أبى الأاب: آمهرة أشعار العرب فى الآهلىة والإسلام، أأقق على محمد البآوى، القاهره، نهضة مصر، 1981.

القرطبى، محمد بن أأء الأنصارى: الآمع فى أأكام القرآن أفسىر القرطبى، ط1، القاهره، مكآبة الصفاء، 2005.

القىروانى، ابن رشىق: قرأضة الذهب فى نقد أشعار العرب، أأقق الشاذلى بو ىأى، تونس، الشركة التونسىة للتوزىع، 1972.

ابن كآىر، أبو الفءاء إسماعىل بن عمر: أفسىر القرآن العظىم، أأقق محمد آسبن شمس الءىن، ط1، بىروت، دار الكتب العلمىة، 1419هـ.

كشآآم، محمود بن الآسبن: الءىوان، بىروت، دار العرب، 1989.

مالك بن الرىب: الءىوان، أأقق نورى آموءى القىسى، معهء المآطوطاء العربىة، (د.ت).

المبرء أبو العباس محمد بن ىزىء: الكامل فى اللغة والأءب، أأقق محمد أأءمء الءالى، ط3، بىروت مؤسسه الرسالة، 1997.

المنآبى: الءىوان، شرح أبى البقاء العكبرى، ضبطه وصآهه مصطفى السقا وإبراهىم الأبىارى وعبء الآفىظ شلبى، بىروت، دار المعرفة، (د.ت).

المنآبى: الءىوان، شرح أبى العلاء المعرى، أأقق عبء المآىء ءىاب، دار المعارف، ط، 1990.

المنآبى، أبو الطىب أأءمء بن الآسبن: الءىوان، بىروت، دار بىروت للطباعة والنشر، 1983.

مسلم، ابن الحجاج أبو الحسين: **صحيح مسلم**، ترتيب محمد فؤاد عبد الباقي، ط1، بيروت، دار الخير، 1994.

ابن المعتز، عبدالله بن محمد: **الديوان**، تحقيق محمد بديع شريف، القاهرة، دار المعارف، (د.ت).
ابن المعتز، عبد الله: **طبقات الشعراء**، تحقيق عبد الستار أحمد فرّاج، ط3، القاهرة، دار المعارف، 1976.

المعرّي، أبو العلاء: **سقط الزند**، بيروت، دار صادر، 1986.

ابن منظور، محمد بن مكرم: **لسان العرب**، ط3، بيروت، دار صادر، 1414هـ.

ابن الناظم، بدر الدين بن مالك: **المصباح في المعاني**، تحقيق وشرح حسني عبد الجليل، القاهرة، مكتبة الآداب، (د.ت).

النسائي، أحمد بن شعيب بن علي: **سنن النسائي**، مكتب المطبوعات الإسلامية، 1994.

أبو نواس، الحسن بن هانئ الحكمي: **الديوان**، تحقيق ايفالد فاغندر، برلين، دار الكتاب العربي، 1972.

النويري، شهاب الدين، أحمد بن عبد الوهاب: **نهاية الأرب في فنون الأدب**، تحقيق مفيد قميحة، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية، 2004.

اليوسي، الحسن بن مسعود: **زهرة الأكم في الأمثال والحكم**، تحقيق محمد صبحي، ط1، الدار البيضاء، دار الثقافة، 1981.

ثانياً: المراجع

أدونيس: **الشعرية العربية**، ط1، بيروت، دار الأدب، 1985.

اليافي، عبد الكريم: **دراسات فنية في الأدب العربي**، ط1 بيروت، مكتبة لبنان، 1996.

الجندي، علي: شعر الحرب في العصر الجاهلي، القاهرة، دار الفكر العربي، (د.ت).

الحاوي، إيليا سليم: ابن الرومي فنه ونفسيته من خلال شعره، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1959.

درويش، العربي حسن: الشعراء المحدثون في العصر العباسي، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1989.

زيد، علي إبراهيم: الصورة الفنية في شعر دعبيل بن علي الخزاعي، ط2، القاهرة، دار المعارف، 1983.

سلطان، منير: البديع في شعر المتنبي التشبيه والمجاز، الإسكندرية، منشأة المعارف، 1996.

الشكعة، مصطفى: رحلة الشعر من الأموية إلى العباسية، ط1، الدار المصرية اللبنانية.

أبو شوارب، محمد مصطفى: شعرية التفاوت مدخل لقراءة الشعر العباسي، ط2، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، (د.ت).

الضامن، حاتم صالح: شعر بكر بن النطاح، بغداد، مطبعة المعارف، 1975.

ضيف، شوقي: البطولة في الشعر العربي، ط2، القاهرة، دار المعارف، (د.ت).

ضيف، شوقي: البلاغة تطور وتاريخ، ط9، القاهرة، دار المعارف، (د.ت).

ضيف، شوقي: العصر العباسي الأول، ط16، القاهرة، دار المعارف، (د.ت).

ضيف، شوقي: العصر العباسي الثاني، ط12، القاهرة، دار المعارف، 2001.

ضيف، شوقي: النقد، ط5، القاهرة، دار المعارف، (د.ت).

عبدالله، مصطفى عبد الهادي: ظاهرة العدول في شعر المتنبي، ط1، القاهرة، المجموعة العربية للتدريب والنشر، 2010.

الفاخوري، حنا: **الفخر والحماسة**، ط5، القاهرة، دار المعارف، 1992.

فتوح، محمد أحمد: **شعر المتنبي قراءة أخرى**، ط2، القاهرة، دار المعارف، 1988.

فروخ، عمر: **تاريخ الأدب العربي الأعصر العباسية**، ط، دار العلم للملايين، 1968.

الكفراوي، محمد عبد العزيز: **الشعر العربي بين الجمود والتطور**، القاهرة، نهضة مصر للطباعة والنشر، (د.ت).

مناع، هاشم: **بشار حياته من شعره**، ط1، بيروت، دار الفكر العربي، 1994

نصار، جمال: **الاخلاق الإسلامية**، ط1، السعودية، مكتبة المتنبي، 2009.

ثالثاً: الرسائل الجامعية

الرشيدى، نواف الحميدي: **الصورة الفنية في شعر أسامة بن منقذ**، رسالة ماجستير، جامعة مؤتة، المملكة الأردنية الهاشمية 2011.

صالح، إبراهيم نجم: **جدلية الهدم والبناء في شعر أبي تمام**، رسالة ماجستير، جامعة تشرين، سوريا، 2007.

المرامحي، قابل رشيد: **صورة البطل في شعر أبي تمام**، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 1435هـ.

رابعاً: الدوريات

آباد، مرضية: **مظاهر الفكر في شعر ابن الرومي**، مجلة اللغة العربية وآدابها، عدد3، 1434-1435هـ.

بزيو، أحمد: **عمود الشعر النشأة والتطور**، مجلة الأثر، العدد 21، ديسمبر 2014.

الشّمري، نائر سمير وكمال عبد الفتاح السامرائي: إيجاء الكلمات في الشعر العباسي دراسة
تأويلية في قصيدة الإختيار ورمزية التعبير، مجلة مركز بابل للدراسات الإنسانية،
المجلد4، العدد 2.

صدام، أزهار فنجان وحنان بندر علي: أثر الثقافة الفلسفية في شعر أبي تمام، مجلة أبحاث
البصرة، المجلد 36، العدد 4، 2011.

علي، عالية: التجديد في شعر أبي تمام مطالع القصائد نموذجاً، مجلة العلوم الإنسانية، جامعة
محمد خضير، بسكرة، العدد السابع، 2005.

أبو مراد، فتحي: من مظاهر الانحراف الأسلوبي في عينية أبي تمام، مجلة جامعة النجاح
الوطنية للأبحاث والعلوم الإنسانية، مجلد 25، 2011.

الموسوي، محمد وشاكر العامري: مظاهر الإبداع في مدائح أبي تمام، مجلة دراسات في اللغة
العربية، العدد 5، 2011.

نجم، إبراهيم صالح: جدلية الهدم والبناء في شعر أبي تمام، مجلة جامعة تشرين، 2007.

يونس، أحمد قتيبة: فنية قصيدة المدح عند أبي تمام (فتح عمورية نموذجاً)، مجلة دراسات
موصلية، العدد16، 2007.

**An-Naiah National University
Faculty of Graduate Studies**

**Survey and analysis about the
habit of courage in the Abbasid
poetry - Study of selected models**

**By
Yazeed Mustafa Kamel Zain Edieen**

**Supervised by
Dr. AbdulKhaleq Issa**

**This Thesis is Submitted in Partial Fulfillment of the
Requirements for the Degree of Master of Arabic Language &
Literature, Faculty of Graduate Studies, An-Naiah National
University, Nablus, Palestine.**

2017

**Survey and analysis about the habit of courage in the
Abbasid poetry - Study of selected models**

By

Yazeed Mustafa Kamel Zain Edieen

Supervised by

Dr. AbdulKhaleq Issa

Abstract

This study seeks to explore the trace of the habit of courage in the Abbasid poetry, to find out how poets have presented this habit, and to highlight the image of courage and braves in the Abbasid poetry.

The study deals with manifestations of courage as Abbasids poets draw it. It talks about opinion and intrigue, prestige, patience in adversity, self-making, chastity, excellence and individualism, the adversity with other poets and finally some images of brave as the lion, the sword, and the aspects of nature such as the sky, the clouds, the torrent, and the mountain.

The study stopped also at the war and its tools. So, it shows what poets said about the courage and the description of the battle, the army, the status of the enemy before and after the battle, the large number of deaths. In other hand, it shows the tools of the war, like the swords, spears, and arrows.

At the end, the study included a conclusion that indicate the most important results of this research.